رواية

سارق العمامة

شهيد





سارق العمامة

شــهـيد

The Turban Theif

Shahid

الطبعة الأولى: 2017
إصدار دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790 - 07700492576 - email: bal_alame@yahoo.com

First Published by Dar Sutour For Publishing and Distribution
Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jadeed Hasan Basha Entry



ISBN: 978 - 1 - 77322 - 170 - 0

رواية

شهيد

سارق العمامة

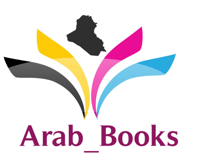





Arab_Books

لا يجوز شرعاً بيع هذه الرواية للمتدينين






Arab_Books

لقاء

في إحدى الليالي زارني الله. أخبرته برغبتي بأن أكون نبياً. لم يعترض على ذلك ولم يرفض طلبي. ولكنه وضع شرطاً غريباً وقال لي: إذا نفذت هذا الشرط سأمنحك الفرصة.

في تلك الليلة دار بيننا حديث طويل. تحاورنا بطريقة بعيدة عن الأطر الرسمية. كأن ذلك اللقاء لم يكن الأول بيننا. كأننا نعرف بعضا منذ زمن طويل. هذا الانطباع تكوّن لدّي من سياق التخاطب الودّي الذي ساد حوارنا. رغم سعة ما دار بيننا إلا إنني آثرت عدم التطرّق إلى أسباب الزيارة. تقصّدت عدم الخوض في ذلك لأنني وجدت في هذه الزيارة فرصتي الثمينة التي قد لا أحظى بها ثانية...

إنها فرصة العمر التي كنت أتأملها منذ زمن طويل. لذلك سارعت باغتنامها. بدون أي حرج أو تردّد قدمت له طلبي وأخبرته بما أطمح إليه. وضعت الطلب بين يديه وأنا مطمئن. إحساسي بالطمأنينة كان ناتجاً عن قرب الرب مني. أدركت قربه مني على الرغم من كون لقائنا قد تم في المنام...

هذا اللقاء بمجرياته المتشعبة اختصر لي الطريق. لم أكن في السابق قد مررت بحالة اطمئنان مشابهة لما أحسست به في تلك الليلة. وأنا



أقف أمام الرب اكتشفت نوع النظرة التي ينظر بها إلينا. أدركت مدى اهتمامه بنا. إنه منشغل بنا بصورة لا نتوقعها. عرفت أيضا بأن هناك حالة اتصال قد تكوّنت بيني وبينه وإن هذه الحالة لن تنقطع بعد هذا اليوم. هذا ما جنبني عناء البحث والتقصّي. لقد تم حسم موضوع وجود الله. انه موجود بداخلي. له مستقر داخل ذاتي. لم أعد بحاجة إلى التوجه إلى السماء. اتفاقنا تم هنا. على الأرض. بطريقة بسيطة وبعيدة عن الشكليات القديمة التي كان يتم إتباعها عند إصدار المراسيم الإلهية الخاصة بتكليف الأنبياء...

خطوة واحدة فقط. بعدها تصبح مؤهلا لحمل صفة النبي. إشارة الرب هكذا وصلتني....

ومن هنا كانت البداية.



قرار

الفرص العظيمة تطرق أبوابنا مرّة واحدة فقط. ولا تُكرر الزيارة مرّة أخرى...

أقول ذلك لنفسي لأعلمها بأن المواجهة المباشرة مع الرب قد لا تتكرر مرّة أخرى. لقد قال ما عنده وسمح لي بأن أقول ما عندي. أنصت إليّ بروح الصديق وتركني أتحدث بحرية كاملة وفي النهاية استجاب لطلبي وبالمقابل وضع شرطاً بسيطاً لقبول ذلك الطلب...

الكُرة الآن في ملعبي. الشرط الذي وضعه الرب ليس مستحيلاً. لا أبداً. بل هو في غاية السهولة. ما أكثر العمائم وما أسهل سرقتها. كل ما عليّ فعله هو اختيار واحدة وتنفيذ الشرط الإلهي من خلال سرقتها. الأمر بسيط جداً ولكنه يحتاج إلى قليل من التركيز والتروّي لكونه مرتبطا بموضوع آخر يتعلق بكثرة العمائم...

النقطة المهمة التي يجب الالتفات إليها هي أن يتم تجاوز مرحلة المفاجأة. الأمر يحتاج إلى شيء من الاستقرار والتركيز الذهني. موضوع الكثرة يجب أن لا يكون سبباً للتلكؤ وتأخير التنفيذ...

الرب ينتظرني. الإنسانية تنتظرني. وأنا انتظر نفسي. لا يوجد مبرر للتأخير. الاتفاق الذي حصلت عليه لا يمكن الوصول إليه بسهولة.



إنه اتفاق استثنائي خارج السياقات العقلية. بعيد عن النسق. بعيد عن التوقع. ولكنه حصل..

ما طلبهُ الرب مني يمكنني أن أصفه بالشرط المفاجئ. في عقلي جملة من الاستفهامات تجاههُ ولكني اشغل نفسي بفكرة أهم وهي فكرة التنفيذ. على الرغم من كوني أدور حول أبعاد المفاجأة إلا إنني كنت أبحث لها عن وصف يناسب الأثر الايجابي الذي تركته في نفسي. مفاجأة تناسب مقام الرب وهذا ما يستوجب التعامل معها بأسلوب استثنائي: تركت التفكير في أسباب وضع هكذا شرط إلى وقت آخر. ما يهم الآن هو الانتقال إلى الخطوة الأولى: التنفيذ.

روح النبوة تغلي في داخلي. تتحرك. تحاول الانتقال إلى مرحلة التنفيذ. خير النبوة عاجلها. هذه النداء اسمعه يتردد داخل أروقة عقلي. ينبّهني إلى ضرورة حسم الموضوع والتعجيل في أمر الاختيار.

ولكن كيف أبدأ....؟

هل أُجري مسحاً شاملاً للجوامع أم استعيض عن ذلك بأن أمُرَّ سريعاً على حزمة القنوات الفضائية الدينية لألتقط واحداً من أولئك المتربعين على عرش الشاشات الطافحة بالإيمان. هنالك فكرة أخرى وهي أن أقوم بتأجيل التنفيذ إلى يوم الجمعة ففي هذا اليوم تهطل العمائم بغزارة على المنابر...

أفكار عديدة تنشط في عقلي. تحدّثني عن زوايا أخرى صالحة لتنفيذ الشرط الإلهي. تُغريني وتطلب مني الذهاب إلى الأماكن المحصّنة والسراديب المظلمة. تلك الأفكار تدفعني إلى مشاكسة الكبار...



تجاوزت كل هذه الاقتراحات وحسمت أمر العمامة التي ستكون هدفاً لتنفيذ الشرط الإلهي. فعلت ذلك وفي داخلي شيء من الأسف. ما يؤسفني هو أن الله قد حصر شرطه بسرقة عمامة واحدة. لو كان قد زاد في عدد العمائم لكان الأمر أكثر حيوية وأكثر تشويقا. ولكنها قناعة الرب وعليّ أن لا أخالفها. يجب أن التزم بالاتفاق وأن لا أتجاوزه.

إنها الخطوة الأولى....



؟

على ورق مخيلتي رسمت أكثر من تصميم للعمامة التي سأقدمها للرب. أكوّن صورتها بأشكال مختلفة. امضي وقتاً طويلاً في تكوين تلك الأشكال ثم انتبه إلى أن الرأس الذي يحمل تلك العمامة هو المهم. وضعتها على نماذج مختلفة من الرؤوس. في جعبتي الكثير من تلك النماذج. يكتمل مشهد السرقة في رأسي ثم أقوم بإعادته مرة أخرى وفق سيناريو آخر...

استهلكت الكثير من السيناريوهات والمشاهد. أقوم بدور المخرج والممثل في نفس الوقت مفترضاً أن الرب هو المشاهد الوحيد الجالس أمام الشاشة. انتظر ردّة فعله تجاه كل سرقة افتراضية أكوّنها في خيالي. أُجري ذلك افتراضياً في سبيل الوصول إلى المشهد النهائي الذي سيحظى بقبول الرب...

مارست دور المخرج بدوافع مزدوجة من بينها رغبتي في معرفة دواعي هكذا شرط. أخضعت الأمر إلى جُملة من العمليات الذهنية. ما هي غاية الرب..؟ ما الذي يدعوه إلى هكذا خيار..؟ لماذا هذا الشرط بالذات..؟

أنا نبي عقلاني. هذا المبدأ جعلني أُخضع كل ما يصدر عني لسلطة



العقل ورقابته. ضوابط العقل يجب أن تكون حاضرة. هذا الأمر لا يخل بالاتفاق. أفكر بما يريده الرب. أو ما أريده أنا. لديّ يقين تام بأن الله الذي في داخلي لا يتدخل. لقد منحني صلاحيات واسعة. خولني حرية التصرف. كأنه يقول لي: توّلَ أنت الأمر ولا تفكر بأي قيد. دع عقلك يملأ المساحات الفارغة....

عمامة. يقابلها سؤال. وأجوبة مفترضة:

- لكون رسالتك متوجهة نحو الانقلاب على الثابت. من البديهي أن تكون العمامة هي الرمز المعادل للثابت. إنها الشيء الوحيد الذي لا يجوز الاقتراب منه والتحرش به في هذا الزمن.
- ربما لأنها الأقرب إلى العقل. بل هي جاثمة ومتسلطة عليه وهذا ما يستدعي التخلص منها في سبيل تحرير العقل وتخليصه من قيودها.
- الاحتمال الآخر أن يكون الأمر متعلقا بروح العصر. ذلك ناتج عن قناعة الرب بأن مظهر العمامة لم يعد مناسباً لهذا الزمن. العمامة خُلقت لزمن آخر، زمن موغل في القدم.
- إنها سلوك مظهري. الرب يطمح إلى علاقة خالية من المظاهر. علاقة تتوجه إلى الجوهر. لهذا يريد التخلص منها.
- ربما بسبب الخيانة. هنالك خيانة قد حدثت. الطرف الخائن يضع على هامته تلك العمامة والطرف الآخر هو الله.
- لإنهاء الحروب. حروب العمائم والفتاوى الصادرة عنها. من المتوقع إن الرب قد أدرك أن الحروب التي يرى دماءها تسيل كل يوم هي حروب عمائم لذلك أراد إنهاءها من خلال الرسالة التي تضمنها شرطه.



هذه الأجوبة وضعها العقل على طاولة التفكير. أشار عليّ بأن أتقبّلها جميعها. لم يكتفِ بذلك وإنما حفّزني على الاستمرار بالبحث والتقصّي عن المزيد من القناعات المؤيدة للفكرة. هذا ما دعاني إلى تتبع خُطى علامة الاستفهام التي راحت تهرول على جادّة عقلي. المزيد من الاستفهامات أيها النبي القادم. هذا هو حكم العقل. اتبع العقل ولن تندم...

كل ما في الكون يجب أن يصمت الآن. الأفق مشحون بالأسئلة المتعلقة بالرسالة:

ما سأقوم به هل هو سلوك ضدي تجاه العمامة أم تجاه حاملها...؟

الاعتراض على الشكل أم على المضمون...؟

ماذا بعد التخلص منها. هل نكتفي بذلك أم نبحث عن بديل...؟

هل أنا مؤهل لهكذا مهمة...؟

هل احتمال الفشل وارد...؟

استوقفني السؤال الأخير. هو الأكثر إحراجاً. أهمية المشروع تجعل القلق وارداً ومباحاً. كل ما تقدّم من إستفهامات قابل للمعالجة. هناك ذخيرة كافية من الردود يمكن الاستعانة بها عند الضرورة. ولكن السؤال المتعلق باحتمالية الفشل لا يبدو متماهياً مع الأسئلة المجاورة له. كلمة الفشل هي المفردة التي يجب شطبها من قاموس الأنبياء. ليس ذلك فقط وإنما يجب حذفها من لائحة الأمور المُفكر بها. الأنبياء لا يتداولون هكذا فكرة على الرغم من كونهم أصدقاء مخلصين لعلامات الاستفهام...



بعد إن نحّيت السؤال الأخير جانباً واصلت التقدم في أفقي المزحوم بالاستفهامات. لا بأس بذلك فوجودنا عبارة عن سؤال ضخم. ماهيتنا مرتبطة به. وهذا ما يوجب علينا أن نعامله بروح رياضية عالية.

الأسئلة تتزاحم في ذهني المتوقد إلا إنها تؤدي دورها الإشاري بصورة جيدة بما يخدم التقدّم باتجاه لحظة التنفيذ الحاسمة.



خطأ

حين القوا القبض عليّ متلبساً والعمامة بين يديّ شرحت لهم كل شيء. قلت لهم بأن ما قمت به كان بناءً على اتفاق مسبق مع الرب. كلّمتهم بإسهاب عن ذلك. كنت أظن إن كون الرب طرفاً في الموضوع سيجعل موقفي قوياً. حديثي معهم اتسم بالجديّة. جديّة مفرطة مع إشارات متكررة تتعلق بالشرط الإلهي...

أدهشني صمتهم إزاء ما أخبرتهم به. اكلّمهم بشيء كبير من الثقة بالنفس وعدم التردّد. رغم ذلك لم يتفاعل أحد منهم معي. كان سكوتهم ثقيلاً ومحيراً بالنسبة لي. بالإضافة إلى كونه غير متوقع. رغم كثرتهم إلا إن أحداً منهم لم يكلّف نفسه بمناقشتي بخصوص ما أدليت به. اكتفوا بتقييدي ثم أخذوني إلى صاحب العمامة المسروقة. «ظهرْ الدين»...

عندما سمعت أحدهم ينطق به. فوجئت بذلك الاسم. اقتادوني مكتوف الأيدي. كان عقلي يتأرجح بين فكرتين. منظر العمامة التي انتزعت مني يأخذني إلى احتمالية ضياع الفرصة. أسير ببطء محاطاً بوجوه صارمة يرتدي أصحابها بدلات رسمية أنيقة. امشي وعيني لا تفارق العمامة التي فارقت يدي وانتقلت إلى تلك اليد التي تحملها الآن بحذر شديد. أراقب طريقة حمله للعمامة. إنه يقبض عليها



باحتراس مبالغ فيه. أفكر بفرصتي الضائعة ثم انتقل لاشعورياً إلى «ظهر الدين»...

ظهرْ الدين...

هذا الاسم يختلف عن اسم الشخص الذي وقع عليه اختياري ليكون محلاً لتنفيذ الشرط الذي وضعه الرب. من خلال ذلك الاسم أدركت بصورة قاطعة بأنني قد سرقت العمامة الخطأ...

مثولي أمام «ظهرْ الدين» لم يستمر طويلاً. دقائق معدودة. كل ما قام به عندما وقفت أمامه هو توجيه سؤال واحد فقط. كان سؤاله عن الدافع الذي جعلني ارتكب هكذا فعل. لحظتها انتابني شعور جعلني اقتنع بأني غير معني بالسؤال التحقيقي الذي وجّهُ إليّ. حينذاك كنت في منطقة تفكيرية بعيدة. أُجهد نفسي لتجميع أفكاري التي تشتتت بسبب ما أراه من تشابه كبير بين الشخص الذي أقف أمامه والشخص الذي خططت لسرقة عمامته...

بدلاً من الإجابة على السؤال الاستفزازي الذي وجهه لي «ظهرْ الدين» أخبرته بشيء آخر. شيء بعيد عن الموضوع الذي ساءلني عنه. قلت له بأنني احمل إشكالاً على الاسم الذي يحمله. تلك الإشكالية التي أفصحت عنها كانت بريئة وسخيفة في نفس الوقت. بريئة في نظري وسخيفة في نظرهم. تفوهت بها في لحظة غضب مكتوم. لم استطع تجاوزها وأنا أراه يقوم بتعديل عمامته التي عادت إلى مستقرها فوق هامته...

استفزني صمته. برودة أعصابه زادت من حنقي. تجاهله لإشكاليتي أوقظ وحش الاعتراض الرابض داخل ذاتي المتمردة. لم أجد بُداً من



مقابلة نظرته الباردة بصرخة مدويّةِ تردد صداها في أرجاء الجامع الفخم الذي وقعت فيه عملية السرقة الفاشلة...

في تلك اللحظة ساد صمت عميق. لم يكن احد يتكلم سواي. صوتي المتعب تسيّد المكان. أنا السارق في نظرهم والنبي المؤجل في نظر نفسي. خاطبت «ظهرْ الدين» بلغة صارمة تناسب مقامي كذات طامحة بالنبوة. قلت له:

ـ اسمعني.. قبل أن تسألني عما قمت به عليك أن تنتبه لنفسك أولاً.. أن تراجع نفسك بخصوص الاسم الذي تحمله.. هل فكرت يوماً بهذا الاسم الذي تحمله.. هل فكرت بدلالته وما يحمله من معنى.. إن لم تقم بذلك فدعني أقُل لك شيئاً بخصوصه.. الاسم الذي تحمله يدعو إلى تجسيم الدين...

أراقب ملامح «ظهرْ الدين» التي بدا التوتر والحنق يظهر عليها. ألاحظ أيضاً إصراره على الصمت والاكتفاء بالإنصات إلى ما يصدر عني. قبالة ذلك أدركت ضرورة الاستمرار بالهجوم:

ـ عليك أن تفهم إن اسمك يعني إن للدين جسما.. وهذا يعني إنه مكوّن من مجموعة من الأعضاء.. فما دام للدين ظهر فلابد من وجود أعضاء أخرى.. رأس الدين مثلاً.. يد الدين.. قلب الدين..

رحت اعّدد له أسماء أعضاء الجسم وأقرنها بالدين حتى وصلت إلى ذلك الجزء الجسدي الذي ينتهي بحرف الزاي. رأيت الغضب في وجوه الحاضرين عند ذكري لذلك العضو ولكن ذلك لم يمنعني من الاستمرار:



ـ هذا إن كان الدين رجلاً.. أما إذا كان امرأة فلابد من الإشارة إلى مسميات أخرى مشتقة من جسم المرأة...

أفرغت طاقة الغضب التي بداخلي ولكن رغبتي بالاسترسال ما زالت قوية. أردت أن اطرح المزيد من المسميات. أن أُنهي إثبات الإشكالية بصورة كاملة وان أُعلم «ظهرْ الدين» بالأثر الدلالي المترتب على اسمه. أردت ذلك إلا إنني لم افلح في تحويل خطابي باتجاه الأسماء التي يمكن اشتقاقها من جسم المرأة. نطقي لحرف الزاي الواقع في مؤخرة الدين أثار حفيظة كل الموجودين بمن فيهم «ظهرْ الدين» الذي لم يعد يحتمل صبراً إزاء ما يسمعه من طروحات مزعجة وخصوصاً بعد سماعه لذلك الاسم الذي ينتهي بالحرف الماجن الذي بسببه انتهى كل شيء بسرعة...

أتحدث عن خطئي...

ذلك الخطأ الجسيم الذي تسبب بتعطيل المهمة وأدّى إلى توقف كل شيء...

لم يكن ذلك فقط وإنما كان سبباً لتلك الأيام العصيبة التي قضيتها في مستشفى المجانين.



ما بعد الخطأ،

في نهاية المطاف

نحن لا نخدع سوى أنفسنا




Arab_Books

I

ـ هناك غرفة صغيرة فيها اثنان يشبهانك.. سأحشرك معهما..

لا يصله معنى صمتي فيضيف:

ـ لا تقلق.. هذه الغرفة مجانية...

وأنا ارتقي درجات الُسلّم المظلم برفقة مدير الفندق صعوداً نحو الطابق العلوي الفكرة التي دارت في رأسي كانت تتعلق بأولئك الاثنين اللذين راح يكلمني عنهما. فكرة الشبه الذي يجمعني بهما كانت تسير معنا نحو الأعلى...؟

فكرة خاطفة رافقت خطواتي المتعثرة على السُلّم. إشارات قاتمة تتعلق بالقادم من الأيام القليلة التي سأقضيها في تلك الغرفة التي ستجمعني مع شخصين قيل لي بأن هناك وجه شبه بيني وبينهما. في الغالب الأعم يكون الشكل هو المقياس المعتمد في المقاربة والمقارنة والمشابهة بين الناس. لا اعتقد أن مدير الفندق عندما تطرق إلى مسألة التشابه قد اكتشف أمورا أخرى لا تتعلق بالشكل. من المستبعد أن يكون قد توصل إلى اكتشاف أبعد من ذلك. لا أظن انه توصل إلى شيء يتعلق بالذات. الأنبياء لا يمكن مقارنتهم بغيرهم. احتمالية المشابهة الذاتية غير واردة. أفكر في ذلك ثم استدرك. هذا لا ينفي أن هناك نواحي أخرى لا يجوز الاعتراض على احتماليتها...



امشي خلفه بهدوء. أجواء الفندق تستبق الإحداث. تُخبرني بأن جميع من في الفندق يشبهني. إنه فندق المشردين. أو فندق المهملين. أو أي اسم آخر يصلح للاقتران بالذوات المُهمّشة..

اليافطة ذات الألوان الكالحة المُعلّقة على واجهته يجب تصحيحها وتعديل ما مكتوب فيها وتحويله من فندق السعادة إلى فندق المهملين أو فندق المشردين. لو كنت امتلك الخيار لسارعت بذلك التصحيح بدون أي تردد...

التصحيح الذي يدور في دماغي يجب أن لا ينصرف إلى المسميات فقط وإنما يجب أن يستوعب الحياة بأكملها. هذا ما يستدعي أن لا تخلو الأرض من الأنبياء. انه الحافز الداخلي المحرّض على المواصلة وعدم الاستسلام لليأس. أحاور نفسي. أنا المشرد الجديد. أو المهمل الجديد. أو السعيد الجديد الذي دخل في قيد هذا الفندق تحت توصيف غير ذي أهمية في هذه المرحلة...

السعيد أو المُهمل. لا فرق عندي بين هذين التوصيفين. ذلك غير مهم. المهم أن هناك رقماً جديداً قد أضيف إلى القائمة. ما يهمني أكثر هو إنني سأحظى بسكن مجاني. خاصة واني خرجت من معقل المجانين خالياً من أي شيء. مجرد هارب يعوي البؤس خلف خطواته...

أشغل نفسي بالتفكير بهذه الميزة التي حصلت عليها دون أن أكلف نفسي عناء التصريح. لو كنت قد كشفت حقيقتي لمدير الفندق ماذا ستكون ردّة فعله وكيف سيتعامل معي. هذه الأسئلة يجب تأجيلها الآن. هناك أمور أخرى يجب التفكير بها. انه ليس الوقت المناسب للإعلان.



يتوجب عليّ أولاً تصحيح خطئي واستئناف التجربة خلال هذه المدة القصيرة المتبقية لي من الحياة...

رغم كوننا في الساعات الأولى من النهار إلا أن أجواء الفندق لم تأخذ حصتها الكافية من الضياء. أجواء رطبة تبث شكواها فيما يخص حرمانها من نعمة ما تجود به الشمس. لم يخطر في بالي إني سأنتقل لأعيش في هكذا مكان. نظري ضعيف. هذا ما أشعر به. كدتُ أن أقع بعد اجتيازي للسلالم الثلاثة الأولى. التفت إليّ مدير الفندق وقال (لا بأس ستعتاد على ذلك). خطواتي مطيعة لأثره. اتبعه وفي داخلي ترّقب يزداد اتساعاً مع كل خطوة إضافية أطبعها على درجات السُلّم المظلم...

كل شيء في الفندق يدّل على الإهمال. جدرانه متآكلة تعلوها طبقات كلسية بيضاء ناتجة عن ترشح ماء الأمطار. مع بقايا أصباغ بألوان كالحة غيّر الزمن جنسها لا يمكن تمييزها هل هي بيضاء أم رمادية. الطابق الأرضي خالٍ من السقف ومفتوح على الطابق العلوي بشكل يتيح لمن في الأسفل رؤية من في الأعلى. الغرف متقابلة ولا يفصل بينها سوى الفراغ الناتج عن عدم وجود السقف...

من الأعلى شاهدت منظراً غريباً جعلني أتوقف عن مواصلة السير. وضعت يدي على الحاجز الحديدي الذي تم تركيبه عند حافة الممرات العلوية. انتبه مدير الفندق إلى تأخري عنه ثم لاحظ دهشتي ونظراتي المصوّبة إلى الأسفل. ألقى هو أيضاً نظرة إلى الطابق الأرضي ثم ابتسم وقال:

ـ إنه عبد الرزاق حاوية...



لم يضف شيئاً غير هذا التعريف المبتور بعد أن قال (اتبعني). عّدة غرف أبوابها الخشبية القديمة موصدة يخيل لمن ينظر إليها إنها غير مسكونة. اجتزتها وعيناي تلتقطان الصور الأولى للمكان. في الجهة المقابلة كان هناك عمال بأعمار صغيرة يقومون بنقل صناديق كارتونية من إحدى الغرف التي يبدو أنها اتخذت لخزن البضائع..

يُفتح الباب على شخصين يجلسان متباعدين بقنوط واضح. ملامحهما متقاربة. اللحية الطويلة والشعر الأشعث قاسمهما المشترك..

ـ هذا زميلكما الجديد في الغرفة.... لا أريد مشاكل...

قال ذلك وتركني عند الباب وانصرف. اصطدمتُ بنظراتهما الشرسة. تجمدت خطواتي عند عتبة الباب. لم أتجرأ على الولوج إلى داخل الغرفة لولا مبادرة احدهما بالقول (هذا هو سريرك) وأشار بيده نحو سرير فارغ عليه فراش قديم...

جلست على السرير وأنا أبادلهما النظرات الطامعة بالتعارف. هل يشبهاني حقا..؟ طيلة الفترة التي أمضيتها في مستشفى المجانين لم انظر إلى وجهي في المرآة. من المحتمل أن أكون قد نسيت شكلي...

ما زالت نظراتهما مصوّبة إلى وجهي الذي نسيت ملامحه. هل هما مشغولان أيضاً بموضوع التشابه الذي أشار إليه مدير الفندق أم أن هنالك أمورا أخرى تدور في ذهنهما...

حوار العيون الذي لم افهم منه شيئاً استمر لعدّة دقائق. بعدها خرق احدهما قوانين الصمت التي سادت اللقاء بعد أن التفت إليّ وسألني بصوت أجش:



ـ هل أنت متسول..؟

ـ كلا...

ـ أذن ما الذي جاء بك إلى هنا..؟

ـ وما المانع من ذلك..!

ـ هذه الغرفة لا يُحشر فيها سوى المتسولين...

ـ ربما سأكون متسولاً في المستقبل.

جملتي الأخيرة جعلتهما يقفزان من مكانهما ويصرخان:

ـ لا.......

بعد هذه الـ«لا» الاعتراضية غطّت الغرفة بضحكة جماعية سمعها كل المتواجدين في الفندق.



II

ستموت بعد أسبوع..

لقد تركت شيئاً ورائي. هناك في مستشفى المجانين. لا أعرف ما هو ذلك الشيء. ذاكرتي المعطوبة غير قادرة على استرداد العديد من الملفات الضائعة...

الجملة الأخيرة التي سمعتها من معاون الطبيب الذي ساعدني على الهروب جعلتني أهمل التفكير بتلك الملفات المفقودة. ما جدوى تكثيف الحاضر بملفات تخص الماضي. الماضي مجرد أفكار وذكريات تخالطها طموحات وخطط انتزعت من دماغي بفعل جلسات الصدمات الكهربائية. الجدوى الآن تدعو إلى تركيز اللحظة. لا شيء قبل هذه اللحظة. الما بعد هو الضرورة. سبعة أيام فقط. كل ما حصلت عليه من وقت إضافي في هذه الحياة...

سبعة أيام.. هل هي كافية للتعويض..؟

اللحظة التي سمعت فيها تلك المعلومة أحسست أن قدميّ قد تجمّدتا. تسمرتُ أمام معاون الطبيب الذي أصابته الصدمة لموقفي. تصلبت أمامه كالتمثال. أمام حيرته وقفت أنا متحيراً أيضاً. كلماته المُشجعّة لي والتي تحثني على الإسراع بالهرب كأنها لا تصل إلى



إدراكي. أو إنها تصلني بمعنى مغاير. حينها كان هناك عبء ثقيل يمنعني من التحرّك. خطواتي تتراجع أكثر مما تتقدم. انظر إلى باب المستشفى المفتوح الذي يدعوني هو أيضاً إلى عدم إضاعة الفرصة. نظرت إليه بعين العاجز عن اتخاذ أي قرار...

لا ادري كيف انبثقت تلك الذات المعارضة لذاتي الطامحة بالحرية. نشطت بداخلي ذاتٌ ممانعة ورافضة لفكرة مغادرة المستشفى. أتذكر صرخة معاون الطبيب التي أطلقها بوجهي بعصبية بعد نفاد صبره إزاء ترددي. صرخته المُعنّفة لي هي التي أجبرت قدميّ على الحركة والإفلات من قيد الذات المُمانعة. بصعوبة بالغة تحررت من تلك الذات التي مارست سلوكا ضدياً تحت ذريعة اللاجدوى. حتى بعد خروجي من المستشفى استمرت بمطاردتي بكلماتها المُحبطة:

النهاية..

النهاية..

النهاية..

هذه الكلمة المُشّبعة بروح الأفول طاردت ذاتي الحالمة بالنبوة. تلفظ مفردة «النهاية» ثم تعيد ما قاله معاون الطبيب (لقد تم زرقك بحقنة مميتة سيظهر مفعولها بعد سبعة أيام... ستموت بعد أسبوع). تلك الذات الانفصالية تريدني أن أعيش حالة الجنون للسبعة أيام المتبقية من عمري لذلك عملت ما بوسعها من أجل إبقائي في مستشفى المجانين. استمرت بمطاردتي وهي تبذل جهدها في سبيل إقناعي بعدم جدوى الهروب من المستشفى ما دمت سأموت بعد سبعة أيام. كدت اخضع



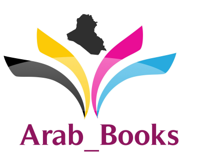
لصوتها المؤثر لولا تحرك ذاتي النبوية والتي راحت تذكرني بالاتفاق الذي تم إبرامه مع الرب..

هاهو نهار اليوم الأول من الأيام السبعة يوشك على الانتهاء. لقد بدأ العد التنازلي مؤذناً ببداية مرحلة جديدة. هذه المرحلة تحمل جانباً كبيراً من التطلعات القلقة. سقط يومي الأول الذي أمضيت اغلب نهاره بالنوم وعندما صحوت في نهايته بدأت بالتفكير والتهيئة لما تبقى. لابد من استثمار المتبقي. لا وقت للبحث عن القصديّات القدرية وتقصّي العلل. يجب إعادة النظر والتفكير بجديّة اكبر. القدر يمنحني الفرصة الأخيرة وهذا يتطلب تهيئة الأمور بدقة. أولاً يجب عدم الالتفات إلى ما مضى. الجزء الأول من التجربة يجب إهماله وعدم العودة إلى حيثياته. مازالت الفرصة قائمة. كل ما أحتاج إليه هو إجراء تعديل بسيط فيما يتعلق بمسألة التنفيذ. اتفاقي مع الرب لم يلزمني بسرقة عمامة معينة. الرب ترك لي حق الاختيار. وبما أن ظروف التجربة قد اختلفت لذلك فأن قرار السرقة سيتوجه إلى أيّة عمامة بغض النظر عن شخصية حاملها. الوقت ضيّق. في هذه المرحلة شخصية حامل العمامة ليست محل اعتبار. ما يهم هو تحقق السرقة...

من هنا سيتم استئناف الخطوات. من عمق هذا المكان المهمل ستكون العودة. هنالك أمرٌ آخر لابد من أخذه بعين الاعتبار. فكرة أخرى تتعلق بوقت التنفيذ. النهار لم يعد متاحاً لي. الخروج في النهار ما عاد ممكناً. لم يعد أمامي سوى الليل. هنالك ليل وفي الليل تكون محاولة السرقة أكثر قابلية للنجاح...



احدّث نفسي بذلك وأنا مستلقٍ في سريري ملتحفاً غطائي القديم محاولاً ترتيب أوراقي. أتأمل الآتي. ساعياً للقبض على أيامي الستة المقبلة. المدّة الممنوحة لي قصيرة ولا تتناسب مع حجم ما أطمح إليه. لا يوجد أحد أقدّم له نقطة نظامي. رُفعت الجلسة دون أن يُستمع لأقوالي. أطيل النظر فيما حولي. شركائي في الغرفة غير متواجدين. أنهض من الفراش. أقف على السرير وأقول: إن نجاح التجربة ليس بطول أو قصر مدّتها وإنما باستثنائيتها وخروجها على المألوف. ستكون قضيتي أكثر إقناعاً إذا ما تحققت شروط النبوة في الأيام الأخيرة من حياتي. سيقال عني الكثير. سيقال مثلاً بأني كنت نبياً خفيف الظل. جئت مبكراً وغادرت مبكراً. ستنهال عليّ التوصيفات: المُختلف. المتمرد. الخجول. الاستثنائي. العنيد. جميع تلك التوصيفات ستكون مسبوقة بلفظة «النبي».



III

نعم أنا منحرف...

هذه العبارة سمعتها أكثر من مرّة. تتردد على مسمعي بعد كل جلسة من جلسات الصدمات الكهربائية. جملة مقتضبة تأتيني في اللحظات التي أكون فيها قريباً من فقدان الوعي. يطلقها ذو العمامة السوداء في محاولة منه لفتح حوار معي. يُعيدها عليّ في زياراته المتكررة مستغلاً حالة الضعف التي أعيشها بفعل الصدمات الكهربائية التي تسري في جسدي. يفعل ذلك لتثبيت حضوره أمام ذاتي التي أنهكتها الإقامة في معقل المجانين...

من خلال تلك الجملة عرفت ما يريده مني. في حواره معي كان يبحث عن شيء ما. لم يصرّح بذلك الشيء ولكنه لا يُخفى عليّ. انه يبحث عن السبب. يبحث عن دواعي اختياري له بالذات. لماذا هو دون غيره...؟

ـ أنا منحرف عن دينهم وأرفضه جملة وتفصيلا..

يكرر ذلك في سبيل استفزاز وعي النبوة المتعلق بالشرط الإلهي المرتبط بعمامته. يشدّني الشبه الواضح بينهُ وبين «ظهرْ الدين». حتى نبرة الصوت تكاد تكون متطابقة. أتأمل وجهه. تعيدني ملامحه إلى



اللحظة العصيبة التي قادتني إلى عالم المجانين. هذه المرّة كان تعاملي معه مختلفاً. منحته وقتاً كافياً لإبداء ما لديه من دفوع. يستمر بإعادة نفس العبارة منتظراً نوع الاستجابة التي ستصدر عني. تتأخر عليه تلك الاستجابة فيُضيف:

ـ أرفض دينهم لأنه دين مزخرف...

دين يثير كراهية الآخرين...

دين خالٍ من الجمال...

دين خالٍ من الحب..

خالٍ من الإنسانية...

استفزتني عبارة «دين مزخرف». بعد هذه العبارة لم يعد الصمت إيجابياً بالنسبة لي. قلت لهُ:

ـ اسمع... أنا أعرفك جيداً واعرف السبب الذي يجعلك تكرر زيارتي في هكذا أوقات.. اعلم أيضاً بما تطمح الوصول إليه بهذه الطروحات التي تتفوه بها..

ليست لديه إجابة. يسكت فقط. أُكمل أنا بلهجة أكثر صرامة:

ـ تتكلم عن الدين المزخرف.. تتكلم عن ذلك وكأنك بمعزل عن ذلك الدين.. اسمع أيها المعمم.. ما تقوله مجرد تحايل لفظي.. نعم أنت محتال ولكنك لا تدري بأن احتيالك مفضوح ومكشوف.. أنت تعيش الحالة القصوى من التناقض.. أتدري لماذا..؟

ـ لماذا...؟



ـ لأنك منتمٍ إلى تلك الزخرفة.. تدّعي انك ترفض الدين المزخرف بينما أنت على أرض الواقع تمارس تلك الزخرفة بشكل يومي وبدون انقطاع..

يقطب جبينه ويطرق برأسه إلى الأرض. أستمر أنا:

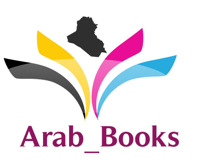
ـ ما أقوله لك مفاجأة غير سارة.. أليس كذلك.. الحقيقة مزعجة ولكن لابد من مواجهتك بها.. أليست الزخرفة التي تتكلم عنها تتمثل بالشكلية والمظهرية التي يتم التركيز عليها من قبل رجال الدين..! المظاهر التي يسعون للحفاظ عليها في سبيل إدامة تميزهم وتعاليهم عن الآخرين.. ألا تماثلهم أنت في تلك المظهرية.. هل طرحت هذا السؤال في يوم من الأيام على نفسك.. وبالمقابل هل تمتلك الجرأة على الإجابة.. لا اعتقد ذلك لأن الواقع سيدحض كل ما ستدفع به...

كلامي هذا سحبهُ إلى منطقة لم يكن يتوقعها. كلماتي وجهت له رسالة صريحة عن السبب الذي جعلني أختاره ليكون صاحب العمامة المسروقة. وجومهُ حفزني لقول المزيد فأضفت:

ـ إن أكبر مظهر من مظاهر الزخرفة هو العمامة وأنت ما زلت متمسكاً بها.. لذلك أنت مدان أكثر من غيرك.. مدان بسبب وعيك المزدوج..

يبدو أن الفكرة قد وصلت. عرفت ذلك من خلال ملامح وجهه التي تغيرت تحت هاجس الوقوع في المأزق. ضعفهُ أمامي جعلني أواصل الهجوم:

ـ أنت خليّة في جسد تلك المنظومة التي تدعي انحرافك عنها.. لو



كنت حقاً خارج سياقاتها لامتلكت الجرأة على التخلّص من زخرفتها.. ولكنك لم تفعل ذلك.. ولن تفعل.. تلك زخرفة مغرية.. زخرفة جاذبة بما تأمّنهُ من امتيازات دنيوية.. وهذا ما يجعل ذاتك الدنيا تسيطر عليك وتجبرك على الاحتفاظ بها...

في تلك اللحظة رأيته يمد يده إلى أعلى رأسه. يتلمس العمامة السوداء الرابضة فوق هامته. فعل ذلك لأكثر من مرة بدافع لم استطع تفسيره. فهمت فيما بعد بأنه يحاول استجماع قواه العقلية للحصول على رد ينقذه من هذه الورطة التي أوقعته بها هذه اللُفافة المتسلطة على دماغه. قام بتحريكها قليلاً. ظننت بأنه سيقوم بخلعها والتخلص منها ولكنه لم يفعل ذلك وإنما اقترب مني بخطوات خجولة وكأنه يريد أن يبوح لي بسر لا يريد أن يسمعه أحد غيري. وقف قبالتي. نظراته فيها لمحة توسل. لاحظت قطرات عرق صغيرة على جبهته. أخرج كلماته بطريقة توحي بأنه يتكلم على مضض. كلمني بصوت خفيض:

ـ أنا رجل دين ولي رؤية أفضل من البقية..

لماذا يكون الدين حكراً عليهم..؟

لماذا تكون العمامة حكراً عليهم...؟

بعد أن قال هذه الكلمات اختفت صورته من أمامي. أدلى باعترافه هذا وغادر ســريعاً. غادرني ليترك اللقاء مبتوراً...

كان ذلك قبل هروبي من المستشفى بليلتين...



IV

استيقظت بصورة مفاجئة على صوت صراخ أفزعني. يبدو إني قد نمت مبكراً. إنها ليلتي الأولى خارج مستشفى المجانين. فتحت عينيّ بصعوبة. في بداية الأمر ظننت بأنني ما زلت بين المجانين وهستريتهم الليلية التي اعتدت عليها وتآلفت معها في أيامي السابقة ولكني اكتشفت أن الأمر مختلف هنا. ما يحدث في هذه الغرفة وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل لا يشبه ما يجري في مستشفى المجانين. إنها هستريا من نوع آخر أواجهها للمرة الأولى بدون إعدادات مسبقة...

لا اعلم كم الساعة الآن. خمّنت إن الوقت قد تجاوز منتصف الليل. يبدو أن طاهر قد حضر للتو من عمله. حسب ما عرفت أن عودته إلى الفندق تكون متأخرة في اغلب الأحيان لكونه يمارس التسول أمام البار الوحيد في هذه المدينة. أما زميله أبو نؤاس فأنه يتسول أمام جامع المدينة الكبير...

سمعتهما يتقاذفان الكلمات بعنف. صوت أبو نؤاس كان الأعلى وهو يصرخ:

ـ يجب عليك أن تمنحني نصف ما حصلت عليه.. العدالة تقتضي أن نتقاسم هذه النقود...



ـ عن أي عدالة تتحدث أيها المجنون.. ما الذي دهاك.. بأي منطق تتكلم....؟

ـ منطق الضمير...

ـ ماذا...؟

ـ نعم منطق الضمير الذي يقضي بأن يكون رزقنا متساوياً..

هذا الحوار العنيف اضطرني إلى ترك فراشي. أبعدت الغطاء عن جسدي وجلست على حافة السرير متأهباً للوقوف. لا ادري بأي طريقة أتدخل. لحظات صمت متوترة كانت نظرات الشزر المتبادلة فيها هي البديل عن الكلام. وجودي لم يكن له أي أثر. كلاهما لم يعر اهتماماً لنظراتي الحائرة. بعد هدنة الصمت ترك أبو نؤاس سريره وتقدّم نحو طاهر وهو يخاطبه بنبرة حادة:

ـ هناك اختلال في الميزان وعلينا أن نعدّله....

لم يأبه طاهر لما قاله أبو نؤاس. كان يتشاغل عنه بعدّ الأوراق النقدية التي بين يديه. اقترب أبو نؤاس منهُ وهو يكرر عبارته المتعلقة بالميزان الذي يجب تعديله. عندما أصبحا وجها لوجه حاول أبو نؤاس أخذ الأوراق النقدية من يد طاهر. بدأ الاشتباك بينهما وكان طاهر يستعمل يدهُ الفارغة للحيلولة دون وصول يد أبي نؤاس إلى يده القابضة على النقود. اشتد الصراع بينهما وأنا أقف متحيراً لا اعرف ما عليّ فعله إزاء ما يحدث أمامي. ما أن هممت بالتوجه إليهما بغية التدخل لفض النزاع حتى انتهى كل شيء سريعاً حيث قام طاهر بدفع أبي نؤاس بقوة فأسقطه أرضاً...



أبو نؤاس ممدد على الأرض. تنتابه نوبة بكاء شديدة. طاهر ما يزال منتصباً في مكانه مُحكماً قبضته على النقود يوجه نظرات باردة إلى أبي نؤاس بدون أي اكتراث أو تأثر. أنا أيضا بقيت واقفاً في مكاني لا ادري ما الذي افعله. أراقب ما يجري بشيء من الذهول والحيرة...

يجلس أبو نؤاس القرفصاء ويستمر بالنحيب. نشيجهُ يوحي بمرارة معتّقة. يصر طاهر على موقفه وهو يوجه كلامه إلينا معاً هذه المرّة:

ـ في هذه المدينة بار واحد فقط وهناك الكثير من الجوامع.. لماذا العدالة غائبة في هذا الموضوع.. لماذا لا توجد مساواة في هذا الأمر..

يسكت للحظات ثم ينقل بصره نحو أبي نؤاس ويضيف:

ـ أنت.. يا من تتكلم عن العدالة.. كُف عن البكاء ورد عليّ إن كانت لديك إجابة مقنعة.. حسناً أنا لا اعترض على ذلك.. كل ما في المدينة من الجوامع لك.. خذها جميعها واترك لي البار...

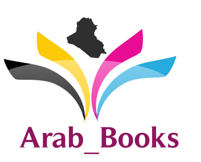
بصعوبة ظاهرة ينهض أبو نؤاس من مكانه. يمسح ما تجمع على لحيته من دموع بيديه المرتجفتين. يوجه نظرته لي بصورة توحي بأنه يطلب مني أن أتدخل في الموضوع. في المقابل كان طاهر ينظر إليّ أيضاً. أنا الصامت بين نظرتين متضادتين. كل ما أملكه هو الحياد لأنني لا امتلك صلاحية البت والفصل في النزاع الوارد في النظرتين. نظرات العيون المتسولة لا تعلم بأنني نبي مؤجل.



V

بعد حادثة الشجار التي وقعت بين طاهر وأبي نؤاس ونهايتها التراجيدية عدت إلى النوم بصعوبة ولكن نومي أصبح متقطعاً. أغفو لمدّة قصيرة ثم يدركني الصحو. لا ادري كم مضى من الليل. الجو بارد جداً والغرفة خالية من الإضاءة. ظلام شديد وبارد يحاصر نفسي المرهقة الخارجة تواً من رحم عالم العقل فيه متهم بالغياب. في هكذا جو من الطبيعي أن تكون النفس بعيدة عن الاستقرار. وكذلك الأفكار تكون مرتبكة أيضاً...

طاهر يُصدر أصوات شخير ليست على وتيرة واحدة تنطلق لفترة ثم تخمد أما أبو نؤاس فكان يتكلم كثيراً أثناء نومه بعبارات يصعب فهمها. هذيانه تقطعه نوبات سعال مكبوت. رحت أتقلّب في فراشي الذي تفوح منه رائحة غريبة. بسبب استعصاء العودة إلى النوم قمت بمراجعة ما مر بي من أحداث هذا اليوم. ابتداءً من هروبي من المستشفى فجراً إلى لحظة استقراري في هذا الفندق. ضحكتُ بداخلي وأنا أستعيد اسم الفندق. الضحكة التي لم يسمعها احد غيري كانت تستهزئ بما نقوم به من خديعة. تلك الخديعة المتعلقة بالمسميات. كنت بحاجة إلى ضحكة ثانية تناسب وهمنا العظيم ونحن نتولى صناعة تلك المسميات. قمت



بتأجيل التفكير بكل ما يتعلق بالضحك ومتعلقاته. في نهاية المطاف نحن لا نخدع سوى أنفسنا سواء ضحكنا أم لم نضحك...

فكّرت بصيغة الوجود الجديدة التي تحددت من خلال الارتباط بطبيعة المكان الذي حللت به. استرجعت ردود أفعال بعض النزلاء الذين صادفتهم عندما خرجت من الغرفة لقضاء حاجتي في مرحاض الفندق الوحيد. نظرات باردة ومحايدة تدلُ على عدم جدوى الاهتمام بتفاصيل النزلاء الجدد. يبدو إنهم قد أدركوا حقيقة ثابتة وهي أن النزيل الجديد لا يضيف شيئاً جديداً للمكان. هو لا يفرق عنهم بأي شيء ظاهري وإنما جاء ليشاركهم في قاسمهم المشترك: البؤس والإهمال...

من بين كل الأشخاص الذين رأيتهم نهار اليوم الفائت كانت صورة عبد الرزاق حاوية هي الأكثر التصاقاً بذهني. هذا ما جعلني الجأ إلى طاهر لقتل الفضول الذي تملّكني تجاه حالته الغريبة...

لم يكتفِ طاهر بالحديث عن عبد الرزاق حاوية فقط وإنما راح يمدّني بمعلومات وتفاصيل أغلب ساكني الفندق. في كلامه كان يختصر التفاصيل ولكنه كان يُعقّب بعد كل قصة يرويها بالقول:

ـ إقامتك في هذا الفندق ستجعلك تطّلع على حكايات خارج المألوف...

إشارته المتعلقة بخارج المألوف أخذت بُعدها المطلق من خلال حكاية عبد الرزاق حاوية. وهو يتحدث كنت أنا أستعيد المشهد الذي التقطته عيناي وأنا أرافق مدير الفندق إلى هذه الغرفة. لم استوعب ما رأته عيناي. أصبت بالذهول حين رأيت باب إحدى غرف الطابق



الأرضي تفتح ليخرج منها إنسان يحبو على أطرافه الأربع. كان منظره مخيفاً ومثيراً للشفقة في نفس الوقت. عندما أخبرت طاهر بذلك أجابني بأن كل ساكني الفندق أصابهم نفس الذهول عند مشاهدتهم له لأول مرة. الجميع مرّوا بنفس الإحساس الذي داهمك وتحدثوا بنفس الطريقة التي تتحدث بها الآن. هو من أقدم نزلاء هذا الفندق. لا أحد يمتلك معلومات عن التاريخ الذي جاء فيه إلى هنا وأين كان يقيم قبل ذلك. كل ما نعرفه عنه أن اسمه عبد الرزاق وانه يعتاش على فضلات الطعام التي يلتقطها من حاويات النفايات المنتشرة في شوارع المدينة لذلك أضيف إلى اسمه لقب «حاوية»...

صورة عبد الرزاق حاوية وكلمات طاهر عنه لازمت تفكيري وأنا أجهد نفسي في سبيل العودة إلى النوم. كم تمنيت أن أحظى بنوم طويل. النوم هو الحل الأمثل للخلاص من عبء الحياة. انه موت مؤقت ولكنه موت مريح. وأنا أفكر بذلك الموت اللذيذ الممتنع عن موافاتي طرق سمعي صوت لم أعه في البداية. فسّرت ذلك بأني أتوهم وإن ذلك الصوت من صنع خيالي المرهق. يبدو أن آثار المكوث في معمل المجانين قد بدأت بالظهور. أضع ذلك تبريراً لما سمعته. لم يستمر ذلك التبرير طويلاً فقد انتفى كلياً بعد مرور أقل من خمس دقائق. هذه المرّة أيقنت بأني لم أكن متوهماً...

«عذاب... عذاب»

نفس الكلمة المتكررة التي وصلت إلى سمعي قبل قليل. نبرة الصوت المُخيفة تطعن هذا الصمت الليلي الذي يعيشه الفندق ومن



فيه. كان صاحب الصوت يمّد الحروف لتأخذ كلمته زمناً أطول وكذلك لتأخذ معناها المؤثر في نفس سامعيها. لا ادري إن كان هنالك أشخاص آخرون يشاركوني في عملية الاستماع في هذا الوقت الحرج من الليل أم أنني الوحيد المعني بهذا الإشعار الذي لا أعلم مصدره. تردداته توحي بأنه يصدر من إحدى غرف الفندق. مع صيحة العذاب التالية شعرت بخوف شديد. فكرت بأن أوقظ طاهر أو أبا نؤاس واسألهما عن هذا الصوت. من المؤكد أن لديهما معلومات كافيه عنه...

أزحت الغطاء عن جسمي ونهضت من فراشي.. تقدمت عدة خطوات ولكني بدلاً من أن أوقظ شريكيّ في الغرفة قمت بارتداء معطفي وخرجت من الغرفة متسللاً إلى خارج الفندق والصوت ما يزال يطاردني وهو يردد:

ـ عذااااااااااب



VI

الظلام يُغلّف كل شيء والشوارع خالية تماماً. الأضواء على وشك التجمّد من شدّة البرد. هنالك قوة خفية قادتني إلى هذا المكان وأجلستني أمام جامع المدينة الكبير...

لا ادري كم الساعة الآن. لا اعلم أيضاً منذ متى أهملت التوقيتات. لم يعد الزمن يعنيني. هو لا يستحق الاهتمام والمتابعة بالنسبة لي. باب الجامع موصدة. الناس يطلقون على الجامع لفظة «بيت الله». وحدي في هذا الليل الموحش أقف قبالة ذلك البيت متسائلاً: لماذا باب بيتك مغلق أيها الرب..؟

لم انتبه إلى إنني قد أطلقت ذلك السؤال بصوت عال. تكلّمت وكأنني أخاطب كائناً يسمع ويرى. مشيت عدّة خطوات مبتعداً عن باب الجامع ثم توقفت. السؤال الذي طرحته وجدته غير مكتمل ولم يأخذ بعده وفق منطق التكاشف. كان استفهاماً ناقصاً. لابد من إلحاقه بتتمة استفهامية. أدرت وجهي نحو الجامع وقلت: لمواجهة هذا البرد القارص لابد من وجود بيت أيها الرب.. فلماذا لا تفتح بيتك لمن لا يجدون مأوى يحميهم من البرد..؟

بيتك مغلق... هل تعلم بذلك..؟ أم إن من وليتهم على ذلك البيت قد أخفوا عنك هذه الحقيقة...؟



تحت شجرة يضربها الهواء فترتجف جلستُ باستكانة. هذه الشجرة التي تقف قبالة الجامع كانت الشاهد القريب على سؤالي الذي وجهته لبيت الله وستكون أيضاً شريكي في عدّة أمور منها: الثبات والتساؤل والارتعاش. كلانا يرتعش وهو يرمي بصنّارة السؤال طمعاً في اصطياد الجواب ولكن لا جواب في هذا الليل الأبكم...

أسند ظهري إلى الشجرة تحت هاجس البحث عن قرين. أبث إرسالياتي المشحونة بعلامات الاستفهام نحو أكثر من متلقٍ. تارة أكلم الله وتارة أخرى أخاطب الظلام. اعلم أن كلامي لا يمت بأي صلة للمنطق. ليس له دلالات. مجرد هرطقات تصدر عن رجل يحاول الإمساك باللحظة. أية لحظة تشكل معنى قابلا للتثبيت...

ما الذي أريده بالضبط. لِمَ أنا جالس في هذا المكان في هذه الساعة. الفكرة التي مرّت برأسي لم تكن مستقرة. كانت فكرة خاطفة. مشكلتي أن دماغي بدأ يفقد طاقته بسرعة. لم يعد قادراً على الاحتفاظ بمواده الأولية من الأفكار والذكريات. في السابق وقبل أن يقوم «ظهر الدين» بإرسالي إلى معقل المجانين لم أكن هكذا...

حو حو حو....

نباح...

لست أنا صاحب هذا الخطاب. انه يعود لكلب مغرور مرّ من أمامي. استغل حالة الفراغ البشري فراح يمارس سلطته على المكان. تعجبني خطواته المتعجرفة المتسيدة للشارع فأظلُ متابعاً لها. غرور متبوع بخطوات كلبة لا تقل غروراً عنه. كانت ترفع ذيلها بخيلاء مُغرٍ. واصلا مسيرهما حتى وصلا باب الجامع. هناك توقفا ومارسا حماقتهما...



من خلال الطيش الذي يمارس أمامي أدركت بأن الإنسان ليس وحده المختص بالحماقات. الكلاب أيضا تكون نزقة في بعض الأحيان. الفارق بين الاثنين إن الكلاب تمتلك الجرأة الكافية لممارسة حماقتها في العلن أما البشر فيمارسونها في الخفاء...

أعجبني المشهد فرحت أتابع مجرياته. شدني بأبعاده العميقة. لماذا لا نكون مثل الكلاب...؟ نمارس الحماقة بصدق وبدون مواربة. أن لا نغلّف تلك الحماقة بالحياء المخادع. يستمر الكلب بالتعبير عن وجوده وأستمر أنا بالتأمل. جسم الكلب يهتز تحت تأثير اللذة وأفكاري تهتز تحت تأثير النفس اللوّامة...

الأضواء المُسلّطة عليهما زائد صفير الريح الهادئ يجعل من الكلب والكلبة كبطلين في فلم إباحي يعرض في ساعة متأخرة من الليل. بطلا الفيلم يؤديان دورهما بإجادة تامة أمام المشاهد الوحيد الذي يتابع البث المباشر بتركيز والذي هو أنا...

في هذه اللحظة المجنونة. الزمن يتعرّى. يخلع ثيابه إكراماَ لبطلي هذا الفلم الذي يختصر واقعية الحياة ولا واقعيتها في نفس الوقت...

بمقابل هذه اللحظة الخارجة على نواميس الحياة أجلس أنا متدثراً بوحدتي وغربتي أتابع هذه الاهتزازات والارتدادات المتبادلة الدالّة على اعتراض صارخ موّجه إلى الشخير البشري. حركة بسيطة تسعى لإثبات مسألة تبادل الأدوار الحيوية وأن جغرافيا الكون مقسمة بإرادة غير مسيطر عليها وإن الحركة الحياتية لا تتوقف عند نمط واحد من المخلوقات...



يستمر الكلب بالاعتراض الراقص متحدياً الطقس وقسوة برودته. يهتز بطريقة استثنائية مُعلناً كونه سيد المكان. باعتباري المشاهد الوحيد لهذا الفيلم فقد تحملت وزر السؤال الجريء الذي يحيط بإدراكي. ما السبب الذي دعا الكلاب لممارسة الجنس أمام باب الجامع. من المخرج الوقح الذي سمح لنفسه بإعطاء إيعاز اكشن بعد أن اختار موقع التصوير الممنوع...

بسبب حركة غير مقصودة صدرت مني انتبه بطلا الفيلم لوجودي مما أدّى إلى إفساد المشهد الذي يؤديانه. رأيتهما وهما ينسحبان اضطرارياً من موقع التصوير بعد القطع المفاجئ لمشهد الحب الذي كانا يؤديانه. انظرُ إليهما وهما يغادران. وقعت تحت تأثير تأنيب الضمير. شعرت بضآلتي أمام وجوديتهما النافرة...

ذات النبي التي احملها ألحّت عليّ بأن أصحح موقفي تجاههما. أن اتخذ موقفا يليق بإنسانيتي التي أصبحت واطئة مقارنة بكلبيتهما العالية. أن أجري خلفهما وأنبح مثلاً. حتى يتمكن نباحي من إيصال اعتذاري وأسفي لهما. أن ارفع من مستوى ذلك النباح قليلاً في سبيل إقناعهم بالعودة. أن أخبرهم بالحقيقة الغائبة عنهم وأقول: لا يوجد مقدّس. هي مجرد بناية مشيدة من الطابوق. أما الله فهو في مكان آخر. انه ليس هنا فلا تتحرجا في ممارسة الحماقة أمام هذا البيت الذي يُنسب إليه...

لا لن أنبح. قد يكون ذلك سلوكاً جارحاً لشعورهما الكلبي. نباحي سُيعد تجاوزاً على خصوصيتهما. قد يشعرهما بأن هناك كائنا طارئا يحاول اقتحام عوالمهما. سأكتفي بالإشارة فقط. الإشارة هي اللغة المناسبة للتعبير عن كوننا لا نشكل خطراً على الآخرين...



طرأ ببالي كل ذلك وأنا ما أزال ملتصقاً بالشجرة المرتجفة التي شاركتني في مشاهدة ما حدث قبل قليل. من المؤكد بأن الكلب والكلبة قد حصلا على مكان آخر أكثر أماناً ليكملا فيه حماقتهما الاعتراضية...

أعود للتساؤل: لماذا أنا هنا..؟

ما الذي يدعوني إلى ترك السبات والشخير البشري..؟

ما ذنب هذه الشجرة التي اجلس تحت أغصانها المرتعشة لأزعجها وأشركها في قلقي المزمن..؟

ما ذنب الكلبين الذين أفسدت خلوتهما..؟

ما ذنب هذا الليل الذي تورط بحضوري الثقيل. لابد انه يتساءل الآن: من أين ظهر هذا الكائن الذي تجاوز على ضوابط السكون الخاصة بي. إلا يعلم بأنني انتظر هذا الوقت الذي أكون فيه خالياً من ضغط الوجود البشري...

الرياح الشتوية الباردة المتوجهة نحو الشتات تأخذ معها تساؤلاتي وتساؤلات الليل لتنثرها في زوايا المدينة المظلمة. تقوم بذلك تفاعلاً مع ما تراه من غربة ذاتية حلّت في هذا المكان المهجور. إنها غربتي. أنا الإنسان الطامح بالنبوة. الغربة الليلية المرابطة أمام بيت الله المسدود...

ألترّقب هو الشعور الأكثر حضوراً. ترّقب مشوب بشيء من القلق. قلقي المتسرب من نظراتي التي تمسح المكان متأملة قدوم العمامة التي ستعيد الأمور إلى نصابها. وأنا أواصل المراقبة والانتظار كأني أسمع صوتاً يأتي من الأعلى. صوت بنبرة الحفيف يخاطبني قائلاً: لا تتردد ولا تقع في فخ التماثل مع الآخرين...



إنها ليلتي الأولى في هذا المكان. الليلة الأولى شاهدة الصراع مع الزمن. ذلك الزمن المتسارع بطريقة لا تتوافق مع طموحاتي. حركته تؤدي إلى تقادم الفرصة. في كافة الأحوال فأن الزمن لن يوقف حركته من أجلي. هو لا يجامل احد. الأيام القليلة الباقية في حسابي لن يطرأ عليها أي إضافة لذلك لابد من مواصلة الترّقب...

أحافظ على معنوياتي بهذه الكلمات وأنا أمارس الانتظار جالساً تحت هذه الشجرة المواجهة لجامع المدينة الكبير ساعياً للتآلف مع مخلوقات الليل الأبكم. القطط والكلاب السائبة هي الوحيدة التي تبقى على قيد الحياة في ليل هذه المدينة الكسولة. تلك المخلوقات الليلية لابد أنها تعيش حالة الصدمة الآن لأنها تشاهد كائناً بشرياً يشاركها هذا النمط المختلف من الحياة. لو كنت أجيد اللغة التي تتحاور بها تلك المخلوقات لشرحت لها كل شيء. لأخبرتها بأنني نبي مع وقف التنفيذ وان نبوتي مرتبطة بتنفيذ شرط قد وضعه الرب. واني هنا في سبيل تنفيذ ذلك الشرط...

لا يطول انتظاري كثيراً. ألمح كتلة سوداء تظهر من إحدى زوايا الشارع. حركتها بطيئة وخلفها تلوح كتلة أخرى تماثلها في السواد. حركتهما تشدني. اقتربتا من باب الجامع. أنا والشجرة نراقب ما يحدث. فاجأني ما رأيته. افركُ عينيّ بكلتا يدي لإزالة الغشاوة التي سببها الهواء الرطب...

امرأتان أمام جامع بابه مغلق في وقت متأخر من هذا الليل الشتائي الطويل. ماذا تفعلان هنا...!



هممت بالتوجه إليهما. لعلهما بحاجة إلى مساعدة. ترددت. قبل أن أحسم أمري رأيت إحداهما تُخرج لفافة من تحت عباءتها وتضعها أمام باب الجامع...

تلفتتا ذات اليمين وذات اليسار ثم رجعتا بنفس الطريق الذي جئن منه ولكن بخطوات سريعة وأكثر حذر هذه المرّة...

عشت لحظة التوقع. عدم إدراكي لما يحدث دفعني إلى ذلك. توقعت أن باب الجامع سيفتح ويخرج أحدهم ليأخذ الأمانة التي تم وضعها أمام الباب من قبل المرأتين المتشحتين بالسواد. بقيت أسيراً لهذا التوّقع لعدّة دقائق. مذهولاً انظر لما يجري بصمت وحياد...

لم أتمكن من الاستمرار بمجاراة ذلك التوقع لمدّة أطول. تركت الشجرة ورائي وتوجهت نحو الجامع...

وصلت إلى الباب ولم يستمر بقائي هناك طويلاً. لحظة خاطفة تصفع الزمن اللامبالي. نظرت إلى الأعلى معاتباً ثم اتخذت القرار. حملت الأمانة المركونة عند عتبة الجامع ومضيت...

صباحاً استيقظ جميع نزلاء فندق السعادة على صوت طفل يبكي.




Arab_Books

أخبـرهم،

الضحية مفهوم مقرف





I

أنا الهش الضعيف المُهمل تمكنت من محادثة الله. حصلت على ذلك دون أن اصعد إلى السماء. سمح لي الرب أن أكون بقربه. أن اكلمه وجها لوجه. تفاصيل ذلك اللقاء بكل ما دار فيه ما زالت مخزونة في ذاكرتي. رغم كل ما تعرضت له من وسائل إضعاف الذاكرة إلا ان تلك التفاصيل لم تفقد صلاحيتها وقاومت سلطات المحو والحذف وما زالت صالحة للاستعمال النبوي...

أستعيدها. أتذكرها. أعيش مع تفاصيلها. أواظب على ذلك بدون انقطاع. منذ تلك الليلة التي حظيت بها بذلك اللقاء ولحد الآن وأنا أقوم بتحديث تلك التفاصيل في سبيل المحافظة على قيمتها كمادة ذهنية محفزة. والآن مع بداية هذا اليوم وفي هذه الفترة بالذات شعرت بأهمية ذلك. الأيام الستة المتبقية تدفعني إلى ذلك بقوة. ضغط الزمن يفعل فعله إزاء روحي التي ما زالت متدرعة بالطموح. طموحي واندفاعي لتنفيذ المهمة لا يعني إهمالي لضرورة الالتفات للحسابات الأخرى. قد لا أكون ذلك النبي المثالي. ربما سأشكّل صدمة للوعي التقليدي. من المؤكد بأنني لا أطابق الصورة الافتراضية التي يحملها الناس في أذهانهم عن الأنبياء. وجودي سيشكل حالة هدم. إنهاء مرحلة والشروع



بمرحلة أخرى. هنا تكمن الصعوبة. أن تكون نموذجا مخالفا للسياقات المعتادة. ولكن لابد من المغامرة. أنا نتاج زمن مختلف. يمكنني أن أصفه بالزمن الأحمق. هذا ما جعلني أتجرأ وأطلب من الرب أن يتحمل نزقي. طلبت منه أن يمنحني حرية اختيار السلوك النبوي وان يتركني أحدد رسالتي بدون ضوابط نازلة من الأعلى. الشيء المهم الذي أردت أن يوافق عليه هو أن تكون نبوتي خالية من المعجزات. لدينا ما يكفي من الفانتازيا. كل شيء في حياتنا يتسم بالعجائبية. كل شيء ابتداءً بالولادة وانتهاءً بالممات. قلت ذلك وكلّي يقين بأن الله لا يعترض على قراراتنا ما دامت في السياق الموافق لإرادته. أعجبتني ابتسامته وهو يستمع إلى لائحة طلباتي:

- لا أريد أن أرمى في النار فلا أحترق.
- لا أريد أن أخرج من بطن الحوت.
- لا أريد أن أشق البحر بعصاي.
- لا أريد أن أحيي الموتى.
- لا أريد أن أضع السكين على رقبة ابني.
- لا أريد أن تنزل لي مائدة من السماء.
- لا أريد أن أكون خبيرا في تفسير الأحلام الملكية.
- لا أريد أن أطير إلى السماء لأصل إلى عرشك.

أنا اكرر كلمة (لا أريد) وهو يكرر الابتسامة. لم تزعجه طول قائمة طلباتي. تركني أتكلم دون أن يقاطعني. حتى طلباتي النزقة استمع إليها بهدوء وبدون تذمر. كان آخرها قولي له:



ـ يا إلهي نبيك القادم ليس بحاجة إلى جبرائيل...

لقائي به خُتم بذلك الطلب. بعدها عشت مرحلة التطلع إلى الما بعد. حالة التقبّل الربّاني خلّصتني من المراسيم الكلاسيكية التي تقيد بها من سبقني. رحت أبوح بكثير مما في داخلي بدون تحرّج أو خشية. الصدق بالتعامل مع المُرسِل شرط أساسي لنجاح الُمرسَل...

لقد انتهى زمن الوحي. لم نعد بحاجة إليه. علينا أن نستفيد من التجارب السابقة. الوحي الأرضي يفي بالغرض. أنا النبي المُعّبأ بكل الحماقات الأرضية سأستوحي تعاليمي من معاناة ومآسي وآلام البشر...

رسالتي ستكون منقولة من الشارع. أنا سليل الشوارع المقفرة والطرق المعبدة بالحرمان. سأخرج للعالم برسالة المُهملين. سأتكلم نيابة عن الإنسان الأدنى. أعلم بأن الكثير لن يتقبلني ولن يتقبل هكذا طروحات. اعلم أيضا بأن الإنسان الأعلى سيتهمني بالجنون. كل هذه الاحتمالات لن تثبط من عزيمتي. سأرميها خلف ظهري. يكفيني أن يكون الله معي.



II

سارع كل من طاهر وأبو نؤاس بجلب المستلزمات الخاصة بالطفل. أدهشني اندفاعهما الغريب للتعاطف معه بعدما كلمتهما عن قصته والكيفية التي تم رميه بها أمام الجامع...

قال طاهر بأنه سيتكفل بإحضار الحليب وكل ما يتعلق بطعام الطفل أما أبو نؤاس فقد أعلن استعداده للتكفل ببقية احتياجاته. أخبراني أيضاً بأن هنالك امرأة تسكن في هذا الفندق ويمكن الاستعانة بها عند الحاجة...

الطفل ينام بهدوء في الفراش الذي قمنا بإعداده له. منظره البريء جعلنا نحوم حوله. وحدّنا شعور غريب تجاهه. ما أن يبتعد أحدنا عنه حتى يسارع الآخر بالتقرب منه. هناك سر غير معلن يدفعنا للاقتراب من عوالمه. تعمدت أن لا أبقى بقربه لوقت طويل لكي أتيح لطاهر وأبي نؤاس إشباع حاجتهما تجاهه. لفت انتباهي انتفاء أي اثر للشجار الذي حدث في الليلة الماضية بينهما. إنهما يتصرفان وكأن شيئا لم يكن. أراهما يتحركان بنشاط غير مألوف وكأن وجود الطفل في هذه الغرفة قد احدث انعطافة في حياتهما...

الهدوء الذي يسود الفندق لفت انتباهي. أغلب نزلائه يكونون في



الخارج في هذا الوقت. لاحظت ذلك عند نزولي إلى الطابق الأرضي. انتقالي إلى الطابق الأرضي يكون بمثابة استطلاع سريع لهذا العالم السفلي الذي يسكنه بعض أبناء البشرية المنتمين إلى طبقة «الإنسان الأدنى». أكثر ما أثار انتباهي أن هناك غرفة في الطابق الأرضي يتردد عليها بعض الرجال. تلك الغرفة قريبة جداً من المكتب الصغير الذي اتخذه مدير الفندق موقعاً له. رأيت أغلب الرجال يمرّون به قبل دخولهم إلى تلك الغرفة...

نزلت أكثر من مرّة إلى الطابق الأرضي لغرض قضاء بعض احتياجات الطفل. عندما رآني مدير الفندق سألني:

ـ ماذا ستسمونه..؟

ـ من هو...؟

ـ الطفل....

ـ لا ادري... لحد هذه اللحظة لم نختر له اسماً...

ـ إن أردت نصيحتي..الاسم الملائم له هو «غريب»..

وأنا أقطع المسافة نحو غرفتي فكرت بذلك الاقتراح المتعلق بالاسم. غريب. فكرة الاسم التي عرضت عليّ كانت تتزاحم مع عدّة أفكار جميعها تدور حول الغرفة التي يتزاحم عليها الرجال...

أخبرت طاهر وأبا نؤاس بالاسم الذي اقترحه مدير الفندق. قال طاهر:

ـ ما قيمة الاسم بمواجهة هذه الأقدار الملتوية.. الأسماء نوع مقنن من الكذب.. سواء أسميناه غريبا أو لم نسّمهِ ما الذي سيتغير من واقعه...



أجابه أبو نؤاس:

ـ ولكن لابد من الاسم.. لا يمكن للمرء أن يعيش بدون اسم.. لابد لكل إنسان من اسم يميزه عن غيره...

نقاشهما جعلني أتأمل الموضوع من زاوية أخرى. هل يحق لنا أن نفرض عليه اسماً من اختيارنا. كيف لنا ذلك ومن الذي أعطانا هذه الصلاحية. الصدفة التي جعلته في حضانتنا هل هي كافية لمنحنا الحق باختيار أحد الأسماء وإلصاقه به. هل صحيح إن الأسماء نوع مقنن من الكذب كما يقول طاهر. أردت أن أناقش طاهر حول هذه الفكرة ولكني حين التفت إليه وجدته يحدّق بي. أدرت وجهي نحو أبي نؤاس فوجدته يرمقني بنفس النظرة. في هذه اللحظة اقترب مني كلاهما وقالا بصوت واحد:

ـ لحد هذه اللحظة لم تخبرنا باسمك...؟

فاجأني سؤالهما. غرقت في صمت مُحرِج ولم أتمكن من مصارحتهما بأن اسمي من ضمن الملفات التي فقدتها في معقل الجنون. لم أتمكن من الاستمرار بالصمت. نظراتهما تطالبني بالإجابة. تراجعت خطوتين إلى الوراء. أدرت وجهي نحو الطفل وقلت:

غريب



III

كما قص لي حكاية عبد الرزاق حاوية جلس طاهر أمامي ليقص لي وبنفس الأسلوب حكاية دكتور عذاب. بمجرد سؤالي له عن ذلك الصوت الذي أفزعني في الليلة الماضية بادرني بالقول:

ـ انه دكتور عذاب.. ألم اقل لك بأنك ستطّلع على قصص غريبة في هذا الفندق...

كنت قد حدّثته عن حالة الخوف التي انتابتني عند سماعي لندائه المرعب الذي أقض مضجعي. بكل استرخاء اخبرني بأن هذا الصوت يعتبر من أهم الطقوس الليلية التي يجب عليّ الاعتياد عليها والتآلف معها لكونها ستتكرر كل ليلة. ـ.

اطمئن ستعتاد على هذا المُنبه المنذر بالعذاب...

هكذا قال لي. بعدها راح يسرد تفاصيل تتعلق بالاسم الذي نسبهُ لصاحب الصوت الذي أبقاني في حيرة من أمري. الحيرة الظاهرة على ملامحي هي، ما دفع طاهر إلى الدخول في التفاصيل مباشرة وبدون مقدمات. قال بأن ذلك النداء يصدر عن شخص محبوس في إحدى غرف الطابق الأرضي وان ذلك الشخص لا يطلق إنذاره إلا بحلول الساعات الأخيرة من الليل. جميع من في الفندق يطلق عليه لقب «دكتور عذاب»...



فجأة يقطع طاهر سرده للحكاية ليقول:

ـ هل تريد أن ترى ذلك الشخص..؟

لم أجب بنعم أو لا فأضاف طاهر:

ـ رؤيتك له ستسهل علي مهمة سرد الحكاية.. أقترح أن تأتي معي لمشاهدة دكتور عذاب.. لا تخف.. نلقي نظرة عليه ثم نعود لأكمل لك القصة...

في طريقنا إلى الطابق الأرضي ورغم قصر المسافة الفاصلة بين غرفتنا والغرفة المقصودة مرّت بخاطري أكثر من صورة للشخص المتجهين لرؤيته. صور عدّة جميعها تسعى للتماثل مع معنى العذاب الذي يجود به ذلك الشخص على سكنة هذا الفندق في الهزيع الأخير من الليل. كل تلك الصور تبددت حال فتح الباب وظهور الصورة الحقيقية لذلك الشخص أمام عيني....

ابتعد طاهر عن الباب بعد أن قام بفتحه فاسحاً لي الطريق لأطل على ما في الداخل. خارت قواي في اللحظة التي وقع فيها بصري على الشخص الموجود في الغرفة. تفاجأ طاهر من سرعة ابتعادي عن الباب. بعد أن شاهدني أبتعد سارع بغلق الباب واللحاق بي. خطوات الهارب، جعلتني أختصر السُلّم بعدّة خطوات. هالني منظر السلسلة الحديدية المربوطة برجل ذلك الشخص والمربوط طرفها الآخر بإحدى أرجل السرير الحديدي المركون في زاوية الغرفة. صوتها الناتج عن حركة الرجل المُقيَدة عندما التفت لي بعد أن انتبه لفتح الباب ما زال يرّن في أذني وأنا استمع لبقية التفاصيل التي استأنف طاهر عرضها عليّ...



مع كل كلمة أسمعها من طاهر أتيقن من صواب فكرته بخصوص ضرورة النظرة التي ألقيتها على ذلك الشخص الغريب المُكبّل الذي يُدعى دكتور عذاب. لو كان طاهر قد أكمل حكايته بدون تلك المعاينة لما بدت القصة واقعية في نظري ولكنت اعتقدت بأنها ضرب من الخيال. المشهد السريع الذي التقطته عيناي قبل قليل أضاف إلى ما يصلني من سرد نكهة واقعية صادمة...

يستمر طاهر بسرد تفاصيله التي كانت تصل إلى ذهني المزحوم بصورة دكتور عذاب وقدمه المكبلة. كنت أرّكب ما يصلني من وقائع الحكاية مع تلك الصورة. قال طاهر بأن أغلب نزلاء الفندق يخافون من ولوج غرفة دكتور عذاب. بالأحرى هم يخافون المادة الخبريّة التي يبثها كل ليلة. تنبؤاته الخطيرة والتي تتعلق جميعها بالعذاب ومشتقاته جعلت الدخول إلى غرفته أمراً محذوراً. ما زال أمرهُ لغزاً محيراً لدى الجميع. لم يتمكن أحد من الوصول إلى قصته الحقيقية. حتى الشخص الذي جاء به إلى هنا لم يقدم أي معلومات عنه. بالمقابل لم يتجرأ أحد من نزلاء الفندق على المبادرة بطلب تلك المعلومات من ذلك الشخص على الرغم من كونه يزوره يومياً ويجلب له مستلزماته الحياتية من مأكل ومشرب ويصطحبه لقضاء حاجته ثم يوصي مدير الفندق به ويغادر....

قال البعض بأنه أخوه وقال البعض الآخر إنه صديقه. تعددت الروايات وتعددت معها القصص الساعية إلى كشف ماضي ذلك الرجل المحبوس في غرفته. أشهر تلك التصص القصة التي التصق من خلالها لقب دكتور به ولكون اسمه بقي مجهولاً لذا أُطلق عليه لقب عذاب ليكون الاسم: دكتور عذاب....



تقول القصة إن هذا الرجل كان أستاذاً جامعياً حاصلا على شهادة الدكتوراه في تخصص علمي نادر وان عدم موالاته للسلطة قد تسبب في اختفائه بصورة مفاجئة. غاب عن الجامعة دون أن يعلم احد بدواعي ذلك الغياب وأين اختفى طيلة مدة انقطاعه. ما دار حوله من أحاديث في تلك الفترة كان مجرد تكهنات تصدر من طلابه وزملائه من الأساتذة الذين كان اغلبهم يتجنبون الخوض في أي حديث يُذكر فيه اسم زميلهم الغائب. ارتبط اسمه بشعور مخيف كان سبباً كافياً للهروب من التطرق لموضوعه. بعض أصدقائه المقربين من أساتذة الجامعة وفي الأيام الأولى لاختفائه قاموا بالذهاب إلى بيته والاستفسار من عائلته عن أخباره ولكنهم عندما لم يجدوا أيّة إجابة شافية تحل لغز اختفائه اكتفوا بالصمت والتظاهر بعدم الاهتمام. الحياد هو الأسلوب الأمثل للتعامل مع هكذا وقائع. الجميع مؤمن بهذا. انه الحل الأنسب لتلافي إشكاليات الخوض في الأمور التي تزعج السلطة...

استمر الصمت لمدّة تزيد على السنة. هكذا تقول الحكاية. ولكن ذلك الصمت أصبح أكثر إطباقاً بعد انتهاء مرحلة الاختفاء وظهور الأستاذ الجامعي بصورة مفاجئة أيضاً تماثل الطريقة التي اختفى فيها. ظهر بهيأة جديدة هذه المرّة. هيأة لا تمت لمرحلة ما قبل الاختفاء بأية صلة. في صباح يوم صيفي قائظ وجد نفسه مرميا على رصيف مهمل من شوارع مدينته. توقفت سيارة مظللة النوافذ لمدّة لا تزيد على الدقيقة ثم تحركت بسرعة تاركة وراءها شخصا ملقيا على الأرض شكله يوحي بأنه قادم من أعمق نقطة في تاريخ القسوة والتوحش. بقي ممدداً على الرصيف طيلة ذلك النهار تحت أشعة الشمس الحارقة لا أحد يتجرأ



بالاقتراب منه ولا هو يمتلك القدرة على التحرك. بعض المارة يتوقف عنده قليلاً والبعض الآخر يتحاشى النظر إليه. الناس هنا لديهم معلومات كافية عن هكذا حوادث تجعلهم يتجنبون الاقتراب من أصحابها. هناك اتفاق جمعي سيّدهُ الخوف يُلزم المواطنين بتوخي الحذر في كل موضوع تكون السلطة طرفاً فيه...

يتوقف طاهر عن الحديث كأنه يتذكر ما تبقى من الحكاية. اسأله أنا:

ـ وماذا حصل بعد ذلك...؟

ـ لا شيء.. يقال انه قضى يومه ساكنا يضع وجهه على الأرض ولم يصدر عنه أي شيء إلى أن حل الظلام وخلت المدينة من الناس عندها رفع وجهه إلى السماء وأطلق صرخته الأولى:

عذاااااااب



IV

بعد نصف ساعة تقريباً عاد طاهر من السوق. انتبهت أن طاهرا في كل مرّة يجلب لنا الطعام يُحضر معه كيسا آخر بالإضافة إلى الكيس الخاص بنا. وكما يفعل في المرات السابقة وضع الكيس الخاص بطعامنا ثم حمل بيده الكيس الآخر وخرج من الغرفة. انشغلت بالتفكير بذلك الكيس في فترة غيابه التي لم تستمر طويلاً. حال عودته باشر بإعداد مائدة الطعام على المنضدة الصغيرة المركونة في زاوية الغرفة...

أنا وطاهر نجلس قبالة البعض. أبو نؤاس مازال في الخارج. الطفل ثالثنا. ينام بهدوء في فراشه البسيط الذي أعددناه له. ناولني طاهر رغيف خبز باردا وقال لي تفضل. هممت بأن أسأله عما أثار استغرابي ولكني ترددت. بدأ هو بتناول الطعام بينما أنا ساكن بشكل ملفت. عندما انتبه لصمتي وعدم تفاعلي قال:

ـ لماذا لا تأكل.. هل الأكل لا يعجبك..؟

ابتسمت وأجبته:

ـ بالعكس.. أنا أشكرك لأنك تأتينا بالطعام ولكن هنالك شيئا أثار فضولي وأريد أن أسألك عنه...

ـ وما هو ذلك الشيء..؟



ـ ذلك الكيس الإضافي الذي تجلبه معك من السوق..

ـ لابد انك تريد معرفة إلى أين آخذه والى من أعطيه.. لا بأس.. الأمر يستحق الاهتمام.. وان كنت متكتماً عليه بعض الشيء و لكني سأحدثك عنه.. الكيس الإضافي خاص بطعام «أبي الحارث»..

يستمر صمتي فيضيف طاهر:

ـ من المؤكد بأنك تتساءل من هو أبو الحارث و هذا الأمر يستحق الاهتمام أيضاً هذه المرّة لن أعطيك معلومات تفصيلية عن شخصيته.. سأؤجل ذلك إلى وقت آخر..

ـ وما الداعي لذلك..؟

ـ عرض الموضوع يتطلب أن تكون هناك تهيئة نفسية مسبقة تمهد لاستقبال التفاصيل.. إنها تفاصيل حساسة ولا يمكن تقبلها بسهولة...

ـ كلماتك تزيد من فضولي...

يضع طاهر قطعة خبز صغيرة في فمه. ينتظر لحظات لحين بلع ما في فمه ثم يستأنف الكلام:

ـ أتذكر ما قلته لك سابقاً.. في هذا الفندق ستجد عالماً خارج المألوف.. هذا العالم الغريب ستعيشه على أرض الواقع.. موضوع «أبي الحارث» سيكون الأكثر غرائبية.. نحن في العالم السفلي وفي هكذا مواقع كل شيء وارد...

يستمر بالأكل بينما أنا ما أزال ممسكاً بالرغيف دون أن أتناول شيئاً منه...



ـ كُل الآن وبعد ذلك سأوضح لك الخطوة الأولى التي من خلالها ستتعرف على «أبي الحارث»...

تلّهفي لمعرفة الحكاية جعلني أمضغ لقيمات صغيرة بسرعة انتبه طاهر لها فقابل ذلك بضحكة ارتسمت على وجهه الأسمر الذي تغطيه لحية طغى عليها اللون الأبيض. شرب كأساً من الماء ثم مسح فمه بيده اليمنى وقال:

ـ يبدو انك متعجّل لمعرفة الخطوة الأولى.. لا بأس.. هل لفت انتباهك شيء عند مرورك بالقرب من الغرف المجاورة لغرفتنا..؟

ـ لا.. لم يلفت انتباهي أي شيء..

ـ اخرج الآن والق نظرة على أبواب الغرف المجاورة لغرفتنا.. عندما ترجع قل لي ماذا وجدت..

اترك الغرفة مسرعاً. ما إن خرجت إلى الممر حتى بدأت عيناي تمسحان الأبواب بنظرات شبقة. انتقلُ من باب إلى باب وأنا أفكر بذلك الشيء الذي لم يلفت انتباهي في السابق. مجرد أبواب خشبية قديمة لا تحمل أي معنى مغلقة على عوالم البؤس والإهمال. ثلاثة أبواب مررت بها ولم أجد فيها ما يثير الانتباه. على الباب الرابع لاحظت وجود لافتة صغيرة مُعلّقة في أعلاه مكتوب فيها (يمنع الدخول بتاتاً) وفي أسفل العبارة قرأت اسماً غريباً لم اسمع به من قبل: «دهّار». أكملت الممر إلى نهايته وأنا أتفحص الأبواب. لم أجد أي شيء آخر يستحق الملاحظة...

رجعت إلى الغرفة وأخبرت طاهر بأن ما لفت انتباهي هو اللافتة الصغيرة المُعلّقة على الغرفة الرابعة. قال لي:



ـ إنها الغرفة المقصودة...

كان قريباً من الطفل عندما قال ذلك. فهم نظرتي الطامعة بالمزيد من التوضيح. لم يضف شيئاً آخر سوى:

ـ عليك بالمتابعة...



V

ـ انه ابنكم... ابنكم أيها الأوغاد.. فكيف تطالبون بالتخلص منه....!

بهذه الصرخة قابلت تذمّر بعض نزلاء الفندق الذين تجمعوا أمام باب غرفتنا معترضين على بكاء الطفل الذي أزعجهم وحرمهم من النوم في هذا الوقت المتأخر من الليل...

أسمع همهمات أولئك النزلاء من خلف الباب بعد أن أغلقته بوجوههم. أعود إلى الطفل وفي نفسي شيء من الغضب. أضعه في حجري محاولاً إسكاته. تمر لحظات تنتهي بعدها أصوات اللغط القادمة من الخارج. من خلال ذلك أعرف إن المعترضين قد عادوا إلى غرفهم...

رغم حنقي على أولئك المعترضين إلا إني بعد ذهابهم شعرتُ بالندم بسبب الأسلوب الذي خاطبتهم به. كنت قاسياً وأنا أصفهم بالأوغاد. كان عليّ أن أكون أكثر لطفاً. ذات النبي التي في داخلي وبّختني لما بدر مني. إنها تحاول قدر الإمكان أن تضبط سلوكي في هذه الفترة الحرجة من الأيام القليلة المتبقية لي من الحياة...

أدقق النظر في ملامح الطفل الذي في حجري. أتأمل تعابير وجهه المتألمة. هذا هو يومه الأول في عالمه الجديد بعد أن انتقل من كنف أمه



إلى كنفنا نحن المهملين. أرى في تلك الملامح مشروع حوار طويل. قدراته التعبيرية تنحصر بالملامح فقط. يتوجب عليّ أن أتفاعل مع تلك الملامح بطريقة تناسب توجهي النبوي. أهدهده وأناغيه لعلّه يكف عن البكاء ولكن بكاءه لا ينقطع. عيناه تقولان لي أشياءً كثيرة. نظراته المعبرة دعتني إلى التحاور معها فقلت:

ـ اسكت يا صغيري.. توقف عن البكاء أرجوك.. هذه الحياة لا تستحق البكاء... هي أحقر من أن نذرف دمعة من اجلها.. أنا اعلم بأنك تعترض.. أنت تتعمد الصراخ لتعبر عن اعتراضك... ولكن لا عليك يا بني.. دعنا نعترض بطريقة أكثر بساطة.. طريقة تناسب حقارة الحياة.. أن نبول على الأقدار.. نرش عليها حماقاتنا السائلة ونضحك نكاية بها.. نعم هكذا علينا أن نتعامل مع الحياة.. قاوم ما يأتيك من هذه الحياة المزيفة.. لا تهتم للتفاصيل الصغيرة ولا تعرها شيئاً من اهتمامك.. هؤلاء الذين وقفوا خلف الباب معترضين على بكائك جميعهم أغبياء... نعم أغبياء لأنهم لم يفهموا حقيقتك.. أغبياء وأنانيون في نفس الوقت.. ولكن لا تهتم يا صغيري.. تلك الحقيقة ستصل إلى مداركهم في يوم من الأيام.. لابد من ذلك.. ستطوف عليهم لتخبرهم بأنك ابنهم جميعاً.

أنا أتكلم والطفل يبكي يبدو انه لم يقتنع بما قلته له. أبو نؤاس متمدد في فراشه ينظر إلينا أما طاهر فما زال في الخارج ولم يعد إلى الفندق لحد هذه الساعة. احمل الطفل بين ذراعي وانهض من مكاني. احتمل أن تغيير المكان ربما يؤدي إلى إسكاته. اقطع الغرفة جيئة وذهاباً دون جدوى فصراخ الطفل راح يتعالى. خاطبته قائلا:

ـ اسمع يا بني.. أنا افهم ما تريد التعبير عنه.. يحق لك أن تصرخ



بوجه هذا العالم الغبي ولا يحق لأحد أن يمنعك من ذلك ولكن اعلم إن الاعتراض الصوتي لا يكفي.. عليك أن تستعد للمستقبل.. أن تهئ نفسك للاعتراض الأكبر.. ما زال أمامك الكثير.. هناك ما ينتظرك.. سأخبرك بشيء يتعلق بالمستقبل... مستقبلك ومستقبل البشرية ومستقبلي أنا أيضاً...

أنظر إلى أبي نؤاس فأراه ساهياً ومنظره يوحي بأنه في عالم آخر بعيد عن عالمنا. عيونه مفتوحة باتجاهنا ولكنه ساكن لا يصدر منه أي شيء يدل على تفاعله معنا. يهدأ الطفل قليلاً فاستغل هدوءه بعرض ما أريده منه:

ـ ما رأيك أن تكون نبياً.. أيام قليلة سأقضيها معك وبعدها سوف نفترق.. لذلك أريدك أن تُكمل المهمة من بعدي.. ستكون «النبي اللقيط».. ما أريده منك هو أن تتمسك بهذه الصفة وان لا تتخلى عنها.. هذه هي النقطة المهمة في الموضوع.. صفة اللقيط ستجعل منك نبياً استثنائياً.. بهذه الصفة ستحمل الحقيقة المُرّة إلى العالم.. هذه الصفة ستجعلك الأول في سجل الصارخين بالحقيقة.. اعلم يا صغيري بأن الرب لن يجد أفضل منك لإخبار البشرية بخطاياها..

يعود الطفل للصراخ اشعر بأنه يرد على ما طلبته منه ولكني لا أفهم طبيعة الرد. يفاجئني صوت أبي نؤاس. التفت إليه فأجده ما يزال ساكنا في فراشه. قال:

ـ ربما يكون جائعاً..؟

ما قاله أبو نؤاس نقلته إلى الطفل بصيغة السؤال:



ـ هل أنت جائع أيها النبي الصغير.. سوف احضّر لك الحليب.. من المؤكد بأنه لا يشبه حليب أمك ولكن اطمئن يا نبي المستقبل انه أفضل بكثير.. على الأقل هذا الحليب سيخلصك من قضية الارتباط.. سيحررك من صلة الأم الواحدة.. انه يحوّل ذلك الارتباط إلى البشرية جمعاء.. في المستقبل وأنت تنشر رسالتك أخبر البشرية بأنك قد رضعت حليباً اصطناعياً قد تم جلبه من قبل متسّول.. أخبرهم أيضاً بأن ذلك المتسّول كان يمارس الشحاذة أمام احد البارات...

أقول ذلك للطفل اللقيط وأنا أرضعهُ من الحليب الاصطناعي الذي أحضره طاهر. انه حليب طاهر. حليب يتدفق من حلمة مطاطية تحرج حلمات أثداء الأمهات اللواتي جفت منابع الرحمة في صدورهن. الرضاعة من حلمة العدم والإهمال والتشرد هي البديل عن الرضاعة الزائفة. في كافة الأحوال فأن الرضاعة لابد أن تقترن بالبكاء. سواء كان الطفل في حضن أمه أم في حضن المُهملين. يستمر التساؤل بالدوران في ذهني. ما الذي يجعل الأطفال يبكون عند مقدمهم إلى الحياة.. لماذا يصرخون بهذه الطريقة.. هل جميع الأطفال في بداية حياتهم يقومون بذلك أم اللقطاء فقط...



VI

ليل المدينة البارد يتناسخ. يتوالد ويتكاثر ويتمدد. ظلامه يحمل نفس جينات ما سبقه. اخترق ذلك الظلام الأليف بروح مشوشة. وحدي أقطع طرقات هذه المدينة وأنا أفكر في الله والشرط الذي بدأ الوقت يداهمه.

أستقر في نفس المكان. أمام بيت الله. كل شيء يعود لله. كل شيء مقرون به. كل شيء مسجل باسمه. لست وحدك أيها البيت من يحمل هذه الميزة. أقف بمواجهتك وأخاطبك بدون أي إحراج. لا يوجد محذور من ذلك. نحن خارج نطاق القداسات. لماذا التحرّج إذن..؟

اسمع أيها البيت. لا فضل لك على غيرك. الكل ينتسب إلى الله. أنت بيت الله وأنا إنسان الله. حتى الكلب الذي أشهر حماقته أمامك في الليلة الماضية هو حيوان الله.

لا يحق لك أن تحتكر الرب أيها البيت. اللهجة التي أخاطبك بها قد تكون صادمة. ولكنها الحقيقة الغائبة عنك. تلك التي لم يجرؤ أحد في يوم من الأيام أن يواجهك بها. هناك أشياء يجب أن نصرّح بها أيها البيت. إخفاؤها والتستر عليها ليس في مصلحتنا. لذلك دعني أقل لك بأنك أناني أيها البيت...

أنانيتك جعلتك تعيش حالة الوهم العظيم. جعلتك تذهب بعيداً



منساقاً خلف شهوة الاحتكار. الوهم الذي انتابك جعلك تعتقد بأن الوصول إلى الله لا يتم إلا عن طريقك وان بابك هو الباب الوحيد المؤدي إلى الله..

أنا اعلم بأن هذه الكلمات تسبب لك إزعاجاً مزمناً. وانك الآن تلعن القدر الأحمق الذي سبب لك هذا الإزعاج الليلي.. يحق لك الامتعاض أيها البيت. يحق لك أن لا تتقبل ما أطرحه عليك.. أنا أعذرك لأنك تواجه هذه المكاشفة للمرة الأولى.. لم يسبق لأحد أن وقف أمامك في مثل هذا الوقت ليسرق الوسن من عينيك ويطلب منك الإنصات لآرائه المزعجة...

بغض النظر عن ردّة فعلك ولكني سأستمر بإزعاجك.. كلمة أخيرة سأقولها ثم أبتعد عنك.. اسمع أيها البيت لا يحق لك أن تقوم بفرض الإقامة الجبرية على الله..

بعد هذا الحوار السريع المتوتر والذي كان من طرف واحد توجهت إلى صديقتي الشجرة حيث مكاني الذي جلست عنده في الليلة الماضية. إنها شجرة الله أيضاً. يجب أن يشملها ذلك التوصيف...

تملكتني رغبة قوية بأن أعاود الحديث مع البيت. أن أقول له بأن هذه الشجرة التي تقف أمامك تحمل نفس التوصيف. هي أيضا تنتمي إلى الله. ولكنها أكثر إيجابية منك. هي لا تحمل أنانيتك أيها البيت لأنها ليس لها بابا لتغلقه بوجه الناس...

تحت شجرة الله أمارس الانتظار. لابد أن يكون هناك معادل ايجابي لهذا السلوك. الوجود قائم على تأمل ما سيأتي. لابد أن يكون هنالك



شيء قادم. هذا ما يدعو إلى ضرورة المواصلة وما يدعو إلى القلق في نفس الوقت. مصدر القلق متعلق بقضية ما ليس متوقعاً. مثلاً أن يكون هناك أخ آخر لصاحب العمامة. الاحتمال وارد جداً. كل جسم يضم العديد من الأعضاء. إن كنت في المرّة السابقة قد سرقت عمامة «ظهر الدين» ربما يأخذني الخطأ هذه المرة باتجاه «بطن الدين» أو «رأس الدين» أو «قضيب الدين» أو أي عضو آخر...

على مقربة من القلق سأواصل انتظاري. يمر بعض الوقت أنشغل فيه بهواجس ترّقب ما سيأتي. أكتشف بعد ذلك بأنني لست الوحيد الذي يمارس الترّقب تحت جنح هذا الظلام الكثيف. وأنا جالس تحت عطف شجرة الله وجدت شريكاً لي في الانتظار...

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا...؟

لماذا تجلس أمام بيت الله..؟

هكذا بدأت حواري معه. لم انتظر منه إجابة على سؤالي. هناك نمط من الأسئلة لا تسعى إلى الاقتران بالإجابات. كل ما تطمح له هو كسر حالة السكون فقط. قلت له:

ـ نحن في زمن الإجابات المبتورة.. في الأدبيات الحربية يطلقون عليها توصيف [المُعاقة].. نحن متواجدون في زمن مختلف.. زمن الخطاب الأعرج.. ذلك الخطاب المموه يجب أن لا يفقدنا الثقة بالحوار..

افتتحت حديثي معه بهذه الطريقة في سبيل كسر الحاجز النفسي



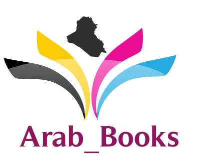
الناتج عن رهبة لقاء المصادفة. شجرة الله تحنو علينا نحن الاثنين في محاولة منها للتقريب بين ذواتنا القادمة من قاع الوجود بعد أن انتبهت إلى انه يجلس بنفس الطريقة التي أجلس بها أنا. في الليلة الماضية لم يكن موجوداً في هذا المكان. ربما كان موجوداً. قد تكون الحماقات الكلبية شغلتني عن الالتفات إليه...

طريقة جلوسنا تعطي انطباعاً راسخاً بأننا كائنات منبوذة خاضعة لسطوة البرد القاسي. يدور بيننا كلام غير مسموع. نتبادله دون أن يلتفت أحدنا إلى الآخر لكون عيوننا مصوّبة باتجاه مستقيم نحو باب بيت الله. كلانا يريد أن يفتح ذلك الباب بنظراته المُرهقة. ظاهراً كنا نمارس الحوار فيما بيننا ولكن في حقيقة الأمر إن كل ما يصدر عنا كان موجها إلى البيت المُغلق الماثل أمامنا...

أهَمُ بأن أمد يدي لأمسح التراب العالق به. تراب الحروب المتراكم على أجسادنا وعلى أرواحنا وعلى ذكرياتنا رأيته متمثلاً أمامي. من المحتمل أن يكون هو قد فكر بمثل ما فكرت به. ربما يكون قد انتبه لما تراكم على ذاتي المستكينة الجالسة إلى جانبه...

هنالك قاسم مشترك يجمع بيننا. كلانا مركون في الزاوية القصوى من الإهمال. كلانا سقط سهوا من روزنامة الحياة. اكرر عليه مفردة «صديقي». هذه الكلمة هي إكسير العلاقات العابرة التي تأتي بها المصادفات الليلية الباردة تحت رعاية هذه المدينة الصامتة...

ـ يا صديقي.. رغم عدم معرفتي بالسبب الحقيقي الذي جاء بك إلى هنا ولكن حدسي يحدثني عن أشياء كثيرة. ذلك الحدس يأخذني إلى



منطقة رمادية تدعى الماضي. يسحبني باتجاه تلك الحروب العقيمة التي أنتجت هذا الغبار المتراكم على أجسادنا. الغبار المشبّع برائحة الموت يكلمني بصراحة فائقة عن القدر البخيل الذي لم يوفر لك مكاناً يليق بتاريخك الحربي...

اقترب منه قليلا وأضيف:

- متاحف الحروب فارغة.. أعلم بذلك وأنت أيضاً تعلم بذلك.. تلك المتاحف لا تحتفظ بإرث المعتوهين الذين ذهبوا إلى ساحات النسيان بأرجلهم.. حتى مخلفاتهم غير مرغوب بها في ذلك المتحف.. أنا افهم ما تريد قوله يا صديقي.. أستشعر ما يدور في داخلك.. ادري بان لديك رغبة بالبوح.. تكلم يا صديقي.. لا تسمح لأحد غيرك بأن يأخذ دورك.. اخبر العالم بكل شيء.. عليك أن تصرخ.. لا مكان لأصحاب الصوت الواطئ في هذا الزمن المتوحش.. لا تترك شيئاً وراءك.. قم بأي سلوك يحدث خربشات على خد الحياة.. شيء واحد عليك أن تتجنبه.. ذلك الشيء هو البكاء....

لا تسمح للتاريخ بأن يضعك في عداد الضحايا.. الضحية مفهوم مقرف.. سيضحك الزمن عليك بملء فمه أن رآك باكياً.. أعرف بأن كمية الحزن المتراكمة داخل نفسك المرهقة تمارس الضغط باتجاه ذلك.. أعلم بأن هنالك أشياء خارج إمكانيات القدرة على ضبط النفس.. أكاد اقرأ أفكارك من هيئتك الموحية بأن الكبت لابد أن يؤول إلى لحظة انفجار.. يصلني ما يبوح به صمتك.. كلماتك الملطخة بوحل آخر معركة خاسرة دخلتها ترديني طرية رغم ما تقادم عليها من



زمن.. لا يمسّنك الحزن أيها الصديق فالأقدار متناسخة.. جميعنا في نفس المربع.. رغم صغر مساحة ذلك المربع ومحدوديته ولكن علينا أن نواصل الحركة.. علينا أن نقطع ماراثون الوجود بأقدامنا النحيلة المنهوكة القوى.. الإجابات مبتورة.. أو مُعاقة كما قلت لك...

أتمعّن في مظهره بتركيز. أخمّن ما يدور في خلده ثم أواصل حديثي واسأله:

ـ هل ترضى أن أقدّم لك الإجابة بدلاً من بيت الله.. سأوفر لك بديلاً يُجّنبك الانتظار الطويل.. أولاً علينا أن نعذر هذا البيت الماثل أمامنا.. أقول لك ذلك لأني متأكد من كون ذاكرته ضعيفة جداً.. الحروب أنهكت ذاكرته.. هذا البيت أصبح معبراً للموت لكثرة ما مر به من جثث متوشحة بقطعة القماش السيّادية التي تسمى العَلَم. هذا ما اضعف قدرته على الاحتفاظ بالتفاصيل.. يأتون بهم على عجل ثم ينقلوهم إلى الطمر الصحي.. هل هذه الإجابة مزعجة.. نعم إنها مزعجة ومخيبة للآمال.. يؤسفني أني لا أجد توصيفاً مناسباً لما حدث غير هذا.. صاحبك والمئات مثله وربما الآلاف تم تمريرهم عبر هذا البيت سريعاً ثم استقروا هناك في الطمر الصحي.. وجودهم الطارئ في هذا البيت كان مجرد ترانزيت روتيني سابق لمرحلة الانتقال إلى العالم الآخر.. ذلك العالم السفلي الذي لا نمتلك معلومات كافية عنه والذي يتم نقلهم إليه بعد أن ينتزع منهم كل شيء حتى قطعة القماش السيّادية الملونة بالأسود والأحمر.. حتى تلك القماشة التي يطلق عليها اسم عَلَم تتخلى عنهم...

بيت الله لا يحتفظ بسجلات خاصة بهم.. يتعمد ذلك بقصديّة



لا يمكن إخفاءها.. لقد تخلّص من مسؤولية ذكرياتهم كي لا يقع في الحرج في حالة مجيء أمثالك للمطالبة بتلك الذكريات...

اسمعني أيها الصديق.. لا تتعب نفسك في المكوث طويلاً في هذا المكان فلن تجد شيئاً يخص صاحبك في ذاكرة بيت الله...

ما الذي تريد أن تقوله...؟

هل لديك رسالة ما تريد أن توصلها...؟

هل أنت الرسول المبعوث من آلهة الحروب..؟

صمتك يجذبني.. دعني اقترب منك أكثر.. اشعر بأن ذواتنا متشابهة كأننا التقينا في عالم آخر سابق لهذا العالم.. انه لقاء المصائر المتناسخة.. اللاجدوى هي رب المصادفات الجامعة لأمثالنا.. لنغتنم هذه الفرصة.. علينا أن نغادر هذا المكان...

عند دخولي الفندق سمعت صوتاً يصيح ورائي:

ـ هذا فندق وليس متحفا للحرب..

كان ذلك صوت مدير الفندق الذي ما لبث أن ابتسم بوجهي بعد ذلك قائلاً:

ـ حسناً... «البسطال» سيكون ضيف الشرف.



عصر المُهمليَن،

اللّه بادر بما فيه الكفاية

وجاء دور الإنسان ليبادر



I

ساعات النهار تمضي مسرعة. في الغالب أقضيها في الاستماع إلى حوارات طاهر وأبي نؤاس شريكيّ في الغرفة. أحيانا اشترك معهما في الحديث وأحياناً أخرى التزم جانب الصمت. في المرات التي أشاركهما فيها الحديث ينتابني شعور غريب يجعلني ادخل لا إرادياً إلى وعي المتسول. أتذكر اعتراضهم العنيف يوم لقائنا الأول حين قلت لهما بأني قد أكون متسولاً. استعيد تلك الضحكة العميقة التي تلت «لاءهما» الاعتراضية بعد سماعهما لما افترضته. ضحكتنا المشتركة لم تكن ضحكة اعتيادية بل كانت فعل تواطؤ ضد سلطة القدر. اتفاق سري لإرادات مقموعة. حينها ضحكنا بكل ما نملك من قوة. منذ تلك الضحكة ووعي المتسول يسكنني. استمع إلى ما يقوله طاهر وما يرد به أبو نؤاس. أتأمل الاعتراضات المتبادلة. أقف في المنطقة الوسط بين تلك الاعتراضات الحوارية التي خفّت حدّتها منذ مجيء الطفل اللقيط إلى غرفتنا. أعيش واقعهما من خلال ما اسمعه منهما. أحل محلهما عن طريق التصّور. اسمع ما يقوله أبو نؤاس فأتخيل نفسي جالساً أمام الجامع ماداً يدي للمصلين الخارجين تواً من لقائهم مع الرب. ثم اسمع حديث طاهر فانتقل للجلوس أمام البار مستقبلاً ما يجود به السكارى. أقارن بين شعورين مختلفين. كل شعور يتحدد بالموقع الذي أكون فيه. النتيجة



التي أصل إليها تتلخص بأن على المتسول أن يكسب عاطفة المقابل أولاً قبل أن يكسب ماله. يترتب على ذلك نتيجة أخرى وهي إمكانية أن نكون جميعاً في خانة المتسولين ما دمنا بحاجة دائمة لعاطفة الغير...

عند الظهيرة يغادرنا أبو نؤاس متوجها إلى الجامع. يكون موعد خروجه قبل نصف ساعة من صلاة الظهر ويتكرر ذلك عند صلاة المغرب. اغلب الأحيان يعود إلينا وهو متعكر المزاج. استياؤه وتذمره بسبب المصلين الذين لا يمدون أيديهم إلى جيوبهم. يعبر عن استيائه بهذه العبارة. لأكثر من مرة كان يطلب مني تفسيرا لذلك. يريد مني أن أضع تبريراً عن الدافع الذي يجعل الداخلين إلى البار يتعاطفون مع طاهر بينما الداخلين إلى الجامع لا يتعاطفون معه....

الأجوبة التي أضعها بين يديه تبدو له غير مقنعة. لا يريد أن يتقبلها رغم واقعيتها. لذلك يرفضها بشدة ويضع المسببات التي تناسب حالته النفسية ومزاجه المتعكر. هذا اليوم كان مزاجه سيئاً للغاية. بعد أن افرغ شحناته السلبية تجاه المصلين حوّل الحديث باتجاه آخر...

يتمدد على فراشه العتيق ويصوّب بصره إلى سقف الغرفة ثم يبدأ جديثه بالانسياب. يتكلم بطريقة غريبة وكأنه يناجي نفسه:

ـ أنا لا اذهب إلى هناك من أجل المال.. هناك أمر آخر انتم لا تعلمون به.. أنا اذهب إلى هناك لكي أراه....

صوته المتعب بدا أكثر خشونة وهو يخرج هذه الكلمات. لم يقاطعه أحد منا ولم نتجرأ على سؤاله عن الشخص الذي يتحدث عنه والذي يذهب إلى الجامع في سبيل رؤيته. هو أيضا لم ينتظر ذلك السؤال. واصل حديثه قائلاً:



ـ نعم أنا لا اذهب إلى الجامع من اجل المال.. ماذا افعل بالمال وأنا ميت منذ مدّة طويلة...

يزداد الأمر غموضاً لديّ. طاهر ينظر إليّ بطريقة توحي بأنه يريد أن يُخبرني بشيء ولكن الإحراج يمنعه. انتقالات أبي نؤاس في الحديث لا تمنحني وقتاً كافياً لاستيعاب الفكرة التي يريد طرحها. عيونه لا تزال ملتصقة بالسقف. انه يخاطب شيئاً ما في الأعلى. شيء مختلف عنا نحن شركاءه في هذه الغرفة البائسة الواقعة في زاوية منسية من فندق المُهملين...

بعد لحظة صمت غير مفهومة يقفز من مكانه بحركة سريعة غير متوقعة. خطوتان سريعتان يكون بعدها واقفاً بالقرب من الطفل اللقيط. يحدّق في وجه الطفل دون أن يتكلم. غرابة ما صدر عنه جعلتنا في درجة الترّقب القصوى...

يستمر الصمت لمدّة تزيد على الدقيقة. أنا وطاهر نكتفي بالمراقبة فقط. نترقب ما سيحدث. الطفل يبادله النظرات في مواجهة وجودية لم يشهد التاريخ مثيلاً لها. يُقرّب وجهه من وجه الطفل ثم يصرخ:

ـ كان في نفس عمرك عندما غادرته.. تركته وعمره أيام معدودات.. كنت اعتقد بأن غيابي عنه سيكون لأيام قليلة أو أسابيع وفي أسوأ الأحوال قد يستغرق بعض الأشهر ولكن ما حصل كان مخالفاً لما توقعت فقد قذفتني فوهة الحرب في جُب الأسر لمدّة زمنية فاقت حد التصور.. لم أكن أعلم بأن الغياب يمتلك كل هذه القدرة على التحكم بمصائر البشر...



يترك الطفل. يبتعد عنه بضع خطوات. يلتقط أنفاسه موجهاً كلامه لي هذه المرّة:

ـ إن كنتم تعتقدون بأني اذهب إلى هناك لأجل المال فأنتم مخطئون.. ما جدوى المال لإنسان ميت...

أحاول الاستعانة بطاهر لفك شفرة ما أسمعه. كل ما احصل عليه من طاهر مجرد نظرات مُقيّدة من شخص يريد أن يقول شيئاً وهناك ما يمنعه. يواصل أبو نؤاس خطابه الموّجه لي:

ـ أنا ميت.. نعم أنا ميت منذ عدّة سنين.. يحق لكم أن لا تصدقوا ما أقوله لكم.. يحق لكم أيضاً أن تصفوني بالمجنون أو الكذّاب أو أي نعت ترونه مناسباً.. يحق لكم الأكثر من ذلك.. لم يجرب أحد منكم حالة أن يكون ميتاً وهو على قيد الحياة.. هذا ما حصل لي بعد عودتي من الأسر.. لقد تم تأشير وفاتي في سجلات الأحوال المدنية وكذلك في وعي أهلي وزوجتي وابني...

يحدّق في وجهي ثم يكمل كلامه بصوت ضعيف:

ـ وجهك يخبرني بما يدور في ذهنك الآن.. اعلم ما الذي تريد أن تقوله وما الذي تريد أن تعرفه.. لذا سأجيبك قبل أن تبادر بالسؤال.. أن الانكسار النفسي هو ما جعلني افشل في إعادة نفسي إلى الحياة.. لم امتلك الجرأة الكافية على الظهور أمامهم من جديد.. سيطر عليّ هاجس الموت الروحي.. كيف يمكن لإنسان ميت أن يباغت محبيه بالظهور ليقول لهم بأنه ما زال على قيد الحياة.. كيف أقول ذلك لزوجتي وهي متزوجة من رجل آخر.. كيف اقنع ابني بذلك بعد أن عاش مرحلة اليتم



المريرة.. كيف اخبر أهلي وأخوتي وأقاربي وأبناء محلتي بأن قضية موتي كانت مجرد مزحة قدرية ابتدعها خيال الحرب.. كيف يمكنني ذلك بعد أن تحولت في نظرهم إلى مجرد ذكرى لأحد الجنود الذين ماتوا في معارك العبث...

سنواتي الأخيرة أمضيتها وأنا أعيش حالة الميت الذي يمارس المراقبة عن بُعد.. انتفت لديّ جميع الاحتياجات الحياتية.. شيء واحد فقط كان يمثل لي دافعاً لمواصلة الحياة.. ذلك الشيء هو مجاورة حياة من أحبهم...

عاد إلى سريره. تمدد. راح ينظر إلى السقف ولم ينقطع حديثه:

ـ لا ادري كم من السنين مضى على تاريخ علمي بوفاتي.. الأموات لا يأبهون بالوقت.. تحولت إلى مجرد متسول يجلس في أوقات الصلاة أمام عتبة جامع المدينة الكبير.. أتابع حركة ولدي الذي أصبح شاباً.. أراه يدخل الجامع لأداء فروض الصلاة.. أتمعن فيه بعين الوالد المحروم من ولده.. عندما يجتاز عتبة الجامع ينتابني إحساس غريب يجعلني أتوقع إن صلاته تتضمن سؤالاً مُلّحا يرفعه إلى الرب عند كل قنوت يطالبه فيه ببيان الأسباب التي دعت إلى حرمانه من نعمة الأب...

أمد يدي إليه كلما مرّ من أمامي.. عند هذه الحركة فقط أكون على قيد الحياة.. في الأوقات الأخرى أنا ميت.. أمد يدي إليه دون أن أتكلم.. بداخلي ادعوه للاقتراب مني.. أقول له أنت ابني.. ولكنه يفهم ما أقوم به بطريقة أخرى..

أكثر من مرّة اقترب مني ووضع في يدي شيئاً من المال.. في الغالب



تكون نظراته فيها شيء من التركيز.. يبتسم حين أقول له (حفظك الله يا ولدي).. ابتسامته ربما تكون تغطية لحنق داخلي تجاه القدر الأسود الذي أباح لمتسول مثلي أن يمنّ عليه بالكلمة التي حُرم منها طيلة حياته وهي كلمة «يا ولدي»...

الأيام التي لا يأتي فيها إلى الجامع ترّسخ في نفسي حقيقة الموت التي وُضعتُ فيه رغماً عني.. أنا الجندي الميت في إدراك الجميع الشحاذ الحي على ارض الواقع..

تنتاب الطفل اللقيط نوبة بكاء. يقطع أبو نؤاس الحكاية التي كان يرويها. يقترب من الطفل ويقول له بصوته الحزين:

ـ لقد أحزنتك بقصتي أيها الصغير.. أليس كذلك.. نعم فالأموات لا يجلبون سوى الحزن...

يواصل حديثه مع الطفل بعد أن حملهُ ووضعهُ في حجره. الطفل يبادله البكاء المتقطع أما أنا وطاهر فلم يكن لدينا شيء نقوله..



II

الغرفة التي في الأسفل ما زالت تمثل مركز الحركة الدائمة في هذا الفندق. هذا اليوم وأنا في طريقي إلى الحمّام لفت انتباهي دخول بعض النساء إلى تلك الغرفة. مدير الفندق لا يعبأ بالداخلين والخارجين منها. بالعكس أراه يهتم بهم. يبدو أن ما يجري يكون برضاه وتحت رعايته. شاهدته أكثر من مرّة وهو يُرشد بعض الرجال لتلك الغرفة. أكثر ما أثار فضولي هو المدد المتباينة التي يقضيها الرجال داخل الغرفة. بعضهم يستغرق وقتاً طويلاً والبعض الآخر يخرج بسرعة...

وأنا أتابع ما يجري كانت نفسي تحدثني بأمور لم تكن تشغلني سابقاً. أخبرتني بأن زمن التردد قد انتهى. يحق للأنبياء ما يحق لغيرهم. مسموح لهم أن يأخذوا فكرة عن كل شيء في الوجود. هذا منحني حافزاً قوياً للتحرر من القيد الذي يوقعني بالحرج كلما فكرت بتلك الغرفة وما يدور فيها...

تعود نفسي للاستدراك. تلفت نظري إلى موضوعة الزمن. الأمر يحتاج متسعاً من الوقت وأنا لا املك الوقت الكافي. هذا هو اليوم الثالث بدأ يتآكل. ثلاثة أيام أخرى وبعدها ستكون النهاية. نهاية قصتي التي لم تتضح ملامحها لحد الآن. اليوم تذكرت كتابي الذي ضاع مني



في مستشفى المجانين. الكتاب الخاص بمشروعي النبوي. ذلك الذي لخّصت فيه منظوري للعلاقة التي ستكون بين الإنسان وربه. جماعة «ظهر الدين» لم يصادروا ذلك الكتاب على الرغم من اطلاعهم عليه. تعجّبت لذلك في بداية الأمر ولكني اكتشفت فيما بعد إنهم لم يفعلوا ذلك لإقامة الدليل الكافي لإثبات كوني مجنونا. تركوه بحوزتي لإقناع إدارة المستشفى بأني مؤهل للانتماء إلى شريحة فاقدي نعمة العقل...

ذلك الكتاب المفقود لا أدري إن كان قد بقي تحت حيازة إدارة المستشفى أم انه الآن في يد أحد المجانين. أتمنى أن يكون الاحتمال الثاني هو الأقرب للصحة...

من المؤكد بأن «ظهر الدين» قد أصبح في الوقت الحاضر أكثر حرصا على عمامته. ليس هو وحده وإنما جميع المعممين. كلهم باتوا يتخذون تدابيرهم الاحترازية بعد شيوع خبر محاولة سرقة العمامة التي تم إحباطها في اللحظات الأخيرة. هذا ما يجعل مهمتي أكثر صعوبة في الوقت الحاضر خصوصاً بعد أن بدأ الوقت ينفد. أربعة أيام فقط هي كل ما تبقى...

أنشغل بأيامي القادمة. أقارنها بأيامي الماضية. سلطة الزمن تأخذني إلى نهاراتي المشطوبة. الحركة مسموح بها في الليل فقط. لم يعد بإمكاني الخروج في النهار بسبب الخوف من يتم اكتشاف أمري وإعادتي إلى معقل الجنون..

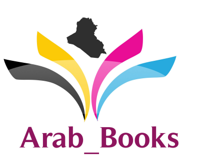
نهاري الثالث يوشك على الانتهاء. اقضيه داخل هذا الفندق الرطب الذي يعتبر نسخة طبق الأصل للبؤس. اكلم نفسي عن هذا المكان.



أتأسف لان كتاب نبوتي لم يتضمن أي شيء عنه. لو كان كتابي بين يدي الآن لأضفت إليه الكثير. هناك العديد من الأشياء التي لا تأخذ فرصتها واستحقاقها. يلتفت إليها الزمن متأخراً. هنالك مشكلة أخرى وهي نسياني لما كتبته في ذلك الكتاب. مضامين الكتاب تلاشت من ذاكرتي بفعل جلسات الصدمات الكهربائية التي تعرضت لها في مستشفى المجانين...

هذا المكان البائس هو الحاضنة المناسبة لصياغة المبادئ النبوية. هو القاع الذي يجب أن يخرج منه الصوت الساعي إلى لفت انتباه الرب. الرب على علم تام بكل التفاصيل ولكنه لا يريد لذواتنا أن تكون ضامرة. لا يحب السكونيّة البشرية.. يريدنا أن نتواصل معه وفق آليات نحن من يبتكرها...

أنا متأكد إن كل غرفة من غرف هذا الفندق تحتوي على حكاية يمكن أن تكون جزءاً من رسالتي. في كل غرفة رسالة إلى الرب. لو أتيح لي الدخول إلى تلك الغرف لخرجت بشيء عظيم. هنالك رسائل في هذا المكان ما زالت قيد الإرسال تنتظر من يوصلها الرب. هل املك حق التفكير بذلك وأنا لا املك من الحياة سوى بضعة أيام. افتراض الدخول إلى تلك الغرف يستغرق ما مسموح لي من وقت. ربما يمكنني اختصار ذلك بغرفة واحدة أو غرفتين. تلك الغرف التي بقيت أراقبها بدافع بعيد عن الإحساس النبوي. لا بأس بذلك فالأنبياء يصيبهم الفضول أيضاً. في الطابق الأرضي يتوجه فضولي إلى الغرفة الجاذبة للرجال وفي الطابق العلوي هناك الغرفة المكتوب عليها (ممنوع الدخول بتاتاً) والتي طلب مني طاهر مراقبة التغيير الذي يطرأ على لافتتها. عملا بما طلبه مني طاهر



فان أول ما قمت به حال عودتي من الخارج هو التوجه إلى تلك الغرفة. اقرأ ما مكتوب فيها. جملة المنع لم تتغير. ما تغير هو الاسم فقط. هذا اليوم كانت الجملة مذيلة باسم: مطرش..



III

تجاوز الليل منتصفه وبدأ صوت الطفولة المنبوذة بإضفاء لمسته على بؤس هذا المكان. انه يبكي بمرارة غير معتادة هذه الليلة...

استيقظ أبو نؤاس من نومه على أثر صوت البكاء الذي لم ينقطع. اقترح أن نستعين بالسيدة التي تسكن في الطابق الأرضي. النساء لديهن خبرة بالأطفال أكثر من الرجال. هكذا قال. أجبته بأن الوقت متأخر وربما تكون تلك المرأة نائمة الآن. علينا أن لا نكون مصدر إزعاج للآخرين...

لم يعقّب على كلامي واكتفى بتوجيه نظرات الشفقة إلى وجه الطفل. ربما نستعين بها غداً.. الوقت غير مناسب حاليا. أخبرته بذلك وأنا أضع الحليب في العلبة الصغيرة الخاصة بالرضاعة...

راح يمص الحليب بنهم. بدا شرساً وهو يقضم الحلمة الاصطناعية التي وضعتها في فمه. أفرحني ذلك. طلبت من أبي نؤاس العودة إلى النوم ففعل. بقينا أنا والطفل على قيد الصحو نتبادل النظرات. طاهر لم يعد من الخارج لحد الآن...

أعاينه وهو يمتص الحياة بقوة. منظره دفعني للبوح. أقول له وأنا امسك قنينة الحليب بسعادة وأراقبها وهي تفرغ شيئاً فشيئاً:

ـ استمر يا صغيري. يجب أن لا يخلو العالم من الأنبياء. نحن من



يصنع القدر. بعد ثلاثة أيام سأرحل عن هذه الحياة وستستلم المهمة من بعدي. الحياة لا تتوقف. اخرج للعالم بنبوتك الصادمة. العالم بحاجة إلى صدمة. اخبر الكون بأن اللقيط يحق له أن يكون نبياً...

بعد قليل سيعود طاهر وهو يحمل لك المزيد من الحليب. يجب أن تحتفظ بقيمة هذا الغذاء. انه البديل المناسب عن حليب الأم الذي تخلى عنك. لابد أن تخبر العالم بأن حليب المتسولين أكثر رحمة من حليب بعض الأمهات...

خذ الحليب بقوة أيها النبي. امتصه بعنف. إياك إياك أن تكون ضعيفاً. الله ينظر إليك الآن. يتابع هذه السهرة التي تجمعنا أنا وأنت. قلبي يحدثني بأنه في قمة السعادة في هذه اللحظة. إقبالك على الحياة يفرحهُ. هو الآن يفكر بنا كما نفكر به. يتأمل ذواتنا المنبوذة المُهملة ويعيد حساباته بخصوص الذات التي تمتلك الأهلية لتكون الرابط بينه وبين البشرية...

صورتنا أمامه في هذه اللحظة. منبوذ ولقيط. الأول لديه ثلاثة أيام فقط وفي اليوم الرابع سيموت ولكنه ما زال متشبثا بالاتفاق الذي حصل عليه في المنام والثاني انطلقت مسيرة حياته من أمام باب أحد الجوامع بعد أن منحه القدر لقب لقيط...

هكذا يرانا الرب يا صغيري. إنه يشاركنا في هذه السهرة. من المحتمل انه ينظر إليك كمشروع تعويض في حال فشلي في تنفيذ ما اشترطه عليّ. لابد من اشتراط للنبوة. تعاملي مع الرب جعلني اعتقد ذلك. لذا سيكون الشرط الخاص بتحقيق نبوتك أسهل وأيسر. هذا الشرط أنا من سيقوم بوضعه. سأتكفل بذلك نيابة عن الرب. الشرط الذي سأكلفك به بسيط



جداً. لا يتطلب منك سوى التمسك بصفة «اللقيط». أن تعلن للبشرية بأنك النبي اللقيط. قم بذلك يا بُني ولا تتردد فالحياة فضيحة كبرى...

عينا الطفل تتسعان وهو يستمع لحديثي. لم يعد لديّ ما يكفي من الوقت. ثلاثة أيام فقط وفي اليوم الرابع سأموت. عليّ أن أكمل إجراءات نقل الصلاحيات إلى نبيي الصغير. أن اخبره بما أردت قوله للعالم ليقوم هو بذلك بعد رحيلي. تعمدت أن تصل كلماتي إليه في نفس لحظة حصوله على حليب طاهر. أن يمتص وصاياي كما يمتص غذاء المتسولين. إنها اللحظة المناسبة. هدوء الطفل أباح لي الكلام فرحت أبوح له بما في داخلي:

اسمع أيها النبي الصغير. كل ما أرجوه منك هو أن تكون مثلي. نبيا بلا دين.. بلا وحي. بلا قيود سماوية. أن تدرك عطب الأديان السابقة لكي تقول شيئا جديداً.. نحن في زمن مختلف يتطلب تقديم رؤية جديدة بخصوص العلاقة بين الإنسان والله.. الإنسان والله.. هل سمعتني جيداً.. عليك أن تقدم الإنسان على الله.. في الأديان النمطية طبيعة العلاقة بين الاثنين يتم تحديدها من قبل الله.. علينا أن نغيّر المعادلة.. أن يتولى الإنسان المهمة هذه المرّة ويقوم بتحديد نمط العلاقة.. الله بادر بما فيه الكفاية وجاء دور الإنسان ليبادر.. أنا على يقين بأن الله لن يعترض على ذلك.. بالعكس من المؤكد بأن تلك المبادرة ستفرحه.. دعني أقول لك شيئاً يا نبي المستقبل.. الله مؤمن بالإنسان.. أؤكد لك إن هذا الإيمان حتمي.. أتدري لماذا.. لأن وجود الله متوقف على وجود الإنسان.. ذلك يتعلق بالإعلام والتعريف.. لقد استعان الله بالإنسان وكلفه بمهمة الإعلان عن وجوده وهذا يدل



على أن الإنسان يمتلك كفاءة عالية لتولي هكذا مهام.. كان بإمكان الله أن يتبع طريقاً آخر للإعلان عن نفسه.. كأن يرسل أحد ملائكته «جبرائيل مثلا» ليقول للبشرية بأن هناك ربا اسمه الله.. أليس هذا الأمر ممكناً.. بنفس الطريقة التي تعامل بها ذلك الملاك مع شخص واحد يمكنه أن يتعامل مع البشرية جمعاء ويخبرهم بوجود الرب.. الله ترك الجميع وتوجه إلى الإنسان وأعطاه تلك المهمة.. بناءً على ذلك لابد للإنسان من أن يبادر.. أن يسعى لإحداث تغيير.. المفاهيم القديمة لم تعد صالحة.. يجب خلق مفاهيم تناسب الزمن الذي نعيش فيه.. أن ننهي ظاهرة إقامة الإنسان في الماضي.. ذلك ممكن.. ويمكن الوصول إليه إذا ما قمنا بهدم ونفي المعنى القديم للنبوة وإحلال معنى بديل عنه.. المعنى الجديد الذي أتحدث عنه يمنح الإنسان الدور الذي حُرم منه في السابق.. هذا الأمر مرتبط بنفي التجارب السابقة التي يكون الإنسان فيها مجرد متلقٍ يستلم التعاليم من السماء.. عندما فكرت بالنبوة كنت أسعى لإعادة إنتاج مفهوم الوجود المشترك بين طرفي العلاقة عبر صياغة «النبوة الإنسانية».. نبوة لا يتدخل الرب في حيثياتها.. يترك شؤونها للإنسان بعد أن يمنحه تفويضاً كاملاً لإنتاج وإظهار كل ما يتعلق بها...

أحدّثك عن كل هذا الآن لأني متأكد بأنك عندما تكبر ستجد أن العلاقة بين الإنسان والله علاقة متأزمة.. أصبحت علاقة مرّكبة ومعقدة قائمة على الخوف والتوتر مما يستوجب إعادة النظر فيها والعمل على تنظيمها وفق معطيات أخرى تختلف عن النمطيات السابقة الموروثة من الماضي.. ما اطمح إليه هو أن يجد الإنسان ربه بسهولة.. ببساطة



وبدون تعقيدات.. ان يكون الله متاحاً للجميع.. لكي نحصل على ذلك علينا أن نقوم بتحّرير الله.. نعم يا صغيري.. لا تتعجب مما أقوله.. أن نحرره من حالة الاحتكار التي يتعرض لها.. الله مُحتكر من قبل الأديان وتفرعاتها.. لقد وضعوه تحت وصاية الأديان وراحوا يفعلون كل شيء باسمه.. ضع ذلك في الحسبان.. الخطوة الأولى هي أن نخلّصه من تلك الأنساق الصلدة المتمثلة بالأديان التي تمنع الوصول إليه بسهولة.. ثم نُعيد تكوين صورته الجميلة في عقول الناس بعد مسح الصورة القديمة التي كونتها الأديان عنه.. تلك الصورة المخيفة التي أرعبت طفولة البشرية والتي يظهر فيها رب تدميري يطالبنا بأن نجثو أمامه في كل وقت وان نمتثل لقوانينه القسرية الصارمة وإلا ستحل بنا لعنة أبدية.. الخطوة الأخرى هي إيجاد وسائل للاتصال به بعيدة عن الفرائض والطقوس والشعائر.. أن نتواصل معه بطريقة توافق إدراكنا الجمالي له...

اسمعني يا نبي المستقبل.. لو أتيح لي إكمال التجربة لقلت أشياءً كثيرة.. ولكن الوقت لم يعد كافياً.. لم يبق لديّ خيار سوى التفكير بك.. أنا أعوّل عليك.. كل الأشياء التي لم يمنحني القدر فرصة الإعلان عنها سأتركها لك.. أنت النبي من بعدي.. اخرج من إطار النمط القديم للأنبياء.. نحن بحاجة إلى نبي مُنتج لا مجرد متلقٍ.. أن نعيد صياغة الدور الوظيفي للنبي.. أن ننهي تلك المرحلة التي يكون فيها مجرد «ناقل» أو مجرد ساعي بريد لا يمتلك أي صلاحية على الرسالة التي كلف بإيصالها.. نحن بحاجة إلى أفكار صاعدة وليست نازلة.. نحن بحاجة إلى علاقة بسيطة مع الرب.. هذه الاحتياجات تدعونا إلى تغيير المصدر المنتج للسياقات.. ما الضير في ذلك..؟ النبوة وسيلة وليست



غاية.. كل ما علينا فعله هو أن نبسط مفهوم مركز العلاقة.. أن نستدعي الرب إلى إنسانيتنا.. أن نقنعه بإنهاء كل المراسيم الصارمة.. أن نخفف حدة التوتر الناتجة عن تلك المراسيم.. أن نلغي فكرة أن يكون الله مصدرا للخوف.. نريده أن يكون مصدرا للحب والجمال.. هو جميل ويحب الجمال.. سمعنا ذلك كثيراً لهذا نريد أن يكون هنالك معيار للتطبيق.. نريد أن تكون صفة الجميل هي السائدة...

أحدثك عن أشياء ربما لا تفهمها الآن ولكنها مهمة لك بالمستقبل.. هي مهمة بالنسبة لك في زمن لاحق.. عندما تجهر بالنبوة.. ما أقوله لك الآن سيكون مادتك التي تقدمها للبشرية...

عينا الطفل ملتصقتان بوجهي وأنا أحدثه عن كل هذا. كان يبادلني الحوار عن طريق نظراته الحائرة. يتفاعل مع كلماتي بإيماءات بسيطة افهمها بطريقتي الخاصة. أتوقع انه يعي ما أقوله له. هذا ما جعلني أبوح له بأمر آخر. قلت له. أنا منبوذ وأنت لقيط. علينا أن لا نبقى على قيد الفضيحة. يجب أن نتجاوزها. أن نكشف لها مؤخراتنا. أخبرته بذلك وأنا استمع لصرخة دكتور عذاب.



IV

بعد أن هدأ الطفل وانقطع صراخه وبعد أن أطلق دكتور عذاب صيحته الموقوتة خرجت من الفندق باحثاً عن حلمي الذي بدأ الوقت يحاصره. أتجاوز ضوابط السبات الليلي. في شوارع جرداء لمدينة نام جميع أهلها. أنا الوحيد الذي يصارع الزمن. أحاول التقاط الفرصة قبل أن يطلق القدر صفّارة النهاية...

أسير في شوارع المدينة التي لم تطأها أقدام نبي منذ آلاف السنين. ربما لم يمر بها نبي إطلاقاً. مدننا انقطعت صلتها بالأنبياء. ملامحها تقول بأنها قد نسيت هذه الفكرة. الاحتمال لم يعد وارداً في ذهنها. إرادة الماضي تتكلم نيابة عنها تأييداً لهذا الرأي...

تتساءل المدينة في داخلها عن هذا الغريب ذي الملابس الرثة الذي يقطع شوارعها سيراً في هذا الوقت المتأخر من الليل والذي تكرر ظهوره للمرة الثالثة. لا شك أن خطواتي المرتبكة قد أثارت الريبة لديها. تخبطي يُعطي انطباعا عن حجم التيه الذي أمر به. ابعث لها بعض الإشارات القصيرة عما يدور في خلدي في هذه الساعة. الفرصة مواتية لفتح باب الحوار معها. الليل يمثل حالة الصفاء التام والطمأنينة لأمثالها خصوصاً في ظل حالة السكون التي تعيشها بسبب انعدام حركة البشر. لا شيء يُعكر مزاجها في هذا الوقت لهذا أجدها مهيأة للاستماع لي...



أحاول استثمار الوقت القليل الذي يفصلني عن الوصول إلى الجامع. تجتمع في رأسي أفكار طارئة تطلب مني أن أضعها بين يدّي المدينة. أفكاري النافرة تتلخص بسؤال منفرد يتعلق بكيفية التعامل مع النقائض...

قد يكون السؤال مبهماً بعض الشيء. سأعززه بالصور. صورتان فقط اعتقد إنهما كافيتان لتبسيط ما يسعى إليه السؤال. الأولى لظهر الدين والثانية للطفل اللقيط. في الأولى تتجسد حالة الرخاء والطمأنينة لرجل نزع عمامته والتحف بغطاء الرفاهية وفي الثانية يظهر طفل يبلغ من العمر بضعة أيام مُلقى أمام باب أحد الجوامع في ليلة شتائية باردة...

أضع الصورتين أمام أنظار المدينة واسألها: أجيبي أيتها المدينة كيف تمكنت من الجمع بين هاتين الصورتين في إطار واحد...؟

لا أطمح بالحصول على إجابة. أنا اعلم بأن ما اطرحه لم يعد منتجاً. المدينة كلها لي ولكن هذا غير مُجدٍ لشخص يطمح أن يكون نبياً. المدينة كلها لي بشوارعها وأزقتها وأسواقها ولكنها مدينة خرساء. ما جدوى ذلك والناس غير موجودين. كل نبي لابد له من متلقين. بشرٌ يلقي عليهم نبوته. أقول ذلك على الرغم من كوني لم أصل إلى مرتبة النبوة بعد. طموحي تجاه الناس يمكن أن يُختصر بشخص واحد فقط. بغض النظر عن صفته وهويته. أي شخص يضع على رأسه قطعة قماش يمكن اعتبارها عمامة ولو مجازاً...

الوقت يداهمني ويحاصرني بإشاراته المُحبِطة وأنا لا أريد أن أتخلى عن قضيتي. أيامي المعدودة على أصابع اليد يجب أن تبقى مقرونة



بالأمل. اليوم الذي ينقضي سأضع الأمل باليوم الذي يليه. لن اترك ذلك الأمل حتى اليوم الأخير من حياتي. وبعد أن أموت فليعذرني الرب. لقد بذلت ما بوسعي في سبيل تنفيذ الشرط الذي طلبه مني وكنت صادقاً في كل خطوة أخطوها...

أجوب شوارع المدينة في هذا الليل البارد وذاتي متوجهة إلى الله. اعلم بأنه يراقبني الآن. يتابع خطواتي بعين العطف. وربما بعين الشفقة. يتأمل أيامي التي بدأت بالتنازل والانقضاء ويفكر بالشرط الذي طلب مني تنفيذه في سبيل منحي فرصة النبوة. هو يفكر بي وأنا أفكر به. هذا الليل الهادئ هو الفرصة المناسبة لملاقاة الرب. ذهاب البشر إلى السبات يهيئ لذلك اللقاء. أغمض عينيّ وأتذكر الإحساس الذي توّلد عندي بعد الليلة التي رأيت الله فيها في المنام. ذلك الإحساس الذي أقنعني بأن الله موجود في داخلي وانه قد استقر في ذاتي ولن يبتعد عني. قربهُ الذي حمل العديد من الدلالات وأولها انه مهتم بهذه الفكرة الجديدة التي طرحتها عليه وثانيها انه لا يُقصي الصنف الآخر من مخلوقاته البشرية التي يمكن تصنفيها بالطبقة المُهمَلة أو على الأقل هو قد أدرك وجودها وشعر بضرورة أن يكون للمُهمليَن دور في تكوين العلاقة بينه وبين البشرية. انه عصر المُهمليَن وأنا واحد منهم...

المُهمليَن القابعين في قاع الحياة والذين لم يولهم الزمن أي اهتمام. لقد نالوا ثقة الله. تلك الثقة ربما جاءت متأخرة ولكن ذلك قد يكون لسبب وجيه أيضاً. تأخير منح الفرصة لا يخلو من فائدة. ذلك أن ترتيبهم المتأخر سيمنحهم فرصة التغيير المبني على الدراية التامة بتجارب السابقين. إضافة إلى الدافع المعنوي المتأتي من كون الله لم ينسهم



ولم يغفل وجودهم. لقد جاؤوا متأخرين ولكن الله رحب بحضورهم. أولئك الذين عاشوا تحت ضغط الشعور بالدونية. هذا الشعور الذي سيطر عليّ طيلة حياتي التي قضيتها في القاع. الشعور الذي يمكن إدراك حالته القصوى عند الإقامة في هذا الفندق الذي حشرني فيه القدر. من المحتمل أن يكون هناك سبب آخر يعزى له التأخير وهو إن الله كان ينتظر المبادرة. ينتظر من «الإنسان الأدنى» أن يتخلى عن الدور السلبي. يريده أن يكون فاعلاً وأن يساهم في تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه.

أن تكون مُهمَلاً فذلك يُغني عن الحديث عن أي شيء آخر. هذه الصفة تحمل دلالتها المباشرة التي لا تحتاج أي إضافات. من يريد المعايشة الواقعية لعوالم المُهمَلين عليه أن ينتقل ميدانياً إلى الفندق الذي اقضي فيه أيامي الأخيرة. بالإضافة إلى وجود خيار آخر وهو الانتقال إلى مستشفى المجانين. يسمّونه مستشفى الأمراض العقلية. هذه التسمية فيها نوع من التحايل على الجنون. أنا جدير بحمل صفة المُهمَل لأني انتقلت من مستشفى المجانين إلى فندق لا يسكن فيه سوى الذين سقطوا سهواً من ذاكرة السعادة...

هذان المكانان يحتويان على التفاصيل المجزية للإهمال المتوجه للجنس البشري. تلك التفاصيل المؤلمة والداعية إلى الوقوف على البواعث القدرية التي جعلت نزلاء هذين المكانين في هكذا حال. لا شك إن الإهمال لا ينحصر في هذين المكانين فقط. هناك مناطق سكنية كاملة يمكن أن تكون رمزاً لخاصيّة الإهمال وأنا نتاج أحد الأحياء السكنية المُهملَة. إنها دورة حياة المُهمَل. من حي شعبي فقير بائس إلى مستشفى الإهمال العقلي ومن ثم إلى فندق المُهمَلين. هذه هي السيرة



الذاتية للمُهمل الذي يطمح أن يكون نبياً. أضعها بكل صدق وعفويّة بين يدّي الله...

يبدو إني قد خرجت مبكراً هذه الليلة. لم اعد أحسن التعامل مع الوقت. شجرة الله تستشعر حيرتي. يبدو ذلك من حفيفها الساعي لمحاورتي وسؤالي: ما الذي يدعوك إلى الجلوس هنا في هذا الوقت...

سلوكي الغريب يثير انتباه محيطي. مخلوق غريب يرتدي ملابس رثة محنّط تحت شجرة مصلوبة أمام جامع كبير في وقت متأخر من ليلة باردة...

انه ضرب من الجنون. هذا التفسير هو الوحيد الذي يمتلك قوة الإقناع عندما يمر بعقل المدينة المتابعة لما أقوم به. ما يدور في ذهنها لا يثير حفيظتي. سلوكها طبيعي تجاهي. أقول ذلك لعلمي بأنها لم يسبق لها التعامل مع الأنبياء. ليس لديها أوليات عن الكيفية التي يفكرون بها. معلوماتها شحيحة عن سلوكياتهم الخارجة على المألوف. لو قُدّر لي تحقيق الشرط الإلهي لتمكنت من إخراج هذه المدينة من وعيها السلبي. سأنتقل بها إلى مرحلة أخرى لم تكن تتوقعها. مرحلة معاصرة النبوة...

أنا منشغل حالياً بالمدينة. أحاورها من طرف واحد. اندفاعي للحوار جعلني لا انتبه لشيء مهم وهو تحديد هوية هذه المدينة التي أطمح أن أكون نبيها...

ضحكت على نفسي بعد أن انتبهت لذلك. أنا أتحاور مع مدينة لا اعرف اسمها. أتكلم مع مدينة مجهولة الهوية. اكوّن عنها صورة افتراضية على الرغم من عدم إدراكي لموقفها تجاهي إذا ما أعلنت النبوة...



يمضي الوقت بطيئاً. لا شيء يتحرك أمام عينيّ. البرد يخترق ملابسي الرثة ويتسلل إلى زوايا جسدي النحيل. اشعر بأن مقاومتي ضعيفة أمام ضربات الهواء البارد. صوت الريح والإنارة الذاوية وقلقي الوجودي جميعها تتفاعل الآن مكونة لموقف غير مساند لي. يدعمها في ذلك شي يتعلق بارتباكي وعدم معرفتي بالوقت. هذا ما يجعلني اشعر بأني خارج الزمن. مخلوق طارئ على الوجود يحاول أن يتجاوز سلطات الرفض الحاكمة لكل مجريات هذه اللعبة...

انظر إلى الأعلى. أركز في حركة أغصان الشجرة. إنها ترتعش أيضاً. الشجرة تقف عارية في جميع المواسم. التعرّي أمام بيت الله جرأة لا متناهية. ليتني أتمكن من القيام بذلك. يخطر ببالي أن أجرّب ذلك ولكن سلطات البرد تجبرني على التراجع...

الحياة لعبة. هذه التوصيف مناسب جداً لها. هي غير جديرة بالجديّة المفرطة. الأولى بنا أن نكسر ضوابطها ونعلن تمردنا عليها مثلما فعلت هذه الشجرة حين تعرّت أمام بيت الله...

وأنا أخوض بفكرة التماهي مع الشجرة العارية لمحت شيئاً يقترب من بعيد. شخص يسير إلى جانب الجدار. أراقب حركته وتقدمه باتجاه الجامع. تتوضح الصورة كلما ازداد اقترابه. خطوات حذرة تتستر بالظلام. كائن يمشي بمحاذاة الجدران الممتدة عبر الشارع إلى أن وصل قبالة الجامع. تراجعت قليلاً إلى الوراء لكي لا ينتبه لوجودي. رأيته يقترب من جدار الجامع وهو يتلّفت. بحركة سريعة قام بتسلق الجدار وعبر إلى داخل الجامع...



لم افهم شيئاً مما يجري أمامي. لم يجد عقلي تفسيراً لما شاهدته عيوني. المشهد السريع الذي تابعته أبقاني ساكناً داخل مربع الانتظار. أترّقب الحركة اللاحقة التي تفسر الحركة السابقة. بعد ما يقارب العشر دقائق لاحظت شيئاً يلوح فوق الجدار. رأيته وهو يستقر أعلى الجدار وهو يحمل شيئاً ما...

بعد ذلك حدث ما لم يكن متوقعاً. نهضت من مكاني وهرعت نحوه بعد أن رأيته يفقد توازنه ويسقط من أعلى الجدار إلى الأرض. حين وصلت إليه صاح بي بصوت مرعوب:

ـ لا تقترب...

كان مذعوراً ووجهه مليء بالخوف الناتج عن السقوط وظهوري المفاجئ. كرر عليّ عبارات التحذير. المسافة الفاصلة بيني وبينه قليلة جداً. قلت له:

ـ لا تخف.. أنا أريد أن أقدم لك المساعدة..

لم يطمئن إلى ما قلته في البداية ولكنه بعد ذلك سمح لي بالاقتراب منه. كان يتلوى من الألم وهو مطروح على الرصيف ممسكاً برجله اليسرى التي يبدو أن سقوطه كان عليها. إلى جانبه كانت هناك سجادة صغيرة فُرشت تلقائياً على الرصيف بعد فقدانه السيطرة عليها. حاول النهوض ولكنه لم يتمكن. يفعل ذلك وعيناه شاخصتان باتجاه السجادة...

قلت له:

ـ لا تخف... سأساعدك..



أجابني بصوت مرتجف وهو يتمعن في وجهي:

ـ من أنت..؟

ـ لا يهم من أنا... أرجوك اطمئن ولا تخف مني.. كل ما أريده هو مساعدتك فقط...

ـ عليّ أن اذهب من هنا... يجب أن ابتعد.. ساعدني على النهوض أرجوك..

ـ حسناً اتكئ عليّ وحاول النهوض...

أضع يدي في يده الباردة المرتجفة وأساعده على النهوض. اسند جسمه الثقيل على جسمي الذاوي. تحرّك من مكانه خطوتين بصعوبة بالغة ثم التفت إلى الخلف وقال:

ـ السجّادة.....

حدقت بوجهه فأضاف:

ـ أنا بحاجة إليها.. أرجوك ساعدني على حملها...

رجعت إلى السجّادة وقمت بطيها وحملها ثم عاودت إسناده لكي يتمكن من السير. تجاوزنا أكثر من شارع وبعد مسافة ليست بالقصيرة حيث أصبحنا بعيدين عن الجامع طلب مني أن نجلس في مكان منزوٍ لا يراه أحد. حين استقر مطمئناً مدّ يده ليتحسس قدمه وقال:

ـ إنها تؤلمني... كان ارتطامها بالأرض قوياً..

ـ كانْ عليك أن تكون حذراً...



ـ الحذر لم يعد مجدياً في هذه الحياة الطائشة.. من المستحيل أن نخضع الأمور لإرادتنا.. الحياة لا تعترف بإرادتنا.. إنها تفعل ما تشاء هي وليس ما نشاء نحن..

انظر إليه وفي داخلي حيرة مكتومة. يضيف:

ـ من المؤكد بأنك الآن تحمل فضولاً كبيراً تجاهي.. بنفس القدر الذي احمله أنا تجاهك.. كلانا يبحث عن سر الآخر.. أليس كذلك...؟

ـ نعم.. ولكن هذا الليل كفيل بفضح ذواتنا الهاربة من الضوء.. تحت سماء العدم لا يوجد شيء مخفي.. كانت عبارتك صائبة عندما قلت بأن الحذر لم يعد مجدياً...

ـ يجب أن أعود إلى البيت.. هناك من ينتظر عودتي.. عليّ أن أصل إلى هناك قبل طلوع النهار...

يتوقف عن الكلام. يمسح بيده على ساقه ثم يلتفت إليّ ويقول:

ـ ولكن قبل أن أفارقك أجد نفسي ملزماً بإشباع فضولك.. سأقول لك شيئاً.. ولا تعتبر ذلك اعترافاً فأنا لا أعترف بشيء لا يعتبر في نظري خطيئة...

ـ أنت غير ملزم بالحديث عن أي شيء إن لم تكن ترغب بذلك...

ـ اسمع يا رفيقي.. أنا لا اعرف من تكون ولا ادري ما الذي دعاك لتقديم المساعدة لشخص مثلي ولكن موقفك تجاهي يجعلني ملزماً بإزالة بعض الغموض الذي علق بذهنك نتيجة ما رأيته هذه الليلة رغم اعتقادي بأن ما شاهدته كان واضحاً ولا يحتاج إلى أي إضافات أو



تفسير.. إنها عملية سرقة.. سرقة من الجامع.. هذا الأمر واضح لديك أليس كذلك.. ولكن اسمح لي أن أخبرك بشيء آخر.. هذه السرقة لم تكن الأولى.. لقد تكرر ذلك الأمر لأكثر من مرّة.. قد يكون الأمر غريباً بعض الشيء وفيه شيء من الصدمة.. أنت غير مقتنع بما سمعته.. أليس كذلك...

ـ يبدو الأمر غريباً حقاً.. بصراحة لو لم أكن قد شاهدت ما حدث بنفسي لما كنت سأصدق ما اسمعه...

ـ كما قلت لك إنها ليست المرة الأولى ولكن ما حدث هذه الليلة كان مختلفاً عما حدث في الليالي السابقة.. إنها المرة الأولى التي أتعرض فيها للسقوط ولأول مرة يكتشف أمري من قبل احد ما.. في المرات السابقة كانت العملية تجري بنجاح ودون أن يراني احد.. أنت أول شخص يطلّع على هذه السرقة...

يصمت للحظات. يلتفت إلى الفضاء المعتم المفتوح أمامنا ثم يستدرك:

ـ لا لست وحدك من اطلع على هذه السرقة.. الله أيضاً يعلم بها.. في السابق كان وحده العالم بذلك.. في هذه الليلة أصبحت أنت شريكه في هذا الاكتشاف.. أصبحتما اثنين.. لم يعد لديّ ما أخفيه.. أنا سارق.. ولكني أسرق من بيت الله...

ـ وما الذي يدعوك لذلك..؟

ـ تسألني عما يدعوني لذلك..! إلا ترى إن هذا السؤال غير



منطقي.. من غير المعقول ان يُسأل السارق لماذا يسرق.. هل ترى هذه السجّادة..؟ انظر إليها جيداً.. بعد ساعات قليلة ستتحول إلى لقمة تشبع أطفال جياع.. انه الجوع يا رفيقي.. الجوع هو من جعل مني سارقاً.. طيلة الفترة السابقة وأطفالي يأكلون من خيرات هذا الجامع.. في كل مرة اسرق قطعة من أثاث الجامع وأبيعها لاشتري بثمنها طعاما لأطفالي...

ـ ولكن لماذا الجامع بالذات...؟

ـ قبل أن أجيبك عن هذا السؤال دعني ألفت انتباهك إلى أمر ما...

ـ تفضل...

ـ أنت قليل الخبرة في مجال طرح الأسئلة.. استفهاماتك بعيدة عن المنطق.. ولكني أعطيك العذر.. إنها المرة الأولى التي تتحاور بها مع سارق.. وأي سارق.. سارق بيت الله..

والآن يا رفيقي دعني أجيبك عن سؤالك.. أنا اسرق من بيت الله لعلمي بأن الله هو الوحيد الذي لن يغضب عندما يُسرق منه شيء.. الله يرى أثاث بيته يسرق أمام عينيه ولكنه لا يعترض ولا يغضب.. بعد كل سرقة أقوم بها اطلب منه الصفح.. أقول له اعذرني أيها الرب الكريم.. البيت الذي طالما صلّيت فيه ها أنا ذا ادخله ليلاً لأسرقه..

هذه الليلة عندما دخلت إلى داخل الجامع شعرت بارتباك.. تذكرت الصلوات التي أديتها فيه.. شعرت بالخوف.. لأول مرة اشعر بالتردد.. رأيت صورة شبحية لشخص يركع ويسجد.. تلك الصورة كانت في كل زوايا الجامع.. جمع غفير من المصلين يحيطون بي..



يدهشني إنهم جميعاً يحملون نفس ملامحي.. إنهم أنا.. كانوا يؤدون الصلاة بصوت عال.. أصواتهم تحاصرني وهي تردد آيات فيها الكثير من التهديد والوعيد.. لم أتمكن من مقاومة تلك الأصوات.. شعرت بالخواء أمامها.. أردت مغادرة الجامع دون أن أمد يدي إلى شيء من محتوياته.. حاولت الهروب ولكني سمعت صوت طفل يبكي ويصيح أنا جائع.. أعادني صوت الطفل إلى المكان الذي كنت أقف عنده.. طويت السجّادة بسرعة وخرجت من الجامع.. تسلقت الجدار ومن شدة ارتباكي لم استطع الحفاظ على توازني فهويت على الرصيف لأجدك أمامي..

يقطع حديثه ويسألني بصورة مفاجئة:

ـ الآن قل أيها الرفيق من أنت...؟

ـ أنا نسختك الثانية.. أنا سارق مثلك ولكني سارق مؤجل.. أحاول أن اسرق شيئاً ما من داخل بيت الله ولكني لم أوّفق لذلك لحد الآن...

أقدارنا متشابهة ولكنها ليست متطابقة.. اختلافي عنك هو إنني ما زلت مشروع سارق.. أمارس الانتظار يومياً أمام بيت الله أترقب قدوم الشيء الذي أروم سرقته..

والآن دعنا من هذا.. علينا أن نُسرع في مغادرة هذا المكان.. يجب أن نستثمر الوقت في سبيل تحويل السجّادة إلى لقمة نسد بها رمق أطفالك الجائعين..



الحرج مرفوع،

عندما يغيب العقل

يغيب كل ما هو سيء




Arab_Books

I

ـ أراك خالي الوفاض هذا اليوم...!

قريباً من مدخل الفندق. مدير الفندق يسألني بطريقته المحببة حال رؤيته لي. اكتفيت بالابتسامة ولم أرد على تساؤله. قال لي أيضاً بأن وجود الطفل في الفندق قد تحّول إلى مشكلة حقيقية وان نزلاء الفندق بدأوا يتذمرون من بكائه الليلي والإزعاج الذي يسببه لهم. طلب مني في النهاية أن أجد حلاً لهذا الموضوع...

كالعادة كان مروري من أمام الغرفة التي تزدحم بالرجال والنساء كل يوم. غرفة مركز الفضول. هكذا اسميها. بابها موصد. ما زال الوقت مبكرا. رغبتي باكتشاف ما يدور في هذه الغرفة بدأت تتفاقم. أتمنى التعرّف على عوالمها. أمشي قريباً منها. وقفت قبالتها كصاحب حاجة يقيّده الحياء. راودتني نفسي أن اطرق الباب. الفندق هادئ في هذا الوقت. أغلب نزلائه غادروه مبكراً والبعض الآخر ما زال نائماً. اقتربت من الباب. خطوة واحدة فقط. كنت على وشك أن أضع يدي عليه لولا سماعي لصوت بكاء الطفل الذي جعلني أبادر بالصعود إلى غرفتنا...

صعدت سريعا إلى الطابق العلوي. في طريقي نحو غرفتنا ألقيت نظرة سريعة على الباب الذي طلب مني طاهر الانتباه لما يطرأ عليه من



تغيير. اللافتة ثابتة بمضمونها الذي يمنع الدخول ولكن الاسم قد تغير. الاسم المكتوب هذا اليوم هو: مقلاص...

ـ لقد عاودته نوبة البكاء...

قال أبو نؤاس ذلك حال دخولي للغرفة. كان يضع الطفل في حجره محاولاً إسكاته بينما كان طاهر يغط في نوم عميق. بعد ان ناولني الطفل قال:

ـ طيلة فترة عدم وجودك وهو يصرخ.. بعض نزلاء الفندق جاؤوا وطالبوا بوضع حد لما يجري...

قلت له: قد يكون جائعاً..

أجابني بأنه قد قام بإرضاعه لأكثر من مرّة ولكن بكاءه لم ينقطع. كرّر ما اقترحه عليّ في الليلة الماضية بضرورة الاستعانة بالمرأة الساكنة في الطابق الأرضي...

كان الطفل في حجري عندما وصلت تلك المرأة. تفاجأت بما تحمله من ملامح. نظراتها الصارمة جعلتني أتخشب ولا أقوى على الحركة. رغم كونها متقدمة في السن إلا إنها تمتلك حضوراً طاغياً. طلبت منّا ان نفسح لها المجال بعد ان وضعت الطفل بين يديها. انزوينا أنا وأبو نؤاس بالقرب من سرير طاهر الذي لا يزال يواصل نومه. اكتفينا بمراقبتها وهي تتفحص الطفل وتجري بعض التعديلات على ملابسه والتخاطب معه عن طريق الأصوات التي تلجأ إليها الأمهات. بعد ذلك طلبت منا ان نسمح لها بأن تأخذ الطفل معها إلى غرفتها لكي تعتني به ثم تعيده بعد أن يهدأ...



بعد خروجها من الغرفة قلت لأبي نؤاس:

ـ كان علينا أن لا نسمح لها بأخذ الطفل..

أجابني أبو نؤاس بعد ان استلقى على فراشه:

ـ لا تقلق.. أنها امرأة صالحة ولا خوف على الطفل من وجوده بحوزتها..

ـ هل تعرفها جيداً...؟

ـ لا يوجد شخص في هذا الفندق لا يعرفها... إنها قارئة الأقدار...

ـ قارئة الأقدار...!

ـ نعم والعشرات من الناس يأتون إليها يومياً لتقرأ لهم أقدارهم..

ـ وهل الأقدار قابلة للقراءة.. أنت مثلاً هل طلبت منها قراءة قدرك..؟

ـ وهل لمثلي قدر يعتد به.. الأموات عابرون لمرحلة القدر.. إنهم تاريخ غير قابل للقراءة..

ـ لماذا تصر على كونك ميتا.. على الرغم من كونك حيا ترزق...؟

ـ على الرغم من كوني ماذا...؟ (حيا أرزق).. هذه العبارة في منتهى الروعة.. أنا حي أرزق.. لا أدري كيف أجيب على ما تفضلت به.. هل أضحك أم أبكي.. كيف يمكن أن تكون حيا ترزق وأنت لا تمتلك حق الإعلان عن وجودك.. كيف تعتبر نفسك على قيد الحياة وأنت ترى نفسك مشطوباً من سجلاتها..

ـ ولكنك ساهمت بذلك.. كان عليك أن تعلن عن وجودك وان تقول للناس بأنك ما زلت حياً.. امتناعك عن ذلك كرّس فكرة موتك..



ـ أنا أخالفك الرأي بهذا الخصوص.. من التعسف أن نثبت حياتنا إذا كان ذلك يؤدي إلى إحداث خلل في حياة الآخرين.. هذا الأمر ينطوي على الكثير من الأنانية.. في بعض الأحيان يكون استمرار موتنا فيه ضمان لانتظام حياة الآخرين.. لذلك علينا ان نتنازل عن هذه الحياة التي تزاحم حياة من نحبهم..

ـ ولكن كان بإمكانك أن تصنع لك حياة أخرى لا تزاحم حياة من تحبهم...

ـ حياة أخرى.. هل تعتقد ان بإمكاننا تصنيف المعنى المتعلق بالحياة.. أن نمتلك الحرية الكافية لاختيار نمط الحياة التي تناسبنا.. هذا غير ممكن.. حياة كل واحد منا يتحقق معناها بوجود أولئك الآخرين الذين نرتبط بهم شعورياً.. هذه الحياة التي تتحدث عنها نسخة مزورة لا يمكن تداولها والاعتداد بها.. إنها حياة بنكهة الموت..

استمر هذا الحوار المشبع بالتشاؤم لمدة تزيد على الساعة. كنت أحاور أبو نؤاس وأفكاري منشغلة بالطفل. فكرة بقائه بعيداً عني كانت تؤرقني. اشعر بأن حياتي مقترنة بوجوده. شعوري هذا يؤيد ما قاله أبو نؤاس قبل قليل. ذلك الطفل هو ثيمة وجودي في الحياة. المرحلة الثانية المكملة لسيرتي التي ستنقطع بعد يومين. الجزء المهم من التجربة التي يجب أن لا تنقطع...

ـ علينا أن نستعيد الطفل...

قلت لأبي نؤاس. طلبت منه أن يدلني على غرفة تلك المرأة التي يطلقون عليها لقب قارئة الأقدار. اصطحبني أبو نؤاس ونزلنا إلى



الطابق الأرضي. عندما وصلنا إلى غرفة قارئة الأقدار كانت المفاجأة. إنها نفس الغرفة التي أثارت فضولي طيلة الأيام السابقة والتي كدت أن أدخلها هذا الصباح...

في غرفتها لم أتمكن من تحديد السبب الذي جعلني خائفاً. الغرفة تكاد تكون خالية من أي شيء. على جدران الغرفة هنالك صور كثيرة. جمعيها لأشخاص ملامحهم تقول بأنهم لم يمروا بمرحلة الشباب. أكثر ما أثار استغرابي هو الحالة التي كان عليها الطفل. وجدته هادئاً يفتح عينيه ويتأمل الوجود...

طلبت منا الجلوس فجلسنا على أريكة قديمة كانت قد وضعت الطفل عليها. تحدثت مع أبي نؤاس بينما نظراتها مصوبة باتجاهي. تفترس جثة وجهي بتلك النظرات الشرسة. عندما رفعتُ الطفل من الأريكة اقتربت مني وقالت:

ـ الطفل على ما يرام في الوقت الحاضر ولكن يجب العناية به...

رد عليها أبو نؤاس:

ـ ولكن بكاءه لا ينقطع..

أجابت ونظراتها موجهة لي:

ـ البكاء من ضرورات الحياة.. انه السلوك الوحيد غير القابل للتزوير.. حياتنا مختصرة بدمعتين.. دمعتين فقط.. دمعة المجيء ودمعة الرحيل..

صمت أبو نؤاس فبادرت أنا بالقول:

ـ وهل جميعنا متساوون في هذه القدرية..؟



حوّلت بصرها إلى الصور المتخشبة في الإطارات المُعلقة على الحائط ثم تنهدت وقالت:

ـ ما دامت البدايات والنهايات واحدة فما قيمة اختلاف ما بينهما.. القاسم المشترك هو الحَكَم.. البشرية جمعاء تبتدئ بنفس الطريقة وكذلك تنتهي بنفس الطريقة.. القاسم المشترك بين الناس يمكن أن نسميه القدر...

ـ إذا كانت أقدارنا واحدة فما الداعي للسعي إلى كشفها والرغبة في الإطلاع عليها...؟

ـ هناك خديعة كبرى تجعل البشر يسعون لذلك.. انه الطموح الكاذب الذي يستدرجهم إلى هذا الطريق.. قدر الإنسان يتلخص بنهايته.. هذا هو المختصر المفيد...

ـ كنت أنوي أن اطلب منك قراءة قدري ولكن حديثك هذا جعلني أتردد...

ـ أنا على علم تام بهذه الرغبة التي بداخلك.. علمت بها حال دخولك إلى غرفتي.. من نظراتك عرفت ما بداخلك لذلك حدثتك بهذه الطريقة.. في كافة الأحوال أنا مستعدة لقراءة قدرك ولكن ليس الآن...

ـ متى إذن...؟

ـ عُد إلى هنا بعد الظهيرة.. ولا تنسَ أن تأتي بالطفل معك...



II

ـ أبو نؤاس مجنون.. لا تصدق ما يقوله...

تفاجأت بطاهر وهو يقترب مني ويخبرني بذلك. أطلق جملته هذه بدون مقدمات. كان أبو نؤاس قد غادرنا متوجهاً نحو جامع المدينة الكبير. حينها كنت منشغلاً بمناغاة الطفل عندما بادرني طاهر بهذا القول. اندهاشي مما سمعته عالجه طاهر فوراً بأن أضاف:

ـ كل الحكايات التي رواها أبو نؤاس غير صحيحة ولا تمت للواقع بأية صلة.. انه يعيش حالة من الوهم المتضخم.. اسألني أنا عنه.. تفاصيل حياته عندي.. قد تستغرب لما تسمعه الآن مني ولكني أريد أن أنبهك للحقيقة الغائبة عنك...

يستمر صمتي. يستمر طاهر بالحديث:

ـ من المؤكد بأنك قد صدّقت الحكاية التي رواها لك.. روايته تجبر من يسمعها على التأثر والتعاطف معها.. هي مؤثرة بالفعل ولكنها ليست حقيقية.. إنها مجرد وهم.. أنا أمتلك تفاصيل أخرى عن حياته.. ما لديّ من تفاصيل ربما يكون أشد إيلاماً من القصة التي رواها لك..

ـ ولكني أشعر بصدق ما قاله.. ما الذي يدعوه إلى إختلاق هكذا قصة



إن لم تكن قد حدثت بالفعل.. وما الذي يستفيده من ذلك.. حتى وإن كانت حكايته غير مطابقة للواقع فعلينا أن لا نكذّبه..

ـ نحن لا نكذّبه.. الحقيقة هي التي تنفي ما يرويه.. قد تسألني عما يدعوه إلى اختلاق هذه القصة.. هو لم يتقصّد اختلاقها.. الصدمة التي تعرض لها أدّت إلى فقدانه لعقله.

ـ ولكن تصرفاته لا تدل على كونه مجنونا..

ـ نعم إن جنونه ليس مطبقاً.. صدمة فقدانه لابنه أحدثت خللاً في قواه العقلية وجعلته يتوهم أحداثا معاكسة للحادثة التي مر بها..

ـ وكيف فقد ولده...؟

ـ لم يكن ولده فقط هو المفقود وإنما عائلته بكاملها والتي تضم زوجته وولده وابنته.. فقدهم في أحد صباحات الحرب الهوجاء.. خرج مبكراً ليأتي لعائلته بالفطور وعندما رجع وجد الفجيعة بانتظاره.. وجد تلك العائلة جثثا مدماة تحت أنقاض بيته الذي لم يتمكن من مقاومة الصاروخ القادم من الدولة المجاورة..

لم يستطع عقله تحمل الصدمة.. منذ ذلك اليوم وهو يتكلم عن قصته التي سمعتها منه.. ربما لا تصدق هذا الذي أحدثك عنه ولكنها الحقيقة.. كنت أحد شهود تلك الحادثة.. في ذلك الصباح الفظيع شاهدته وهو يهرول مذعوراً باتجاه بيته الذي كان الضحية المنتقاة لذلك اليوم مثلما كانت هناك العديد من البيوت التي اختارها القدر لتكون ضحايا لصواريخ حرب الدول المتجاورة...



تفاصيل ذلك اليوم ما زالت مطبوعة في ذاكرتي.. كنت قريباً منه أنظر إليه وهو يفتش بين الأنقاض عن جثث عائلته.. سمعته يصرخ ويستغيث بالله.. رأيته يبعثر الركام وينادي بأسماء عائلته.. مرة يصرخ باسم زوجته ومرة باسم ابنه وأخرى باسم ابنته.. ساكنو البيوت المجاورة هرعوا باتجاه البيت المقصوف.. كنا معه نبعثر ركام الأنقاض لنخرج جثث العائلة جثة بعد جثة.. لم نتمكن حينها من السيطرة على الهستيريا التي انتابته.. بعد أن شاهد الجثث وهي تُنتشل من تحت الركام راح يضرب نفسه ببقايا الطابوق المتكدس على الأرض حتى أدمى رأسه.. أتدري لماذا كانت روايته محصورة بولده فقط على الرغم من كونه فقد عائلته بأجمعها في ذلك الحادث..؟

ـ لماذا..؟

ـ لأنه وجد رأس ابنه ملتصقاً بجدار بيته.. كان ذلك الجدار هو الوحيد الذي سلمَ من بطش صاروخ الدولة الجارة.. ألا تلاحظ إنه دائماً يطيل النظر إلى أعلى الجدار عندما يتكلم وحتى في لحظات صمته تكون عيناه متجهتين إلى الأعلى.. هل لفت ذلك انتباهك...

ـ إنها حادثة مؤلمة...

ـ هي مؤلمة حقا حالها حال القصص الخارجة من رحم الحرب.. الغريب إنهُ بعد تلك الواقعة قد اختفى نهائياً ولم يعلم أحد بمكانه حتى إنه كاد يُنسى لولا ظهوره المفاجئ بعد انتهاء الحرب.. ظهر مُحمّلا بحكاياه التي تتحدث عن أسره وموته المزعوم...

أنهى طاهر حديثه. لم أعقب على ما رواه لي. كنت أريد أن أسأله



عن أبي الحارث وسر تغيّر الأسماء في اللافتة التي يضعها على باب غرفته ولكني وجدت نفسي مشغولاً بقدري الذي سيكون بين يدي قارئة الأقدار بعد قليل.



III

توزع نظراتها علينا بالتساوي. تنظر إلى وجهي للحظة ثم تحوّل بصرها إلى وجه الطفل الساكن في حجري. كأنها تقرأ قدرينا كلانا وليس قدري وحدي. لحظات الصمت كانت قاتلة بالنسبة لي. نظراتها تمتص طمأنينتي. الشعور الرهيب الذي أعيشه في هذه اللحظة ناتج عن فقداني لذخيرتي الحياتية. عيناها المُسلّطتان على وجهي لا تقابلها أي مقاومة من قبلي وهي تتولى استدراج قدري إلى منطقة الظهور والانكشاف. بفعل القلق كنت كمن يحاول إخفاء شيء لا يريد أن يفقده. ذلك الشيء الذي أخاف عليه هو ما تبقى لي من الحياة. يومان فقط هو كل ما تبقى لي من الحياة. القدر الخاص بيومين فقط هل يستحق القراءة. أطرح على نفسي هذا السؤال وأنتظر الإجابة بما سيظهر في نتائج القراءة التي ستقوم بها هذه المرأة الصارمة...

من المؤكد بأن قراءة القدر لا تهتم بالماضي. إنها تتعلق بما سيأتي وأنا أعلم بما سيأتي. الآن وأنا أجلس بسكينة وخضوع تام أجد نفسي عاجزاً عن وصف ملامح تلك المرأة. حالة العجز التام تسيطر على جميع مدركاتي لكوني تحت رحمة نظراتها التي تمارس التنقيب في وجهي وفي وجه الطفل. كنا في حالة استسلام تام. الطفل مثلي تماماً.



سكونه متواطئ مع حالة الخضوع السائدة في هذا الموقف الذي أمرّ به للمرة الأولى في حياتي...

الوقت الذي أمضيته وأنا جالس أمامها كنت أتساءل فيه عن أسباب تأخرها في التقاط قدري. إنه قدر بسيط لا يحتاج إلى كل هذا الوقت. يومان فقط. المساحة التي عليها أن تبحث فيها عن حيثيات ذلك القدر. ما بعد ذلك معلوم لديّ ولا داعي أن تتعب نفسها في البحث عنه...

أثارني تركيزها على وجه الطفل. اعتقدت بأنها لم تتمكن من كشف قدري مما اضطرها للجوء إلى وجه الطفل. قلت لها:

ـ يبدو قدري مُبهماً....؟

استمرت بالتحديق في وجه الطفل لمدة تزيد على الدقيقة. بعد ذلك تراجعت إلى الوراء وقالت:

ـ قريباً سيحدث ما يثير الحزن والفجيعة في هذا الفندق..

قالت ذلك وأغمضت عينيها. لم أتوصل لمعنى ما تقوم به. انتابتني الحيرة تجاه منظر عينيها المغمضتين. استمرت على ذلك الحال لمدة طالت عليّ فقررت أن أقطع حالة السكون. بادرتها بالقول:

ـ لم أفهم شيئاً... هل هذا كل ما يتعلق بقدري...؟

ردّت عليّ وعيناها ما زالتا مغمضتين:

ـ الأيام المقبلة ستشهد حدوث أمرين مفجعين داخل هذا الفندق.. هذا ما تقوله الأقدار...



ـ وهل كلا الأمرين يتعلق بي..؟

عند هذا السؤال فتحت عينيها. اقتربت من الطفل وقالت:

ـ ألم أقل لك في حوارنا الصباحي إن الأقدار مشتركة.. كل ما يجري في العالم من أحداث ذات صلة بنا.. الخصوصية القدرية لا يمكن الحديث عنها.. لا يوجد قدر مستقل وقضاء انفرادي.. يجب على كل واحد منا إن يتهيأ لما سيحدث...

تحدثني وعيناها لا تغادران وجه الطفل كأن حديثها موجه له وليس لي. وددت أن أطلب منها ان تقرأ قدره. أردت أن أحصل على أي معلومة تخص مستقبله. ماذا سيحصل له من بعدي. إلى أين ستأخذه الحياة. ماذا سيكون. هل سيكون نبياً كما رسمت له في ذهني. هل سينجح في إكمال ما بدأت به...؟

أنا مشغول بهذه التساؤلات وقارئة الأقدار مشغولة بالطفل اللقيط. لم أجد تفسيراً لهذا الانشغال المُرّكز. في النهاية عزوت ذلك إلى عاطفة الأمومة. لا شك في ذلك فالمرأة بطبيعتها تميل إلى الأطفال وتتعلق بهم...

لا شيء بعد ذلك. لقد تمت القراءة. إدراكي لذلك جعلني أنهض من مكاني. نهضت قارئة الأقدار أيضاً ووقفت قبالتي. مدّت يدها ومسّدت شعر الطفل وقالت:

ـ هل تسمح بإبقائه عندي..؟

ـ نعم... ولكن ليس الآن...



IV

هم يتذكرونني الآن بنفس الطريقة التي أتذكرهم بها. وعيهم الحر الخارج على ضوابط العقل يشير إلى سارق العمامة الذي اختفى من بينهم. هم يعرفونني بدلالتي كما عرفتهم بدلالتهم. المدّة التي أمضيتها بينهم جعلتني أحن إلى عوالمهم. سلوكياتهم غير المعترفة بالضوابط تُغريني بالعودة إلى المرحلة التي كنت فيها واحداً منهم. في بداية دخولي إلى عوالمهم كنت أنظر إلى ما يدور حولي باستغراب وتعجب. بعد ذلك وما أن مضت أيام قليلة على مكوثي بينهم حتى شعرت بأني في المكان الصحيح. المكان الخالي من التحايل. كل شيء في ذلك المكان صادق. لا غش فيه ولا مواربة ولا نفاق. عندما يغيب العقل يغيب معه كل ماهو سيء. هناك وجدت الصدق في درجاته القصوى. إقامتي هناك ولّدت بداخلي رغبة قوية بالجنون. كوني لست مجنوناً يسبب لي الحرج إزاء ما أشاهده من براءة سلوكية. هناك لا أحد يكذب على أحد. لا أحد يحقد على أحد. ولا أحد يفكر بالغدر بأحد. الجميع يتصرف بدون ترتيب تفكيري سابق. لا تخطيط ولا إعدادات. في ذلك المكان وجدت كل شيء: الصمت. الصراخ. الترّقب. الإحباط. البكاء. الضحك. الماضي. المستقبل. القلق الوجودي. السخرية. كل ذلك تجسم بإشارات يبثها النزلاء من خلال ما يصدر عنهم من تصرفات. هنا



لا احتيال على الوجود بل مواجهة وتصادم وإعلان وفضح وكشف. لا أحد من شخوص هذا المكان يحسب حسابا للنتائج التي تترتب على ما يصدر عنه. الحرج مرفوع. على الرغم من أن كل التصرفات مكررة وسبق أن تمت مشاهدتها سابقاً إلا إني لم أكن أستشعر ذلك. التكرار لا يفقد فعل المجانين نكهته. الأفعال هنا لا تحتاج إلى تأويل أو تفسير إنما تحتاج إلى تأمل فقط...

أتذكر خطواتي الأولى في ذلك المكان. عدّة أشخاص حليقي الرؤوس يسندون ظهورهم إلى الجدار واضعين أيديهم على ركبهم. لم يلتفت أحدهم إليّ. من سيمائهم يتضح أن دخول شخص جديد إلى هذا المكان لا يشكل حدثاً ذا أهمية بالنسبة لهم. يجلسون بهدوء. لا تصدر عنهم أية حركة. تجاوزتهم بلا اكتراث دون أن اعرف إلى أين أتجه. حديقة المستشفى واسعة. تتناثر في زواياها أشجار صفصاف عالية. تمتلئ الحديقة بالمجانين المنتشرين في كل مكان فيها. الشمس تمنح المكان شيئاً من الدفء في هذا الصباح ألشتائي. أنتبه إلى هيئتي. ملابس قديمة رثّة وشعر أشعث ولحية كثّة غير مُرتبة. أقارنها بهيئة الموجودين هنا. يخالجني إحساس بانتفاء الاغتراب. انتمائي للمكان بدأ من الشكل. خطواتي الأولى في هذا المكان لم تكن غريبة. أسير بدون أي نوازع متعلقة بعدم التآلف. واصلت السير بحيوية رغم إني كنت ألهث. لم يخضعوني لأي إجراءات طبية أو إدارية. لم يفعلوا أي شيء ولم يتخذوا أي إجراء سوى مصادرة كتابي. رفضت السماح لهم بذلك في البداية. دافعت عن كتابي بكل ما أوتيت من قوة. صرخت بوجوههم وحاولت أن أركل أحدهم ولكني ضعفت أمام كثرتهم فلم يتبق أمامي



سوى الصراخ. رحت أصرخ رغم علمي بأن ذلك ليس مجدياً. بعد أن صادروا الكتاب أخرجوني إلى الحديقة. ما زلت ألهث من أثر الصراخ والمقاومة الفاشلة. أتخطى بين المجانين الذين أصبحت واحداً منهم بقرار صادر من «ظهر الدين». بعضهم رمقني بنظرات فسرتها بطريقتي الخاصة. إنها علامة ترحيب. لم يكلمني أي واحد منهم. السكوت هو الحاكم...

وأنا أتجول على غير هدى لاحظت تجمهر بعض المجانين بالقرب من شجرة عالية تقع في الطرف البعيد من الحديقة. شعرت بالفضول فتوجهت نحوهم. عندما أصبحت قريباً منهم شاهدت رجلاً قصيراً يقف تحت الشجرة. كان يُلقي خطابا على الرجال المتجمهرين الذين ينصتون لما يقوله بتركيز واضح. وقفت عند آخر التجمع ورحت أستمع لما يقوله:

لابد من الجنة...

ولابد من جهنم...

أنتم الآن تقفون على أعتاب خطوة واحدة من الاثنتين..

خطوة واحدة فقط.. وبعدها سيكون المصير...

عيشوا اللحظة أيها المحشورون..

لحظة الترقب الكبرى...

طالما فكرتم بهذه اللحظة...

وها أنتم تعيشونها...

أعلم بما تفكرون به الآن..

أنتم مشغولون بفكرة التجاوز والعبور..



تفكِرون بتجاوز حرف الجيم...

ما بعد «الجيم» هو ما يشغل بالكم...

بعد قليل ستفتح الأبواب..

الأبواب التالية لتلك «الجيم»...

وسيكون لكل واحد منكم بابه الخاص..

أنا قسيمكم...

أنا الذي سيحدد الباب الخاص بكل واحد منكم..

المفاتيح بيدي..

مفتاح الجنة ومفتاح جهنم...

اليوم لا اعتراض ولا نقاش ولا استمهال...

ولا عودة إلى الوراء..

إنه اليوم الفصل..

صمت رهيب يسود المكان. العيون شاخصة. كلها متجهة نحو ذلك الشخص الذي يُلقي خطبته من تحت الشجرة. يبدو أن خطبته قد بدأت قبل مجيئي بفترة ليست بالقصيرة وأني قد استمعت إلى الجزء الأخير منها. إزاء عباراته الصارمة كانت عيوني تشترك مع بقية العيون. تعاين ما يجري بترقب قلق. زادت نسبة القلق عندما تحرك ذلك المجنون الذي يطلق على نفسه لقب «قسيم» من مكانه مقترباً من الصف الأول. بدأ الوجوم يعلو الوجوه. دنا من رجل يرتدي ثوباً أسود يقف في المقدمة. أشار بيده نحوه وقال بصوت صارم:

ـ أنت إلى الجنة...



انفرجت أسارير ذلك المجنون وأطلق ساقيه راكضاً نحو الجهة اليمنى ليقف على بعد بضعة أمتار وعيونه تنظر إلينا مترقباً من سيلتحق به إلى الجنة. بالمقابل كانت عيوننا تنظر إليه أيضاً. تعاينه وتغبطه على الجنة التي أرسله قسيم إليها. الجميع يحسده ويتمنى أن يكون اللاحق له بمن فيهم أنا. ازدادت حدّة القلق عندما صدرت الإشارة الثانية من قسيم إلى المحشور الثاني:

ـ أنت إلى جهنم...

جرّ ذلك المجنون أذيال خيبته وتوجه إلى جهة إلشمال. وقف مطأطئ الرأس دون أن ينظر إلينا. استمرت الإشارات والايعازات. أنت إلى الجنة. أنت إلى جهنم. تكونت مجموعتان. واحدة على جهة اليمين لأصحاب الجنة وأخرى على جهة الشمال لأصحاب جهنم. بقيت أنا متسمراً في نهاية الطابور أراقب أقراني وهم يتلقون مصيرهم واحدا تلو الآخر. عندما وصل الدور لي راح قسيم يحدّق بوجهي لعدّة لحظات ثم قال:

ـ أنت جديد..! متى أتيت إلى القيامة...؟

لم أتمكن من إجابته. كنت الأخير في طابور المحشورين. وقفت بين يديه بمشاعر متداخلة. رهبة. ترّقب. سخرية. تعجب. خوف. بقي الصمت سائداً لعدّة لحظات. كنت خلالها أنتظر مرحلة تحديد المصير. إلى الجنة أم إلى جهنم. الكلمة الفصل التي سينطق بها هذا الرجل الذي أعطى لنفسه صلاحية قسمة المحشورين بين الجنة وجهنم. انظر إلى عينيه وافترض الجهة التي سيرّحلني إليها. نحو اليمين أم نحو الشمال



في هذه اللحظة الاستثنائية تجسدت أمامي سيرة حياتي بكاملها. منذ الولادة حتى لحظة اتخاذ القرار الذي أوصلني إلى هذا المكان. وضعت تلك الحياة قبالة القرار الذي سيصدر بعد قليل. تلوح مني نظرة إلى أصحاب اليمين فأجدهم في شغل فاكهين. أحوّل بصري نحو أصحاب الشمال فأجدهم يتبادلون نظرات الذعر. كنت بحاجة إلى مزيد من التفكير ولكن قسيم لم يعطني فرصة تنظيم الفكرة المناسبة. فاجأني بما هو خارج التوقع حين قال:

ـ أنت مؤجل.. سننظر في أمرك يوم غد.....



V

يبدأ الليل وتبدأ معه نوبات البكاء. يهدأ الطفل لفترة زمنية قصيرة ثم يعاود الصراخ. طاهر وأبو نؤاس ما عادا يتشاجران كما في السابق. هما الوحيدان اللذان لم يتذمرا من وجود الطفل في هذا الفندق. هذا المساء جاء إلى غرفتنا مدير الفندق ليبلغنا بضرورة إيجاد حل لهذه المشكلة التي سببها الطفل اللقيط. قال بأن أغلب النزلاء قد هددوا بمغادرة الفندق في حالة بقاء هذا الطفل واستمرار إزعاجه لهم في الليل. طلب مني أن أقدّر موقفه وبيّن بأنه متعاطف مع هذا الطفل المسكين ولكنه في نفس الوقت لا يستطيع أن يقف بوجه النزلاء وهو في الواقع لا يلومهم على موقفهم. إنهم أناس متعبون. يعودون إلى الفندق منهكين. أغلبهم حمّالون وزبّالون وعمال بناء ومتسولون وبعضهم عاطلون عن العمل. هكذا تحدث عنهم...

قلت له بأن الجانب الإنساني يلزمهم بأن يتعاملوا مع الطفل بطريقة أخرى. الرحمة تقتضي أن يحسنوا إلى ذلك الطفل لا أن يطالبوا بالتخلي عنه. استمر حديثي معه طويلاً وقبل أن يغادر أخبرته بأن من حق الطفل أن يعبّر عن وجوده. من حقه أن يبكي ولا يحق لأحد أن يحرمه من ذلك..

يستعد طاهر للمغادرة. يرتدي معطفه الرث الطويل ثم يسألني قبل



أن يخرج إن كان هنالك أشياء يحتاجها الطفل. طلبت منهُ أن يجلب له المزيد من الحليب. في فترات هدوء الطفل المتقطعة كنت ألمح في عينيه العديد من الإشارات. مضمونها يصعب عليّ فأحاول أن أضع لها تأويلاً مناسباً. في بعض الأحيان أعتقد بأنه يطلب مني شيئاً ما أو يريد أن يخبرني بأمور كثيرة ولكن النطق لا يسعفه لذلك كان يلجأ إلى البكاء...

هذه الليلة كانت نظراته تحمل طابع التوسل الطفولي. أحمل نفسي على التفاعل معه لعلّي أصل إلى ما يدور في خلده. أحدثه عن أشياء عديدة. بعضها يتعلق به والبعض الآخر يتعلق بي...

تمضي ساعات منتصف الليل. أتكلم معه. أبو نؤاس ينصت إلى ما أقوله بحياد استثنائي. أكرر كلمة الطمأنينة كثيراً أثناء حديثي معه. أضمه إلى صدري وأقول:

ـ لا تقلق يا بني.. عليك أن لا تخاف من الغد.. أنا أفهم ما تريد قوله.. هذا اليوم كنت حاضراً معي عندما تمت قراءة قدري وقد سمعت كل ما يتعلق بذلك القدر.. أرجو أن لا تكون قد اقتنعت بما سمعته.. بعض ما قالته قارئة الأقدار يجب أن لا يؤخذ به.. الأقدار ليست متشابهة تماماً.. لكل واحد منا قدره الخاص.. الحياة هي منطقة التشابه التي تجمعنا.. نلتقي في تلك المنطقة لنتواصل وليكمل بعضنا الآخر.. لا عليك مما قالته قارئة الأقدار.. أنا لا أخاف من القدر.. أنا على علم تام بقدري.. أعرفه قبل أن تخبرني به تلك المرأة.. لقد أعلمني به معاون الطبيب في في الليلة التي أطلق سراحي فيها من مستشفى المجانين.. كذلك أنت أريدك أن تكون مثلي.. أن تكون امتداداً لي في عدم الاكتراث بالأقدار..



هنالك حلم لم يتحقق ويجب أن تتولى أنت تحقيقه.. اسمع يا صغيري..
ما دام الله معنا فيجب أن لا نأبه للآخرين...

تلوح من وجه الطفل إيماءة تشبه الابتسامة. انظر إلى أبي نؤاس فأجده يرفع رأسه إلى الأعلى محدقاً في الجدار. تلك الإيماءة الطفولية حفّزت بداخلي الذات النبوية فزاد اندفاعي للكلام. خاطبته قائلاً:

ـ أبتسم يا نبي المستقبل.. الله فكرة جميلة.. فكرة تدعو إلى الابتسام.. عليك أن تحافظ على هذه الابتسامة وأنت تقول للناس (أنا النبي اللقيط).. ابتسامتك ستضيف لصفة اللقيط شيئاً من القوة.. سيؤمنون بك حتماً حين يرونك مبتسماً وأنت تخبرهم بأنك نبيٌ لقيط.. سيدركون في تلك اللحظة أي نبي قد جاءهم.. سيدركون أن الله لا يُقصي أحداً وأن لا أحد خارج تفكير الرب.. معجزتك ستكون هذه الصفة فلا تتخل عنها.. ما لديك لم يتوفر عند من سبقك من الأنبياء.. بإعلانك عن هذه الصفة سيعلم العالم بأن الضحايا والمنبوذين والمهمشين يحق لهم ما يحق لغيرهم.. في اليوم الأول من إعلانك النبوة قل للناس بأن سيرتك قد انطلقت من أمام بيت الله...

خذهم إلى ذلك المكان واخبرهم بأن أمك قد قامت برميك أمام باب ذلك البيت في ليلة شديدة البرودة.. يجب أن يعلم الجميع بهذا الشيء. العالم بأكمله يجب أن يُدرك بأن الخطيئة تنجب أنبياء أيضاً.. ما يجب أن يعلمه الناس هو أنك ابنهم جميعاً.. ابن خطيئتهم.. لذلك اختارك الرب لتكون نبيهم...

إنه زمن الخطيئة.. خطيئة العالم بأكمله.. تلك التي أغفلها جميع



الأنبياء والمرسلين.. خطيئة الأديان التي رفضت إعطاءك اسم أب تنتمي إليه.. خطيئة معتقداتنا وقيمنا التي قامت بطردك من سجلات البشر المعترف بهم...

اسمعني جيداً يا بُني.. اسمعني واحفظ عني هذه الوصية.. هناك العديد من الأمور التي تخص النبوة يجب أن تطّلع عليها.. ما سأكلمك عنه يتعلق بالإرادات...

أنظر إلى وجه الطفل واستدرك.. عن ماذا يجب عليّ أن أتكلم.. ومع من سأتكلم.. أتكلم مع الطفل أم مع نفسي..؟

عندما أتكلم عن إرادة الله ماذا سأقول..؟

وحين أتكلم عن إرادة الإنسان بماذا سأخرج..؟

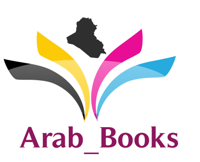
وعندما يلجؤني الواقع للتكلم عن إرادته ما هي النتائج التي سأتوصل إليها..؟

هذه التساؤلات تجلس قبالتي.. تناقشني من عدّة محاور.. الموضوع يتعلق بالفهم.. الصيغة التبادلية لفهم تلك الإرادات.. ان يفهم كل منّا ما يريده الآخر ليتم الوصول إلى صيغة توافقية تجمع الإرادات وتوجهها باتجاه واحد.. لنجرّب ونبدأ بالسؤال.. كيف ترانا يا الله..؟ وماذا تريد منّا..؟ إن قلنا لك بأننا نحبك هل ستكتفي بذلك أم أنك ستطالبنا بأمور أخرى..؟ ما رأيك أن يكون التواصل بيننا عن طريق العقل والضمير.. ألا يكفي أن نكون صادقين معك.. أن يكون التعامل بيننا بسيطاً.. بلا أديان وبلا عبادات وبلا فرائض وبلا مراسيم زائفة ومخادعة.. ما الذي جنيناه من الأديان..؟ لم نجنِ شيئاً سوى الخديعة.. نعم الخديعة.. آلاف



السنين والبشر يمارسون الخديعة.. هناك من يخدعك يا الله.. يخدعونك
عن طريق الصلاة.. إنها خديعة كبرى يا إلهي.. أنا متعجب.. كيف لك
ان تقبل بذلك.. لماذا تسمح باستمرار تلك الخديعة.. إنهم يتظاهرون
يحاولون إقناعك بأنهم يقومون بذلك عن رضا ورغبة ولكن تأكد بأنهم
مجبرون على ذلك.. الخوف هو ما يدفعهم لذلك.. لو كان الخيار بيدهم
لتركوا الصلاة ولكن الرهبة تجبرهم على المواظبة عليها.. يقبلون عليها
وهم يفكرون بطرق التعذيب الوحشية التي سيتعرضون لها في حال
تركهم لها.. لا أعتقد إن هذا يرضيك.. من غير المعقول أن تقبل بأن
يكون التواصل معك عن طريق الإكراه.. هل تقبل رحمتك أن يكون
الإنسان في حضرتك وقلبه مليء بالرعب.. أن يكون بين يديك وهو في
درجة الخوف القصوى.. أتكلم معك وكلّي ثقة بأنك تتفهم ما أطرحه..
علينا أن نعيد صياغة العلاقة التي تربط بيننا.. اسمح للبشر أن يعبّروا لك
عن موقفهم تجاهك.. إنهم يحبونك.. امنحهم الفرصة ليعبروا لك عن
حبهم بطريقتهم الخاصة.. أن يتواصلوا معك بأسلوب غير مفروض
في الصلاة يأتون إليك بأجسادهم فقط أما أرواحهم فتكون في مكان
آخر.. مكان بعيد عنك.. هم على علم بأن ما يقومون به خديعة.. ولكنهم
مضطرون إلى اللجوء إليها.. لهذا أطلب منك أن تتركهم يتواصلون معك
بدون مراسيم ولا طقوس ولا أعباء مرهقة.. دعهم يحلمون بك.. هذه
المرة اترك الإنسان يقرّر ويحدد الطريقة التي يتواصل بها معك ويتقرب
بها إليك.. امنحه فرصة الاختيار ليأتي إليك مطمئناً...

نبيك القادم سيقول للناس اقتربوا من الله.. تواصلوا معه جمالياً
كوّنوا صورته في مخيلتكم بالطريقة التي ترونها مناسبة.. هو لا يريد



منكم شيئاً سوى المحبة.. الالتزام الوحيد الذي سيكون بينكم وبينه هو الحب...

سنقيم علاقة بدون تكلّف.. علاقة بسيطة يكون البشر فيها محبيك وليس عبيدك.. الحب لا يتوافق مع العبودية.. العبودية طاردة للحب.. إطلاق كلمة حبيبي أفضل بكثير من كلمة عبدي.. لنقم بتجربة صغيرة.. لنضع اسمين ثم نختار أيهما أجمل: عبد الله / حبيب الله.. أليس واضحاً ان الاسم الثاني يخلق حالة من السمو بين الذات الإلهية والذات الإنسانية...

يصدر من الطفل صوت انتبه من خلاله إلى كوني قد ذهبت بعيداً عنه في حواري الداخلي. أعود إليه. أضع يدي على جبهته وأخاطبه قائلاً:

ـ يبدو إني قد أسهبت في الحديث يا صغيري.. هناك الكثير من الكلام والبوح المتكدس في ذاتي المحاصرة بالوقت.. كنت أتمنى أن تمنحني الحياة وقتاً أطول للإفضاء بكل ما لديّ.. أمانينا لا يحالفها الحظ دائماً.. هذا ما يجعلنا نلجأ للتحايل على الزمن.. هذا من جانبي أما أنت فأن لك شأناً آخر لابد أن يكون فريداً واستثنائياً.. اسمعني جيدا يا نبي المستقبل. فيما يخصك أنت فأن الأهمية تكمن في الخطوة الأولى.. خطوة الشروع.. الخطوة التي ستبدأ بها رحلتك النبوية.. أكلمك عن ذلك وفي داخلي أمنية لابد أن أصارحك بها. أمنيتي يا صغيري هي أن تقوم بإعلان النبوة من أمام الجامع الذي وجدتك مرمياً أمامه.



VI

أتنفس بصعوبة. وصلت إلى المكان الذي أجلس فيه كل ليلة بعد جهد وعناء. هذه الليلة بدا جسمي واهناً. ما أن استقر جسدي تحت الشجرة حتى تراءت أمامي العديد من الصور. عدّة وجوه ظهرت أمامي. أولها وجه معاون الطبيب الذي ساعدني على الهرب من مستشفى المجانين. كان حضوره طاغياً هذه الليلة. وأنا أتأمل بناية الجامع كنت أسترجع كلماته التي ألقاها على مسمعي في اللحظات الأخيرة السابقة لمغادرتي المستشفى. تلك الكلمات جعلت إدراكي مشوشاً خصوصاً بعد أن وصلت إلى الليلة الرابعة والتي أجلس فيها في هذا المكان متمسكاً بخيط أمل بدأ يذوي شيئاً فشيئاً. بين لحظة وأخرى أسمع صوت معاون الطبيب يناديني:

(ستموت بعد أسبوع.. ستموت بعد أسبوع)...

في داخلي يتحرك صوت مقابل ولكني لا أعلم إلى من أوجهه. صوت مكبوت يحمل بين جنبيه ردّة فعل تريد أن تعترض.. أن تقول بأن الوقت ما زال فيه متسع. في رصيدي يومان إضافيان. حتى اليوم السابع قد تكون لي حصة فيه أيضاً...

أرغب بالتصريح بذلك رغم إحساس الوهن الذي يعتريني. هذا



الضعف الجسدي قد يكون من مؤشرات الرحيل. رسالة أولى للتذكير ولفت النظر. ولكن هذا ليس مبررا للتخلي عن القضية. لن أتخلى عن هذا المكان. شجرة الله ستكون الشاهد على ما بذلته في سبيل تنفيذ الشرط الذي وضعه الرب...

جسمي ضعيف هذه الليلة. اشعر بالإعياء ولكن هذا لا يعني بأني سأتخلى عن رغبتي بأن أكون نبياً. أن لم أحقق هدفي هذه الليلة فسأعود في الليلتين القادمتين وأنتظر مجيء العمامة المنشودة...

أجلس في مكاني الأثير. وحيداً ولكن وحدتي محاطة بأطياف غير مرغوب بها. معي نبوءة قارئة الأقدار. كلمات تلك النبوءة تعاضد كلمات معاون الطبيب وتقف إلى جانبها مُعززة لفكرة الرحيل. كلاهما يتحدث عن موعد النهاية. في كافة الأحوال ذلك لن يهبط معنوياتي ولا يشكل لي أمراً ذا أهمية ما دمت مستعداً له. صحيح إني سأموت دون أن أحصل على مرتبة النبي ولكني سأخلّف ورائي نبياً من نوع آخر. يقيني يُخبرني بأنه الأصلح للقيام بتلك المهمة. النبي الذي وضعت فيه آمالي سيبدأ رحلته من هنا. من هذا المكان بالتحديد. من عتبة هذا الجامع. هذا الجامع سيشهد أعظم إعلان في تاريخ البشرية. كل هذا سيحدث في زمن لاحق. أنتِ أيها الشجرة ستكونين شاهدة الحدث. أرجو منك أن تتذكريني في ذلك اليوم. قولي للعالم بأن هنالك شخصاً ما حدّثني عن هذا في أحد الأيام...

تحدثي عن قصتي الغريبة أيتها الشجرة. قدرنا أن نكون مجرد حكايات تتداولها الأيام. لا شك أن حظوظنا غير متعادلة في هذا السياق.



كلنا نحمل نفس الهم. جميعنا يبحث عن راوٍ يتولى سرد حكايته. من لم يحالفه الحظ في الحصول على راو لحكايته سيرمى في جب النسيان. بالنسبة لي فأني أعوّل عليك يا شجرة الله. في ذلك الزمن ان لم تجدي من يستمع إليها فقوليها للريح. قوليها للشتاء. قوليها للبرد. لا أريد أن أكون شيئاً عابراً في هذا العالم. سأترك كل ما يتعلق بي لديك. فقط ذاتي النبوية سأودعها لدى ذلك الطفل الذي سيقف هنا ذات يوم ويصرخ: أنا النبي اللقيط...

أنا أرتجف بشدة ولكن ارتجافي هذه الليلة يختلف عن الليالي السابقة. أرتجف بسبب الحمى وليس بسبب البرد. أسند ظهري إلى الشجرة وأواري يديّ تحت معطفي الذي ما عاد قادراً على صد تيارات الهواء الباردة. ما زلت أجهل توقيتات هذه المدينة. إحساسي بالوقت أصبح معطلاً. لا أدرك الوقت بالمضبوط. أعتمد على الحدس فقط. قد تكون الساعة الآن الرابعة فجراً. أو الخامسة. او السادسة فأنا لا أعلم كم كانت الساعة عندما غادرت الفندق. ليس لدي وقت ثابت للخروج. خروجي متوقف على اللحظة التي يهدأ فيها الطفل وينام أو عندما يطلق دكتور عذاب صرخته. في الغالب يكون طاهر وأبو نؤاس قد استسلما لسلطة النوم أيضاً. أتطلع إلى غرف الفندق فأدرك أن كل من فيه يمارس السبات. أنا الوحيد الشاذ عن القاعدة. الوحيد المختلف بسبب كوني محروما من الحياة النهارية المُعتادة. أخرج في الليل لأعوّض خساراتي. بالتحديد لأعوّض نهاراتي الضائعة. تلك النهارات التي أُجبرت على عدم الخروج فيها إلى الشارع خوفاً من «ظهر الدين» وجماعته.

في هذا الليل الموحش الذي أصبح صديقاً لي أبحث عن نهاراتي



المفقودة. الأنبياء يسيرون في الظلام. من يصدّق ذلك..! رجال «ظهر الدين» الذين يملكون النهار ويحكمونه يلزمون العقل بتصديق ذلك. هم الآن في أماكنهم الحصينة المطمئنة يمارسون الشخير وأنا هنا أجلس تحت شجرة الله أنتظر حلمي الهارب...

درجة حرارتي بدأت ترتفع. بدأت أفقد التركيز. الجامع الذي أمامي بدأت صورته تأخذ طابعاً هلامياً. أرى أشياء لا أعرف مدى واقعيتها. لم أتمكن من ضبط حركة وعيي. قمت بفرك عيني لأكثر من مرّة. قدري أن أكون نبيا مُرسلا في موسم الشتاء.. أنا نبي !... هل أنا نبي...؟

هل تحول الأمر إلى مجرد استفهام بنكهة التمنّي. ذلك الحلم العظيم هل سيتحول إلى مجرد حكاية ترويها هذه الشجرة التي أجلس تحتها. أرفع عيني فأجد الشجرة ساكنة لا حراك فيها. أغصانها صامدة أمام الريح. ربما هي تنصت إلى كلامي الآن. تحاول الاحتفاظ بتركيزها قدر الإمكان لكي تتمكن من الإلمام بأكبر قدر مما يصدر عني من كلام لتستثمره في المستقبل وهي تحدّث البشرية عني..

الصورة مشوشة. العالم مُبهم ومضبّب. ما الذي أفعله الآن. يبدو أن مفعول الحقنة قد بدأ بالسريان في جسدي. علامات النهاية بدأت تظهر. لقد ابتدأ العدّ التنازلي أيها الرب...

في هذه اللحظة. وأنا في الدرجة القصوى من الضعف لابد من أمنية أخيرة. أمنية صغيرة أضعها بين يدي ربي الذي أرادني نبياً ولكني لم أنجح في اجتياز الامتحان الذي اشترطه لقبول النبوة. طلبي يتعلق بمراسيم النهاية. نهايتي أنا الذي أحمل بداخلي شيئا نسبياً من الأنبياء.



ربما أكون نصف نبي. أو نبيا محتملا. أو نبيا فاشلا. في نهاية الأمر أنا شخص خاض التجربة. أعتقد أن ذلك كاف...

صوتي المتحشرج سيبدو مختلفاً هذه الليلة عن الصوت الذي إلفهُ الرب. في تلك الليلة التي زارني فيها كنت أمتلك صوتاً صافياً نقياً. لا تتعجب أيها الرب من هذا الصوت الخشن المزعج الذي يحدثك في هذه اللحظة. أعلم بأن نبرة صوتي مزعجة لذلك سأتحدث باختصار وأؤجل الكثير من التفاصيل إلى لقائنا الآخر. لقائنا المباشر الذي تم تحديده بواسطة حقنة أتباع «ظهر الدين»...

عندما نلتقي سأخبرك بكل ما فعله بي أولئك البشر. لقد انتقموا مني لكوني أردت أن أكون نبيك. سرقوا نهاراتي ورموني في قاع هذا الليل المدلهم. سأشكوهم إليك عندما نلتقي ولكني أريد منك الآن أن تنظر في طلبي هذا. الحمّى التي تسري في جسدي ولدّت لديّ يقيناً نهائياً بأن العد التنازلي قد بدأ وإن النهاية باتت حتمية وأني سأودع الحياة بعد يومين. طلبي بسيط جداً يا إلهي. كل ما أريده منك هو أن يكون قبض روحي في هذا المكان بالذات. أريد أن تكون وفاتي في فجر اليوم السابع. أن اسلّم روحي لملك الموت وأنا في العراء وفي مواجهة بيتك. أن أموت هنا تحت هذه الشجرة...

بعد أن رفعت هذا الطلب الخجول إلى الله حاولت أن أعيد لحواسي شيئاً من القوة. يجب أن لا أكون ضعيفاً. وأنا أحاول ترتيب أفكاري بذلك الاتجاه انتبهت إلى وجود حركة بشرية في المكان. فركت عيني مرة أخرى لأتأكد مما أراه. اصوّب نظراتي بشيء من التركيز. أراق



حركة ذلك الكائن وهو يقترب شيئاً فشيئاً. المسافة الفاصلة بيننا تجعل ملامحه غير واضحة. الشوارع مضاءة ولكن الصراع محتدم بين ما تبثه أعمدة الكهرباء من إنارة وبين الظلام الصارم. أتابع الخطوات البطيئة التي بدا تأثير الجو البارد عليها واضحاً. كلما ازداد اقترابه زاد انشدادي إليه أكثر. في الواقع كان انشدادي إلى نقطة محددة في جسده. نظراتي تطمح أن تلتقط شيئاً ما على رأسه. اللاشعور يقود بصري إلى ذلك. بقيت أترصد خطواته وفي داخلي أمل ما. أمل يخبرني بإمكانية وجود عمامة على رأس الشخص القادم. تبدد ذلك الأمل حين رأيته يقترب من باب الجامع. أصبحت صورته واضحة الآن. ما أطمح إليه لم يكن موجوداً على رأسه. فتح باب الجامع ودخل وترك الباب مفتوحاً وراءه...

منظر باب الجامع المفتوح أغراني بالتحرك. حاولت النهوض ولكن جسمي لم يقو على ذلك. الوهن يسيطر على جميع أعضائي. لم تمض دقائق حتى انطلق صوت من داخل الجامع...

في ظل السكون المطلق أنا وشجرة الله ننصت إلى ذلك الصوت ونحن نرتعش. مضمون النداء الصادر من عمق بيت الله لم يتمكن من أن يمنحنا أنا والشجرة شيئاً من الدفء. على العكس هو يدعو الناس إلى ترك الدفء والطمأنينة والنوم. يخبرهم بضرورة الالتحاق بالواجب. الصوت يملأ كل أرجاء المدينة. باب الجامع ما زال مفتوحاً ينتظر المُلبّين للنداء الذي يردد:

ـ الله أكبر... اللهُ أكبر

من هذه الكلمات علمت بأن الذي دخل إلى الجامع ليس الشخص



الذي أنتظرهُ بل هو «المؤذّن». ذلك الشخص الذي سخّر صوته لدعوة الناس إلى المثول بين يدّي الرب. مهمته مزدوجة في هذا الوقت. يفتح باب بيت الله ثم يدعو الناس إلى الدخول منهُ ليحضوا بفرصة مقابلة الرب.

يستمر النداء. عباراته تشجّع على ضرورة الإسراع بالالتحاق بالصلاة. أنظر إلى الباب المشرعة التي لم يلجها أحد لحد الآن. لا حامل العمامة الذي أنتظره ولا أي أحد غيره. كلمات المؤذن تصلني باردة. أبرد من نسمات الهواء التي تشاكس وجهي. أشعر بانكساره وهو يقول:

ـ قد قامت الصلاة... قد قامت الصلاة...

أنا متأكد بأنه يلفظ هذه الكلمات الآن وعيناه متجهتان صوب باب الجامع ترقبان القادم المُلّبي للنداء. في نفس الوقت كنت أتساءل عن احتمالية أن يكون صاحب العمامة يغط في نومه غير آبه بهذا الصوت الذي ينادي: قد قامت الصلاة.

بعد انقطاع الصوت لم أجد نفسي إلا وأنا أجتاز عتبة الباب. توقفت لبرهة من الزمن عند الباحة الخارجية للجامع ثم أكملت مسيري إلى داخل البناية الواسعة. عند مدخل قاعة الجامع رأيت المؤذن قائماً يصلي لوحده. لم أتردد في الدخول. كنت مندفعاً لذلك بعفوية لا أجد تبريراً لها. لا أعلم ما الذي دفعني لاقتحام الجامع. شعوري بالوهن ما زال قائماً ولكن دفء المكان منحني قليلاً من التماسك. الإضاءة الداخلية للجامع تركت أثراً سلبياً على عيني التي اعتادت على الظلام. أشعر



أن بصري أصبح ضعيفاً جداً. نقلت خطواتي وجلست في أحد أركان القاعة ورحت أنظر إلى محتويات الجامع. بهرني منظر المفروشات وقطع الأثاث المبالغ فيه. لم يكن المؤذن بعيداً عني. كنت أسمع ما يصدر منه من كلام أثناء الصلاة. أراقب حركاته وهو يسجد ثم يقوم. انحناءاته أدهشتني. جعلتني أفكر بحالة الإذلال المبالغ فيها التي يمر بها وهو يؤدي هذه الحركات.

هل من الضروري أن يرى الرب مخلوقاته ذليلة. ما الداعي إلى صياغة العلاقة بين الرب ومخلوقاته بهذه الطريقة. مع كل حركة يقوم بها المؤذن كان هناك تساؤل. استمرت التساؤلات حتى نهاية الصلاة الانفرادية الجارية في هذا الجامع الفخم...

رأيت حجم المفاجأة التي تولّدت عند المؤذن حين انتبه لوجودي جالساً بالقرب منه. دهشته توحي بأن هذا الأمر يحدث معه للمرة الأولى. مرّت أكثر من دقيقة وهو يرمقني بنظراته الحائرة. كنت أبادله النظرات الموحية باستعدادي لإزالة الحيرة التي انتابته. عندما اقترب مني راح ذلك الاستعداد يأخذ منحى آخر. لم يكلف نفسه عناء البحث عن أي مقدمات تمهيدية للحوار وإنما بادرني بالسؤال:

ـ هل صلّيت...؟

بدون أي تردد أجبته: لا

ـ إذن ماذا تفعل هنا..؟

ـ الجو بارد في الخارج ودخلت إلى هنا طلباً للدفء..



ـ ولكن هذا المكان مخصص للعبادة وهو ليس فندقاً..

ـ أعلم ذلك ولكني لا أصلي..

ـ لماذا لا تصلي... ألا تخاف الله...!

ـ الله عادل أم ظالم..؟

ـ الله عادل...

ـ ما دام عادلاً فأنا لا أخاف منه.. أنا أخاف من الظالم فقط...

ـ ما دمت لا تصلي فعليك مغادرة الجامع..

ـ أليس الجامع بيت الله...؟

ـ نعم...

ـ إذن أنا جالس في بيت الله ولا يحق لك طردي.. هو ليس بيتك لكي تطلب مني المغادرة...

ـ هو ليس بيتك أيضاً.. هذا مكان للعبادة ولا يجوز لك النوم فيه.. هيا قم واذهب إلى بيتك...

ـ ليس لدي بيت...

يصمت المؤذن. أضيف أنا:

ـ إذا كان مكاناً للعبادة كما تقول... فأين هم العبّاد.. أين هم المصلون..؟ لقد بح صوتك وأنت تنادي (حي على الصلاة) ورغم ذلك لم يحضر أحد.. ألم تسأل نفسك هذا السؤال.. ألم تتناقش مع ذاتك عن جدوى الحضور في هذا الوقت المبكر وإطلاق النداءات ما دام لا يوجد مجيب لها.. لماذا تتعب نفسك.. لمَ لا تبقى في بيتك..؟



ـ ما شأنك أنت بذلك.. لماذا تتدخل في أمور لا تعنيك.. والآن قم وغادر المكان أريد أن أغلق الجامع...

ـ الطقس بارد في الخارج.. من حقي أن أبقى هنا في بيت الله..

ـ هل أنت مجنون..؟

ـ لماذا تنعتني بالجنون.. من الذي أعطاك الحق بأن توجه الإهانة إلى الآخرين.. أنا في بيت الله ولا يحق لك أن تتكلم معي بهذه الطريقة..

ـ اسمع.. لقد تعرض الجامع لأكثر من مرة إلى السرقة.. إذا لم تخرج سأتصل بالشرطة وأتهمك بالسرقة...

أصبت بالرعب عندما سمعت جملته الأخيرة. قفزت أمامي صورة مركبة لرجال «ظهر الدين». تذكرت الصدمات الكهربائية ووجوه الأطباء الصارمة. لم يستمر تفكيري في الأمر طويلاً. تركته ينظر إلى خطواتي الهاربة بزهو المنتصر ولكني قبل أن أخرج من باب الجامع أدرت وجهي نحوهُ وصرخت:

ـ لا تتعب نفسك.. لن تجد من يُلّبي نداءك..أنهم نائمون.



ربما،

لا أعلم كيف يفكر الأموات

هل ينتظرون قدوم المنقذ

هل يمارسون الانتظار أيضاً..




Arab_Books

I

ابتعد أيها الملاك...

ابتعد......

يمد يدهُ ويقول: تعال معي

ارتجف. أخفي يديّ خلف ظهري تعبيراً عن الرفض.

قلت لك ابتعد أيها الملاك..

لا أريد أن أتعامل معك...

لا أريد...

يقترب مني. يده أصبحت قريبة جداً من رقبتي. جسمي بدأ ينز عرقاً. شعوري بالرفض يدفعني إلى المقاومة. نبرة صوتي تتصاعد وأنا أواصل المقاومة. لا أحد غيرنا في المكان. أنا وهو فقط. يكرر طلبه:

تعال معي.....

أكرر أنا رفضي بصورة أشد هذه المرّة:

اذهب أيها الملاك..

ابتعد عني...

لقد قلت لله بأني لست بحاجة إلى جبرائيل...



لا أريد أن أتراجع عما قلته للرب...

أبهرتني صورته. ملامحه بعيدة جداً عن المواصفات المتداولة بين أعين البشر. كان بهيئة بياض كامل. كلما زادت مقاومتي له يزداد اقترابه مني. كان يكرر عبارة تعال معي وأنا اكرر الرفض. يضع يده على رقبتي ولكني لا أتحسسها. كل ما شعرت به إن تلك اليد قد ارتفعت وإنني قد ارتفعت معها...

أين أنا.. كيف وصلت إلى هنا..؟

الرهبة المباغتة التي دخلت فيها جعلتني أفشل في ضبط لحظة الانتقال الخاطفة التي وجدت نفسي بعدها في هذا المكان المرعب...

لا أمتلك قدرة كافية للتوصيف. المكان لا حدود له ولا ملامح. لا توجد تسمية مناسبة بإمكاني وضعها قبالة المعنى الخاص به. جدران ملطخة بالدماء. أعضاء بشرية ملقاة على الأرض. حُفر عميقة تخرج منها أصوات لكائنات بشرية تتعذب. أنا في مديرية الأمن. ما أراه وأسمعه يوحي بذلك...

أصوات التعذيب تقطع الشك باليقين. تداخل تلك الأصوات يجعلني أفشل في تحديد مصدرها ولكنها قريبة جداً من مسمعي. الأبواب المتقابلة كثيرة وأنا أقف في الممر الفاصل بينها بذهولي وخوفي وإرادتي المشلولة...

الإنهيار شمل كل شيء فيّ وأنا أرى حيّات عملاقة بطول النخيل وعقارب بحجم البغال أفواهها مفتوحة. كنت ضيئلاً أمام أحجامها



الضخمة. كاد قلبي أن يتوقف وأنا أشاهدها تنساب إلى داخل الغرف التي تنطلق منها أصوات البشر المُعذبين...

لم أتمكن من مواجهة ما رأته عيناي. لم أمتلك القدرة على التفكير بأي شيء سوى الهروب. أدرت وجهي صوب الباب الذي تم إدخالي منه. ازددت رعباً عندما اكتشفت اختفاء ذلك الباب. لقد تلاشى المنفذ الذي فكرت بالهروب من خلاله. حتى اليد التي ساقتني إلى هذا المكان لم يعد لها وجود. اختفت في لحظة لم أدركها...

يأسي جعلني أمشي لا إرادياً تحت تأثير الخوف. أجتاز أكثر من باب في سبيل التخلص من هول المنظر الذي يكشف ما يجري وراء تلك الأبواب المفتوحة. حاولت أن أتمالك أعصابي ولكني لم أتمكن من كتم الصرخة المعبرة عن مدى الذعر المسيطر علي: أين أنا.....؟

أطلقت تلك الصرخة على الرغم من خشيتي من إنها قد تثير انتباه تلك الكائنات المسيطرة على المكان لوجودي...

أمامي كائنان غليظان هائلان رأساهما في السماء وأرجلهما تحت تخوم الأرض السابعة. في يد كل واحد منهما عمود من حديد من النار لو وضعت على جبال الدنيا لتدكدكت واحترقت. بين أيديهم شخص يتلوى ويصرخ بطريقة أقرب للعواء. كان صراخه ناتجاً من شدة تعذيبهما له. يحققان معه ويطلبان منه الاعتراف وهو يواصل العواء المر. بعوائه التوسلي يحاول أن يقول لهما شيئا ولكن لسانه مُقيّد. يرد على أسئلة ضابطي التحقيق بإجابات غير مفهومة وهما يحاولان انتزاع اعتراف منه بأسئلتهما: من ربك..؟ من نبيك..؟ من...؟ من.....؟



يستمر ذلك العواء غير المجدي. يفقد ضابطا التحقيق صبرهما فيضربانه ضربة ينذعر منها كل شيء في الوجود بعد أن صرخا بوجهه: لا دريت ولا هديت...

المشهد التحقيقي البشع جرّدني من كل قواي فلم أجد أحدا أخاطبه سوى الرب فرحت أناجيه بداخلي: يا الله ما الذي يجري هنا.. هل ترى هذا التعذيب.. هل أنت راض عن ذلك...؟ تدخل أرجوك أيها الرب.. تدخل لإيقاف هذا التوحش.. ما يجري هنا مخالف لمبادئ حقوق الإنسان...

هذه المناشدة الموجهة للرب لم تمنع ضابطي التحقيق من الاستمرار في استخدام القسوة المفرطة. بل على العكس رأيتهما يقومان بسحب الشخص الذي يحققان معه ويفتحان باباً يؤدي إلى حفرة أضرم فيها النار. انزلاه في تلك الحفرة بدم بارد. وهما يرددان: فنزل من حميم... من حميم... من حميم..

طاقتي لم تعد كافية لاستيعاب هذا المقدار من صور البطش والقسوة والأساليب الوحشية في التحقيق. أردت التخلص من هذا المأزق الذي وقعت فيه: أطلقت لساقي الريح. بدأت أركض. الممرات طويلة ولا نهاية لها. أصوات الصراخ لا تتوقف. كانت تلاحقني. تواجهني من جميع الجهات. تصل إليّ بعوائها المؤلم وكأنها تطلب مني المساعدة...

أواصل الهرولة في الممرات المعتمة. الأبواب المفتوحة على جانبي الممر جميعها تؤدي إلى العذاب وأنا وحدي أمارس الصراخ الأعزل. السواد يغلف المكان ويحاصر عينيّ. ارتطمت قدمي بشيء صلد لا



أعرف ما هو فسقطت على وجهي. صادف أن كان سقوطي بالقرب من باب كبير مفتوح على قاعة واسعة تخرج منها روائح نتنة. كدت أن أتقيأ عندما رأيت أكوام اللحم المكدّسة داخل القاعة. لحم فاسد تسيل منه سوائل لزجة تشبه القيح...

انهارت قواي عندما شاهدت مجموعة من الموقوفين يتم إجبارهم على الأكل من ذلك اللحم. أراقب ذلك وأنا لا أزال ملقيا على الأرض. أتحسس رطوبة المكان. أحاول النهوض ولكني لا أتمكن. لم تعد لي طاقة على المشي أو الهرولة. بدأت أزحف...

أتحسس اشياء بدأت تلتصق بجسدي. لزوجة المكان انتقلت إلى جسمي. جرّبت النهوض مرة أخرى للتخلص من حالة التقزز ولكني فشلت. اضطررت إلى مواصلة الزحف بدون تعيين الجهة التي يمكن أن تستجيب لاستغاثتي.

ما زال صوتي المكبوت يتشظى في الفراغ باحثاً عن المُخلّص. بعد أن أعياه البحث بدأ يضعف شيئاً فشيئاً أمام هول ما يحدث أمامي...

أواصل تقديم طلبات الاستغاثة إلى الله. أدعوه أن يُنهي هذا الفصل الدموي. أعاتبه بصوت أقرب إلى النحيب. أقول له: كيف ترضى بذلك يا ربي.. كيف تسمح بأن يتم انتهاك حقوق الإنسان بهذه الطريقة المخزية.. أجبني يا ربي.. هل أنت راض عن هذا...؟

كل ما يصدر عني كان ممتزجاً بالخوف والقلق والرغبة بالخلاص. استجمعت قواي ومشيت بضع خطوات. خطفت من أمامي أفعى طويلة فمها مفتوح. اجتازتني ودخلت إلى غرفة يأتي منها صوت عويل مختلف.



كان صوتا متقطعاً. اقتربت من الباب لأتبين ما يجري في الداخل فرأيت رؤوساً مُعلقة يتم تهشيمها بصخور صلدة وعملاقة. سمعت أحدهم يقوم بتأنيب أصحاب تلك الرؤوس ويصرخ بهم: هذا جزاء من ينام عن صلاة العشاء...

هالني المنظر. بشرٌ يعذبون بطرق لا يمكن لأعتى سفاحي الكون أن يفكروا بها. نار لاهبة تدخل من الأفواه وتخرج من الأدبار. كادت تلك النار الخارجة من الدبر أن تلفح وجهي لولا إني تراجعت إلى الوراء...

ضغطت على نفسي وأجبرت قدميّ على الهرولة. ليس لدي خيارات أخرى سوى مكافحة الخوف بالركض والصراخ. ألهث في فضاء لا ينتهي. لا شيء يحيط بي سوى العذاب والألم والعواء. الإنسان يعوي هنا تحت أيادٍ لا تعرف الرحمة...

أوصلني ذعري إلى شعبة أخرى من شعب هذه المديرية الضاجة بالأصوات المتضادة. أصوات متقابلة لا توجد بينها منطقة تفاهم. وصلت إليها بخوفي المتفاقم. كل شيء هنا يجري وفق ضوابط لا يمكن للعقل الاقتراب منها أو ضبطها وتحليلها....

أقف وسط زنزانة كبيرة فيها المئات من النساء. نبرة الصراخ الأنثوي هي ما جعل هذه الشعبة مختلفة. كان هناك تفنن في طرق التعذيب. امرأة مُعلقة من شعرها إلى الأعلى وجسمها يتدلى ودماغ رأسها يغلي. بالقرب منها امرأة أخرى مُعلقة من لسانها والحميم يصب في حلقها وإلى جانبها امرأة مُعلقة بثدييها وأخرى تأكل لحم جسدها وهي جالسة على نار مضرمة. حولت بصري إلى جهة أخرى فرأيت امرأة قد شُدت رجلاها



إلى يديها وقد سلطت عليها الحيات والعقارب وعلى مسافة منها وضع تابوت من نار فيه امرأة عمياء يخرج دماغ رأسها من منخرها...

مشاهد التعذيب تحيط بي من كل الجهات. عيون النساء تنظر إليّ. جميعهن يطلبن مني أن أتخذ موقفا مما أراه. بات خوفي ممزوجاً بالعجز. ماذا سيضيف صوتي لهذه الأصوات التي تطالب بقليل من الرحمة ولا أحد يستمع إليها. المشاهد المروعة جعلتني كالمصعوق. عيناي تكادان تقعان من محجريهما. قدراتي التحمليّة ما عادت توازي هول ما يحدث أمامي. امرأة مُعلقة برجليها في تنور من نار وأخرى يُحرق وجهها وهي تأكل أمعاءها وأخرى رأسها رأس خنزير وبدنها بدن حمار وامرأة أخرى على هيئة الكلب والنار تدخل في دبرها وتخرج من فمها وهناك من يضرب رأسها بعمود من حديد. لم أستطع الاقتراب من أولئك الذين يقومون بالتعذيب. أشكالهم المرعبة منعتني من ذلك. كل ما كنت أملكه في تلك اللحظة هو الصراخ. صوتي يضيع في زحمة الأصوات المُعذبة. يندمج معها ويؤول إلى جهة مجهولة. الصراخ هو الشيء الوحيد المسموح به في هذا المكان. لم أعد قادراً على تحديد مركزي والنقطة التي أقف عندها. شعرت بأن وجودي قد تلاشى. ذابت ذاتي واندمجت مع الذوات المُعذبة. ما بقي مني سوى صوت هزيل يحاول التشبث بأي شيء يوصله للسماء. مجرد صوت أنهكه اليأس وخيبة الأمل. التعذيب يتواصل وصراخي يتواصل:

يجب إيقاف ما يحصل هنا..

يا الله...

أين أنت الآن...؟



لماذا كل هذا التوحش...؟

أين حقوق الإنسان....؟

أين العدالة...؟



II

قام طاهر بوضع بطّانية أخرى على جسمي. ما زلت أرتجف. تلّمس جبهتي وقال:

ـ حرارتك مرتفعة...

أنظر إلى مكان الطفل الخالي. قال لي طاهر شيئا بخصوص الطفل. أخبرني بأن قارئة الأقدار قد أخذت الطفل إلى غرفتها. فهمت ما قاله بصعوبة. بعد ذلك راح يضع على جبهتي وأطرافي كمّادات في سبيل خفض درجة حرارتي. كان جسمي يختض تحت الأغطية التي وضعت فوقي. تدريجيا كنت أفقد التركيز حتى إني صرت ألمح شبحين يتخاطفان من أمامي. أنا في عالم آخر. هنالك أصوات تصل إلى مسامعي ولكني لا أفهم منها شيئاً. لأول مرة أشعر أن حواسي مُعطلَة. الأشياء تتحرك من حولي ولكني لا أعي مغزى حركتها. أتكلم معهما. أطلب منهما أن يقتربا مني. لا أريد أن أكون وحيدا في هذه الحالة. يقتربان مني ويبادلاني الكلام ولكني لا أفهم ما يقولانه. أشكالهم غير واضحة وكلامهم غير واضح. أحسست بأنني انتقلت إلى عالم آخر. عالم خالٍ من الشعور والإدراك. عالم يسوده العجز. لا أدري إن كانت كلماتي مفهومة لديهم أم لا. هاجس الرحيل بدا قاسياً جداً. أنا خاضع له الآن. الإحساس



الأولي للفناء ابتدأ بالعجز عن التواصل مع المحيط. هل تم تغيير الموعد. وفقاً للموعد ما زال هناك متسع من الوقت. حسب ما أخبرني به معاون الطبيب فأن الموعد سيحل بعد يوم غد. أنا أطالب بما تبقى لي من حصتي في الحياة...

أطلق مطالبي بصوت عال. لا أحد يسمع تلك المطالب ولا أحد يتفاعل معها. لا أعلم كم من الوقت مضى وأنا على هذه الحالة. كما لا علم لي بمقدار ما صدر عني من كلام وفحوى ما تكلمت به. كل ما أدركته بعد ذلك أنني كنت أهذي تحت تأثير الحُمّى. هذا ما أخبرني به طاهر. بعد أن أعاد عليّ بعض ما تفوهت به. بعدها راح يسألني عن أمور كثيرة سمعها مني أثناء هذياني. مديرية الأمن. الملاك. جبرائيل. حقوق الإنسان. لا هديت ولا دريت..

قال لي بأني كنت أتحدث عن هذه الأمور أثناء نوبة الحُمّى التي كنت تحت تأثيرها. كان الوقت قريباً من منتصف النهار. أبو نؤاس غادرنا إلى مكانه المعتاد الذي يجلس عنده عندما تحل الصلاة. طلبت من طاهر أن يذهب إلى قارئة الأقدار لكي يحضر الطفل. عندما عاد به كان يحمل معه كيسا كبيراً. قال:

ـ لقد اشترت له حليباً وبعض الملابس..

أردت أن أجلس لكي أتمكن من وضع الطفل في حجري ولكن جسمي الضعيف لم يقو على ذلك. طلبت من طاهر أن يضعه إلى جنبي على السرير. ما أن نظرت إليه حتى شعرت بسريان الحمى من جديد في جسدي. ملامحه البريئة تبدو مختلفة هذا اليوم. كانت تلوح منها إشارات غريبة لم أتمكن من إدراك مغزاها. قال طاهر بعد أن استقر في سريره:



ـ قارئة الأقدار متعلقة جداً بهذا الطفل.. رأيت ملامح الحزن على وجهها حين قمت بأخذه منها..

قلت له بصوت ضعيف:

ـ اسمع طاهر.. هناك أمر مهم أريد أن أفاتحك به...

ـ ما الذي تريد قوله...؟

ـ خلال اليوم اليومين المقبلين سيحدث أمر ما.. بعده قد أكون غير موجود.. لذلك أوصيك أن تعطي هذا الطفل إلى قارئة الأقدار...

ـ ما الذي سيحدث... لقد أقلقتني...

ـ لا أستطيع أن اكشف لك كل التفاصيل.. كل ما أريده منك هو ان تُنَفذ هذه الوصية..

ـ هل تنوي الرحيل إلى مكان آخر ولا تستطيع أخذ الطفل معك...؟

ـ الأمر لا يتعلق بالنوايا.. هنالك أشياء خارجة عن الإرادة.. أمور يفرضها القدر علينا وليس لنا خيار سوى تقبلها والانصياع لها..

ـ لقد زدت الأمر تعقيداً وإبهاماً بهذه الإجابة..

ـ لا تزعج نفسك بالبحث عن التفاصيل.. في حالة عدم وجودي أريدك أن تتولى أمر هذا الطفل.. أرجو أن لا تتخلى عنه...

يقترب طاهر من سريري ويرفع الطفل ثم يقول:

ـ لن أتخلى عنه...

بعد أن قال ذلك قام بوضع يده على جبهتي وقال:

ـ لقد انخفضت درجة حرارتك.. أتدري.. كنت في وضع يرثى له..



كنت ترتجف كالسعفة في مهب الريح.. لقد شعرت بالقلق عليك.. اعتقدت بأنك ستموت...

ـ كلنا سنموت...

ـ هل الموت فكرة مخيفة..؟

ـ ماذا..؟

ـ أقصد هل تخاف من الموت..؟

ـ لم أمت سابقاً لذلك لا أمتلك فكرة كافية عن الموت..

ـ هل هذا تهرّب من الإجابة..؟

ـ فكرتنا عن الموت واحدة.. شعوري تجاهه يطابق ما لديك من شعور.. كلانا لم يخض التجربة.. ما نحملهُ عن الموت مجرد فكرة افتراضية نحن من يُسبغ عليها صفة الخوف..

ـ أيعقل أن تكون فكرتنا عن الموت غير صحيحة..؟

ـ ما دام شيئاً محتملاً.. ممكن الحدوث في أي لحظة وإن احتماليته تشمل الجميع فيمكنني أن أصفه بالعدم العادل..

ابتسم طاهر لهذه العبارة وبعد أن أعاد الطفل إلى مكانه قال:

ـ حسناً بما إنك لم تمت وبما إننا لم نصل إلى المعنى الحقيقي للموت إذن علينا أن نعيش حياتنا... اسمح لي أن أذهب لأجلب لنا طعاما نأكله...

أُحرّك جسمي بصعوبة. جسدي ما عاد يطاوعني. الحوار الذي دار مع طاهر حول الموت زاد من ضعفي. لم أكن صادقاً في الكلام الذي بدر



مني. بمجرد خروج طاهر من الغرفة أدركت أني كنت كاذباً بخصوص شعوري تجاه الموت. طيلة الأيام الماضية وأنا أقابل صورا مرعبة لمخلوقات غريبة كلها تحمل اسم «الموت». تلك الكائنات المرعبة لا يمكن تجنيسها. لا هي من صنف الرجال ولا هي من النساء. في كل يوم يظهر أمامي بصورة مختلفة. لكثرة الأشكال التي تراءت لي بها لم أعد أحتفظ له بصورة توّحد كل تلك الأشكال. كل ما تبقى في ذهني هو رهاب الفناء والعدمية. فكرة أن تكون لا شيء. ذلك الكائن الإشكالي الذي سأقابله بعد يوم غد والذي يدعى «الموت» تحايلت على معناه وأنا أجيب على أسئلة طاهر. لا أدري إن كان طاهر قد اقتنع بإجاباتي أم أنه اكتشف مقدار الكذب المشحون فيها...

أنا خائف من الموت...

الطفل ينظر إليّ بعينين ناعستين...

نعم أنا خائف. الموت فكرة مرعبة...

ملامح الطفل تتغير. هناك دمعة تلوح في عينيه..

لن أستطيع الاستمرار بالكذب. لا أريد أن أموت..

تنطلق من الطفل صرخة مفاجئة ويبدأ بالبكاء..



III

كنت غارقاً في دوّامة الإحباط عندما اقترب مني. لم أنتبه له في بداية الأمر. كان يمشي على أطراف أصابعه. أتذكر إن ذلك قد حدث في اليوم الثاني لي في المستشفى. عندما أصبح بمحاذاتي قام بوضع يديه على كتفيّ ليمسك بهما بقوة. وجههُ قبالة وجهي. المسافة الفاصلة بينهما قليلة جداً. لم أتمكن من معرفة ما يدور في خلده وأنا أركز النظر بحركة شفتيه المرتعشتين. كانت أنفاسه تلفح وجهي وهو يحاول إخراج الحروف والنطق بالكلمات المحبوسة في صدره. أطيل النظر إلى حركة شفتيه. أشعر بالدوران وأنا أترقب ما سيقوله. عدّة لحظات مضت وهو يمسك بكتفيّ بقوة دون أن يقول شيئاً وأنا مستسلم له تماماً. لم تصدر مني أيّة ردة فعل وإنما اكتفيت بالنظر إلى ارتباك شفتيه حتى حانت اللحظة التي خرجت فيها الكلمات السجينة من تلك الشفتين:

ـ هل رأيت البقرة الصفراء..؟

أجبته بتردد:

ـ أيّة بقرة..؟

ـ البقرة الصفراء.. إلا تعرفها.. أرجوك إن كنت قد رأيتها فدلّني عليها...



بدافع التعرف على ماهية الموضوع سألته:

ـ ولماذا تبحث عن تلك البقرة..؟

ردّ عليّ وهو يواصل الإمساك بكتفي:

ـ لقد مات أخي «ضمير» وأريد أن أعيده للحياة...

ـ وكيف تعيدهُ للحياة.. وما دخل البقرة في ذلك..؟

من ملامح وجهه عرفت بأن سؤالي هذا قد ترك أثراً سلبياً في نفسه وقد تأكدت من ذلك حين صرخ بي:

ـ أنت مجنون.. ألا تعلم بأن البقرة الصفراء تُعيد الأموات إلى الحياة... ألا تعلم بذلك...

قيّدني الصمت لعدم معرفتي بماذا أجيبه. ألاحظ الاحمرار الواضح في عينيه الذاويتين تحت حاجبين كثيفين. لم يقنعه صمتي وعجزي عن الإجابة فأعاد القول:

ـ ألا تعلم بأن تلك البقرة عندما نذبحها ونضرب الميت بها يعود إلى الحياة..

حاولت العثور على رد مناسب يخمد ثورته التساؤلية ولكنه لم ينتظر ذلك فبعد أن أوصل معلومته بخصوص البقرة الصفراء وقدرتها على إعادة الحياة للأموات أنزل يديه من على كتفيّ وابتعد عني مسرعاً. بعد لحظات رأيته يمسك بأكتاف مجنون يقف قريباً مني ويقول له:

ـ هل رأيت البقرة الصفراء..؟

يبدو أن سؤال ذلك المجنون كان يمر بأغلب المتواجدين في



المستشفى. وكان في الغالب لا يحظى بإجابة شافية. أعتقد إن اغلب المسؤولين كانوا مثلي يقابلونه بالصمت. المجانين لا يملكون الإجابات إنهم يجيدون طرح الأسئلة فقط. هذا التصور بدأ يكبر يوماً بعد يوم خصوصاً بعد أن راحت غيوم الأسئلة تُمطر في رأسي. في بعض الأحيان كنت أشاهد ذلك المجنون منزوياً في أحد أركان حديقة المستشفى. يجلس بانكسار جلسة من أضاع شيئاً وعز عليه إيجاده. الإجهاد الذي يلوح في محياه يعكس صورة الإنسان الذي تكون محصلته الإحباط تجاه حكم الأقدار الجازمة التي لا تمنحه حق الاعتراض والتعديل...

أنا الآن في نفس موقع ذلك المجنون. أفكر بتلك البقرة الصفراء. فكرتها تسحبني إلى أمنيات الأموات. أولئك الذين سأكون ضمن قائمتهم بعد أيام قليلة...

يشغلني موضوع العودة إلى الحياة. ماذا لو تمكنا من التغلّب على الموت..؟ ماذا لو توصلنا إلى اتفاق معه. يجبرني المجنون وبقرته الصفراء على التفكير بذلك. ولكن من أين أتى ذلك المجنون بهذه الفكرة..؟

المقبلون على الموت يستدرجون الأفكار المُهدئة. هذا ما جعلني أصادق الفكرة التي جاء بها ذلك المجنون. أعتبرها صديقتي المُقربة وأسير معها في طريق غير واضح المعالم ولكن نهايته معلومة. أتعلق بخطواتها وأتبعها دون أن أعي مصدرها ومدى واقعيتها. هل هي من وحي خيال ذلك المجنون أم أن لها مصدرا يعتد به..؟

ماذا لو كانت تلك الفكرة قابلة للتطبيق على أرض الواقع. البقر مقابل الحياة. ستكون صفقة رابحة. ولكن لماذا البقر الأصفر تحديداً..؟



اذبح بقرة صفراء واضرب بها الميّت يعود إلى الحياة...

أتخيّل المشهد. أتصوّر اللحظة التي تعود فيها الحياة إلى ذلك الميّت. أضع نفسي في مكانه. يبدو الأمر مربكاً بالنسبة لي. هناك صعوبة في تكوين التصّور المناسب. الاستمرار بالتفكير بهذه الطريقة قد يؤدي إلى رسوخ الفكرة في عقلي الباطن. أنا الطامح بالنبوة هل يُعقل أن أبقى رهين مجيء البقرة الصفراء. أن أظل أسيراً لرحمتها في مرحلة ما بعد الحياة. أغادر الحياة وهناك في العالم السفلي أظل أتأمل قدوم البقرة المُنقذة. لا أعلم كيف يفكر الأموات. هل ينتظرون قدوم المنقذ. هل يمارسون الانتظار أيضاً.

ربما...



المستشفى. وكان في الغالب لا يحظى بإجابة شافية. أعتقد إن اغلب المسؤولين كانوا مثلي يقابلونه بالصمت. المجانين لا يملكون الإجابات. إنهم يجيدون طرح الأسئلة فقط. هذا التصور بدأ يكبر يوماً بعد يوم خصوصاً بعد أن راحت غيوم الأسئلة تُمطر في رأسي. في بعض الأحيان كنت أشاهد ذلك المجنون منزوياً في أحد أركان حديقة المستشفى. يجلس بانكسار جلسة من أضاع شيئاً وعز عليه إيجاده. الإجهاد الذي يلوح في محياه يعكس صورة الإنسان الذي تكون محصلته الإحباط تجاه حكم الأقدار الجازمة التي لا تمنحه حق الاعتراض والتعديل...

أنا الآن في نفس موقع ذلك المجنون. أفكر بتلك البقرة الصفراء. فكرتها تسحبني إلى أمنيات الأموات. أولئك الذين سأكون ضمن قائمتهم بعد أيام قليلة...

يشغلني موضوع العودة إلى الحياة. ماذا لو تمكنا من التغلّب على الموت..؟ ماذا لو توصلنا إلى اتفاق معه. يجبرني المجنون وبقرته الصفراء على التفكير بذلك. ولكن من أين أتى ذلك المجنون بهذه الفكرة..؟

المقبلون على الموت يستدرجون الأفكار المُهدئة. هذا ما جعلني أصادق الفكرة التي جاء بها ذلك المجنون. أعتبرها صديقتي المُقربة وأسير معها في طريق غير واضح المعالم ولكن نهايته معلومة. أتعلق بخطواتها وأتبعها دون أن أعي مصدرها ومدى واقعيتها. هل هي من وحي خيال ذلك المجنون أم أن لها مصدرا يعتد به..؟

ماذا لو كانت تلك الفكرة قابلة للتطبيق على أرض الواقع. البقر مقابل الحياة. ستكون صفقة رابحة. ولكن لماذا البقر الأصفر تحديداً..؟



اذبح بقرة صفراء واضرب بها الميّت يعود إلى الحياة...

أتخيّل المشهد. أتصوّر اللحظة التي تعود فيها الحياة إلى ذلك الميّت. أضع نفسي في مكانه. يبدو الأمر مربكاً بالنسبة لي. هناك صعوبة في تكوين التصّور المناسب. الاستمرار بالتفكير بهذه الطريقة قد يؤدي إلى رسوخ الفكرة في عقلي الباطن. أنا الطامح بالنبوة هل يُعقل أن أبقى رهين مجيء البقرة الصفراء. أن أظل أسيراً لرحمتها في مرحلة ما بعد الحياة. أغادر الحياة وهناك في العالم السفلي أظل أتأمل قدوم البقرة المُنقذة. لا أعلم كيف يفكر الأموات. هل ينتظرون قدوم المنقذ. هل يمارسون الانتظار أيضاً.

ربما...



المستشفى. وكان في الغالب لا يحظى بإجابة شافية. أعتقد إن اغلب
المسؤولين كانوا مثلي يقابلونه بالصمت. المجانين لا يملكون الإجابات
إنهم يجيدون طرح الأسئلة فقط. هذا التصور بدأ يكبر يوماً بعد يوم
خصوصاً بعد أن راحت غيوم الأسئلة تُمطر في رأسي. في بعض الأحيان
كنت أشاهد ذلك المجنون منزوياً في أحد أركان حديقة المستشفى.
يجلس بانكسار جلسة من أضاع شيئاً وعز عليه إيجاده. الإجهاد الذي
يلوح في محياه يعكس صورة الإنسان الذي تكون محصلته الإحباط
تجاه حكم الأقدار الجازمة التي لا تمنحه حق الاعتراض والتعديل...

أنا الآن في نفس موقع ذلك المجنون. أفكر بتلك البقرة الصفراء.
فكرتها تسحبني إلى أمنيات الأموات. أولئك الذين سأكون ضمن
قائمتهم بعد أيام قليلة...

يشغلني موضوع العودة إلى الحياة. ماذا لو تمكنا من التغلّب على
الموت..؟ ماذا لو توصلنا إلى اتفاق معه. يجبرني المجنون وبقرته الصفراء
على التفكير بذلك. ولكن من أين أتى ذلك المجنون بهذه الفكرة..؟

المقبلون على الموت يستدرجون الأفكار المُهدئة. هذا ما جعلني
أصادق الفكرة التي جاء بها ذلك المجنون. أعتبرها صديقتي المُقربة
وأسير معها في طريق غير واضح المعالم ولكن نهايته معلومة. أتعلق
بخطواتها وأتبعها دون أن أعي مصدرها ومدى واقعيتها. هل هي من
وحي خيال ذلك المجنون أم أن لها مصدرا يعتد به..؟

ماذا لو كانت تلك الفكرة قابلة للتطبيق على أرض الواقع. البقر مقابل
الحياة. ستكون صفقة رابحة. ولكن لماذا البقر الأصفر تحديداً..؟



اذبح بقرة صفراء واضرب بها الميّت يعود إلى الحياة...

أتخيّل المشهد. أتصوّر اللحظة التي تعود فيها الحياة إلى ذلك الميّت. أضع نفسي في مكانه. يبدو الأمر مربكاً بالنسبة لي. هناك صعوبة في تكوين التصّور المناسب. الاستمرار بالتفكير بهذه الطريقة قد يؤدي إلى رسوخ الفكرة في عقلي الباطن. أنا الطامح بالنبوة هل يُعقل أن أبقى رهين مجيء البقرة الصفراء. أن أظل أسيراً لرحمتها في مرحلة ما بعد الحياة. أغادر الحياة وهناك في العالم السفلي أظل أتأمل قدوم البقرة المُنقذة. لا أعلم كيف يفكر الأموات. هل ينتظرون قدوم المنقذ. هل يمارسون الانتظار أيضاً.

ربما...



IV

هذا اليوم لم يأتِ أيضاً...

لم تمضِ لحظات على دخوله إلى الغرفة حتى نطق بهذه العبارة. لم تكن عبارته موجهة إلى جميع مَن في الغرفة. كانت موجهة لي وحدي. شعوره باهتمامي بما يقوله شجعه على الاقتراب من سريري. بقي واقفا قرب سريري وأكمل كلامه:

ـ أكثر من أسبوع وهو غائب عن الجامع.. لم يعتد الانقطاع عن الجامع كل هذه المدّة.. فترة غيابه كانت لا تتجاوز اليومين.. لا أدري ما الذي أصابه..

ـ لا تقلق عليه ربما يكون مسافراً أو مشغولاً بأمور تمنعه من المجيء إلى الجامع..

هذا ما قلته أنا أما طاهر فقد نطّ من مكانه وقال:

ـ وربما يكون قد ترك الصلاة..

ابتسامة طاهر الماكرة المصاحبة للاحتمال الذي طرحه نتجت عنها ردّة فعل سلبية في ملامح أبي نؤاس. بدت العصبية عليه وهو يسمع ذلك الاحتمال. انتفاخ أوداجه يدّل على كتمه لغيظ واضح. تحرك قليلاً



من مكانه. كانت خطواته متجهة نحو طاهر. خشيتي من تجدد الشجار جعلتني أتدارك الأمر بالقول:

ـ لابد أنه سيعود.. أنا متأكد بأنك ستراه قريباً..

ما قلته أعاد لأبي نؤاس شيئا من الاسترخاء. جلس على سريره. مد يده إلى جيب معطفه وأستل بعض الأوراق النقدية حصيلة صلاة الظهر. راح يعدّ نقوده ونظراته مصوبة نحو طاهر. يبدو إن فكرة عدم وجود العدالة ما زالت تُحرّك شعور الغضب بداخله تجاه زميله في التسّول. في الجهة المقابلة كان طاهر يحاول التشاغل عنه والهرب من نظراته القاسية. أما أنا فما زلت تحت تأثير الحُمّى التي تعاود بين فترة وأخرى التسلل إلى جسدي الهزيل المُسجّى على السرير الحديدي المتآكل...

شبح الموت مازال يكرر الظهور أمامي. جسمي فقد القدرة على الحركة. هذا ما أشعر به. طيلة هذا اليوم لم أبرح فراشي. اقترح عليّ طاهر الذهاب إلى الطبيب. بسبب رفضي لمقترحه أخبرني بأنه سيجلب لي بعض الأدوية من الصيدلية. أجبته بعدم جدوى ذلك. كل شيء سينتهي بصورة طبيعية. لم يقتنع بما صدر عني وأخبرني بأنه سيتصرف بحسب ما يمليه عليه ضميره. قال بأنه سينام قليلاً وبعد ذلك سيتوجه إلى أقرب صيدلية. أبو نؤاس اندّس تحت غطائه ويبدو انه سبقنا في النوم. كنت أنا آخر النائمين...

مرّت بي أفلام قصيرة تسمى كوابيس. تلك الأفلام لم تُعرض على التوالي بل كانت متداخلة. تخالطت أحداثها واشتبكت داخل رأسي الصغير. عشت خلالها مشاهد تشبه إلى حد كبير ما يجري في مديرية الأمن التي دخلتها هذا اليوم بفعل الحمّى. كوابيس خاطفة. لا شيء



واضح فيها. الرعب هو المسيطر على أجوائها. تلك الأفلام المرعبة جعلتني أول المستيقظين...

أنظر إلى شركائي في الغرفة. جميعهم يغطون في نوم عميق. حتى الطفل كان مستغرقاً في نومه. الكوابيس التي مرت بي جعلتني أسعى لتكوين فكرة عن طبيعة الأحلام التي يراها الطفل أثناء نومه. هل يشاهد كوابيس مثل التي يراها الكبار أم أن أحلامه ذات صبغة طفولية بحتة.. أتكلم عن الطفل الذي ينام إلى جواري. أنه طفل مختلف. لابد أن تكون أحلامه مختلفة. أبحث عن السبب الذي يدعو الوالدين إلى التخلّي عن أبنائهم. كيف يمكن لعاطفة الأبوة والأمومة أن تجف في قلبيهما. كيف لهما أن يعاقباه على خطيئة هما من ارتكبها. وشموه بصفة اللقيط ثم تخلّو عنه وألقوهُ على قارعة الطريق ليواجه مصيره المجهول...

عندما حملتك أمك بيديها وألقتك في العراء ماذا قلت لها..؟ لحظة خروجها من البيت هل تبادر إلى ذهنك بأنها متوجهة للتخلص منك.. في الطريق هل قالت لك شيئاً.. هل اعتذرت منك.. هل شرحت لك ظروفها.. طريقة احتضانها لك وهي تسير بك في جنح الظلام هل كان فيها شيء من الطمأنينة بالنسبة لك.. لابد أنك كنت تنظر في ملامح وجهها في تلك الساعة.. وجه الأم الذي طالما حار القلم في وصف عاطفتها تجاه أبنائها كيف رأيته.. تلك العاطفة التاريخية التي اندثرت وتلاشت في تلك الليلة الشتائية الباردة.. تلك العاطفة التي تم التخلي عنها وعن متعلقاتها أمام عتبة باب بيت الله.. بكاؤك الذي لا ينقطع يجعلني أتساءل.. أتساءل مع نفسي فقط.. المرأتان اللتان حضرتا في تلك الليلة أيهما كانت أمك..؟ هل تحتفظ بشيء عنها.. وعيك الطفولي



النقي هل يحتفظ بذكرى منها.. اللحظة الأخيرة التي انفصلت فيها عن يديها قد تكون هي الذكرى الأكثر التصاقا بوعيك.. أسألك عن كل ذلك لأنني كنت شاهدا على تلك اللحظة اللاإنسانية. شهدت ما جرى فيها ولكنني في حينها لم أكن أعي ما كان يجري.. راقبتها عن بُعد.. كنت أنا الشاهد في الأرض والله الشاهد في السماء.. في البداية لم أفهم ما كان يجري.. لم أعلم إن هناك طفلا يتم التخلص منه إلا بعد أن غادرت المرأتان المكان.. لم يكن في حسباني إن أمراً مثل هذا يمكن أن يحدث في هذا العالم.. عقلي البسيط لا يحتمل هكذا افتراضات.. لا أعلم إن كان الشاهد الثاني قد أصيب بنفس خيبة الأمل التي أصابتني أم كان لديه تصوّر آخر. هو يسمع كلامي الآن.. لابد أن يكون له رأي في الموضوع.. موعد لقائي به أصبح قريباً وسأسأله عن رأيه حالما ألتقيه...

أعود إلى شريكيّ في هذه الغرفة البائسة. إنهما نظيراي في التشرد والإهمال. أتنقل بين ملامحهما الساكنة ثم أنظر إلى باب الغرفة الموصد على أقدارنا المتشابهة. لحد الآن لم أصل إلى التشابه الذي بيني وبينهما. ذلك الذي تحدث عنه مدير الفندق في اليوم الأول الذي دخلت فيه إلى هذا المكان. ما زلت أتجنب النظر في المرآة. في كل مرة أجتاز فيها المكتب الصغير الخاص بمدير الفندق أتقصد الإسراع بالمشي لكي لا تقع عيني على المرآة المثبتة على الحائط خلف كرسيه...

أنظر إليهما. النوم يجعل وجهيهما متشابهين. يُقرّب بين ملامحهما إلى درجة كبيرة. يبدوان في عمر متقارب. تأثير الزمن عليهما يبدو بنفس الشدة. الوجوه تملك لغة عظيمة.. تمّكنها من التعبير عن الكيفية التي تعامل بها الزمن معها. وجه طاهر ينبئ بحزن عميق. تجاعيد تصرّح بأشياء مكبوتة. مكابدات لم يتم البوح بها. قصص أبي نؤاس المتباينة



وقصص بقية ساكني الفندق لم تسمح لقصته بالإعلان عن نفسها. كان مستقراً في نومه على العكس من أبي نؤاس الذي يتقلّب بصورة تدّل على عدم الاستقرار وغياب الطمأنينة. أقف في منطقة وسط بين الحكايات المختلفة التي سمعتها عن أبي نؤاس. كلما حاولت الدخول إلى أحداها لا أتمكن من ذلك. تتلبسني الحيرة وأفشل في اتخاذ القرار المتعلق بأي الحكايتين أصدّق. الحكاية التي يرويها هو أم الحكاية التي يرويها طاهر.

شفتاي يابستان. رغم برودة الجو إلا أن شعوري بالعطش كان مُلّحاً. جربت النهوض أكثر من مرة ولكن ثقل جسدي حال دون ذلك. الغرفة بعيدة عن مصدر الضوء وهذا يجعل تخمين الوقت أمراً ليس باليسير. استندت على يديّ ورفعت جسمي قليلاً. الملابس الرثة التي أرتديها غير كافية لصد البرد الذي تشبّعت به الغرفة. ما أن وضعت قدمي على الأرض حتى سمعت صوت صراخ منبعث من الطابق الأرضي للفندق. قفز كل من طاهر وأبي نؤاس من مكانهما على أثرذلك الصوت. تبادلنا نظرات خائفة وخاطفة. ماذا حدث. تصلّبتُ أنا على حافة السرير بينما سارع طاهر إلى فتح باب الغرفة. خرج مسرعاً ولحقه أبو نؤاس بخطوات فيها أثر الكهولة المبكرة. ما زال اللغط يأتي من الأسفل. أصوات الصراخ تتعالى بطريقة تنذر بأشياء مفجعة. أكثر من مرّة حاولت النهوض ولكن محاولاتي كلها باءت بالفشل. لم تمض دقائق حتى عاد طاهر الى الغرفة يلهث شاحباً والذعر مسيطر على حركاته. حال دخوله صرخ بوجهي:

ـ قارئة الأقدار....

ـ ما بها...؟

ـ لقد انتحرت...



V

الفندق يسوده الخوف والذعر..

سكون رهيب جعل كل شيء ساكناً..

جميع من في الفندق أحكموا إغلاق أبواب غرفهم ولاذوا بالصمت. بعضهم غادر الفندق حاملاً معه رهبة ما رآه هذا اليوم والبعض الآخر بقي تحت تأثير مأساوية ما شاهده. قال طاهر إن الشرطة قد أجرت تحقيقاً موسعاً حول حادثة الانتحار وبعدها تم نقل الجثة وتسليمها إلى الطب العدلي..

الوضع في غرفتنا لا يختلف عما يسود بقية الغرف. حالة الصدمة جعلت طاهر وأبا نؤاس يفقدان القدرة على التعبير عما شاهداه. ذهول تام وصمت مطبق. مدير الفندق كما علمت أغلق باب الفندق مبكراً على عكس السياقات المتبعة في الليالي السابقة حيث كان يبقي باب الفندق مفتوحا إلى الصباح. أبو نؤاس لم يذهب إلى الجامع الكبير عند صلاة المغرب. وكذلك طاهر أخبرني بأنه لن يخرج الليلة للتسول أمام البار. ألاحظ تعابير وجه طاهر الذي يحاول إخفاء علامات الذعر التي ترفض مغادرة ملامحه. يحاول ان يشغل نفسه من خلال قضاء بعض حاجات الطفل فتارة يحضر له الحليب وتارة يقوم بتبديل ملابسه. أما أبو نؤاس



فقد وجد في سرد ما رآه الوسيلة الأفضل للهروب من جو الرعب السائد في الفندق...

باشر بالكلام دون ان يطلب منه أحد ذلك. قال ان عبود الزبّال كان متوجها إلى الحمّام عندما لاحظ إن باب غرفتها مفتوح. في المعتاد لم تكن تترك باب الغرفة مفتوحاً وهذا ما أثار فضوله وجعله يقترب من باب الغرفة وعندما أصبح قبالته شاهد ما لم يكن في الحسبان. على أثر الصرخة التي أطلقها هرع كل نزلاء الفندق باتجاه غرفة قارئة الأقدار. احتشد الجميع أمام الباب ولم يتمكن أحد من دخول الغرفة. كانت طريقة انتحارها غريبة. لم يكن أحد يتوقع أن نهاية حياة قارئة الأقدار ستكون بهذه الطريقة المرعبة...

يتحدث أبو نؤاس وفرائصه ترتجف. هيئته المرتبكة تجعل من يسمعه يتصور أن تلك المرأة المنتحرة ماثلة أمامه في هذه اللحظة. يسرد القصة بتلعثم. كان لون وجهها قد تحول إلى الأزرق الداكن وعيناها قد انتفختا وتورّمتا وبرزتا إلى الخارج. فمها مفتوح بشكل يوحي بأنها كانت تصرخ في اللحظة التي فارقت فيها الحياة. بشاعة المنظر أفقدت الجميع رباطة جأشهم ولم يتمكن أحد من عبور باب الغرفة إلى الداخل والاقتراب من جثتها. الكل يحيط بعبّود الزبّال الذي ظل يصرخ كمن فقد عقله. حالة ذهول تامة سادت المكان ولا أحد يصدّق ما يراه...

أنصتُ إلى ما يرويه أبو نؤاس ونفسي تحدثني وتعيدني إلى ما أخبرتني به قارئة الأقدار قبل يومين. هاهو الجزء الأول من النبوءة يتحقق. الجزء الأول مما تنبأت به قد وقع. تحقق بصورة مرعبة وصادمة...



لماذا انتحرت قارئة الأقدار..؟ هل أرادت إرسال رسالة مختصرة تعلمنا فيها إن الإنسان يمكنه أن يتحكم بقدره. إنهاؤها لحياتها بهذه الطريقة ماذا يعني..؟ هل أرادت أن تقول بأن الأقدار تتلخص بحدث أخير. حدث يلتقي عنده الجميع وليس لأحد الفرار منه وان ذلك الحدث هو ما يمكن قراءته فقط وما عداه مجرد أمور ثانوية تقع ضمن سياقات التوّقع...

مع اقتراب انتصاف الليل وكالعادة بدأ بكاء الطفل يكسر السكون المُخّيم على أجواء الفندق. في هذه الليلة لن يفكر أحد بالخروج من غرفته ليعترض على بكاء الطفل. المعترضون جمعيهم قابعون في غرفهم الآن كأن على رؤوسهم الطير. بكاء الطفل كان خافتا هذه الليلة ولكن فيه شيئا من اللوعة والمرارة. بكاؤه يضيف الكثير من المأساوية لأجواء الفندق المشحونة بالذعر...

تحت وقع حادث انتحار قارئة الأقدار ساكنو الفندق باتوا يقضون ليلتهم خائفين يتداولون الأفكار الحائرة ولكنهم لا يعلمون بما ينتظرهم من أحداث لاحقة. لا يعلمون بأن النبوءة تتضمن حدثاً آخر قد يكون أكثر مأساوية. يوم واحد فقط يفصلهم عن الحدث الثاني. بعد غد ستكون هناك تكملة لهذه التراجيديا القدرية. ستكون هناك ليلة مرعبة أخرى مشابهة لهذه الليلة...

اللحظة التي أعيشها يكسوها الخواء الروحي والجسدي. ما رواه أبو نؤاس يرفض مفارقة ذهني. لقد عشش في دماغي طائر الرحيل. بكاء الطفل يفزعني. اشعر انه يبكي من أجلي. يعبر عن حزنه لاقتراب موعد الافتراق. انه بكاء الفجيعة المرتقبة...



قلقي يدعوني إلى ضرورة التفكير بصوت عال فيما يتعلق بهذا الطفل. يجب تعديل الوصّية التي كلفت طاهر بتنفيذها. لقد ماتت قارئة الأقدار وبعد يوم سأموت أنا أيضاً. إلى أين سيذهب هذا الطفل من بعدنا..؟ من الذي سيقف معه في مواجهة جبهة المعترضين..؟

طاهر يغط في نوم عميق. هو الوحيد الذي تمكن من النوم رغم الضجيج البكائي الذي يملأ الغرفة ويتجاوزها إلى الغرف المجاورة. أما أبو نؤاس فكان سارحاً في عوالمه الخاصة. تارة يكلم نفسه بصوت منخفض وتارة تلازمه نوبة صمت يصعب تأويله...

يحق لك البكاء أيها الطفل. يحق لك الخوف من الآتي. لو تعلم كم أنا بحاجة إلى ان أشاركك هذا البكاء. إن أردنا البحث عن سبب مقنع للبكاء فيمكننا ان نكتفي بالأقدار التي لم يتم قراءتها. هذه الليلة سنبكي معاً لان البكاء هو السلوك الوحيد الذي يلائم ما نمر به الآن. لا شيء سوى البكاء. هو التعبير الأصدق. في هذا الصباح أنت كنت مع قارئة الأقدار. هل حدثتك عن أمر رحيلها..؟ هل قالت لك شيئاً عما تنوي القيام به..؟ بماذا تكلمت معك في لحظاتها الأخيرة. ربما تكون أنت آخر من كان معها. لماذا تبكي بهذه الطريقة المؤلمة يا صغيري. بكاؤك مختلف هذه الليلة. الأقدار لا تتوافق مع إرادتنا دائماً. كنت أردت لك أن تبقى تحت رعاية تلك المرأة. كلمت طاهر بخصوص ذلك. ولكن ذلك لم يعد ممكنا. لقد رحلت. انتحارها افسد ما كنت اخطط له. اسمع يا بني ما تمر به الآن سيتكرر بعد يوم غد. لذلك عليك ان تنصت جيداً لما أوصيك به وان تلتزم بتلك الوصية: لا أريدك أن تبكي لموتي...



أريد منك أن تتعامل مع الحدث بأسلوب آخر. ردّة فعلك تجاه رحيلي أتمنى ان تكون هادئة. تلك اللحظة. لحظة وفاتي أريدها أن تكون لحظة استلام وتسليم. عندها أريدك أن تستلم زمام النبوة. تلك اللحظة ستكون استثنائية في تاريخ البشرية لذلك أطمح أن تكون مقرونة بابتسامة...

في هذا الليل البارد المشحون بالحزن والخوف والترقب الجميع يحاول استدراج النوم إلى عينيه في سبيل نسيان ما حدث عصر هذا اليوم. ليل الشتاء الطويل يجثم على صدور نزلاء هذا الفندق البائس. الفندق الذي لا توجد أي صلة بين اسمه وواقعه. ما حدث هذا اليوم أضاف لأجوائه نسبة عالية من البؤس...

لا شك ان هذا البكاء الذي يصل إلى كل غرف الفندق يزيد من شحنة الرعب الناتجة عما حدث عصر اليوم. بذلت جهدي في سبيل تهدئة الطفل وإسكاته. سألت أبا نؤاس الذي ما زال مستيقظاً عن الوقت فأجابني بعدما ألقى نظرة على ساعته القديمة بأن الساعة تقارب الثانية بعد منتصف الليل. قلت له:

- لماذا لم تنم لحد الآن..؟

- أنا خائف.. أخاف أن أموت...

- ولكنك ميت....

- هذا اليوم أدركت المعنى الحقيقي للموت.. نعم أنا أعيش إحساس الميت منذ فترة طويلة ولكنه موت متصور يختلف عن الموت الذي رأيته اليوم...

- أعتقد ان طريقة الموت هي من جعلته مرعباً إلى هذا الحد..



ـ معاينة الموت تجربة في غاية القسوة.. في السابق لم أكن أتصور انه يحمل كل هذه الطاقة من الرعب.. رأيت بأم عيني كيف يتحول الإنسان إلى كائن مخيف.. كائن لا يمكن الاقتراب منه.. كائن فاقد للحميمية..

يصمت قليلا ثم يضيف:

ـ أرى صورتها أمامي الآن.. جالسة بملامحها المتخشبة وعيونها الجاحظة.. أنا خائف.. خائف.. لا أريد أن أموت...

مع لفظة الموت بدأت دموعه تنهمر. راح يبكي كأنه طفل. حاولت النهوض من سريري ولم أتمكن. في داخلي تولدت رغبة مشابهة. أن أقول له بأني خائف من الموت أيضاً. أردت أن أصرّح بذلك ولكن شجاعتي خانتني. كل ما تمكنت من فعله هو البكاء بصوت لم يسمعه أحد.



الشاهدة،

لم يعد البكاء مجدياً..
الأنبياء يموتون..
ولكن الأشجار لا تموت




Arab_Books

I

الليلة الفائتة لم تكن عادية بالنسبة لي. لم أتمكن من النوم إلا في وقت متأخر جداً. أعتقني الأرق في وقت قريب من شروق الشمس. الليلة الأولى التي أمضيها داخل الفندق كانت مضنية. قضيتها وحيداً أتحسس هاجس الخوف الذي دخل عنوة إلى الفندق وراح يتجول في أنحائه. لا شك أنهُ قد مرّ بجميع الغرف فوجد نزلاءها قد تستروا بأغطيتهم العتيقة. حين وجدني صاحياً أستغل الفرصة فحطّ ركابه عند عتبة أفكاري القلقة. بقى يشاغلني حتى ساعات الفجر. حاولت طرده بكل الوسائل ولم أفلح. طلبت منهُ أن يكون رحيماً بي ولم أجد منه أي تعاطف. صوتي المنهك المتوسل لم يتمكن من إثارة عاطفة الشفقة لديه. لا أدري كيف تمكن النوم من تخليصي منهُ بعد ذلك. صباحاً حين استيقظت وجدت طاهر يضع الطفل في حجره ويقوم بإرضاعه...

أحسست بأن حالتي أفضل من يوم أمس. تمكنت من النهوض ومغادرة السرير. سألني طاهر عن صحتي فأجبته بأني أشعر بالتحسن. انتبهت لعدم وجود أبي نؤاس. سألت طاهر عنهُ فقال بأنه خرج مبكراً على غير عادته ودون أن يقول شيئاً...

عندما نزلت إلى الطابق الأرضي شعرت بالرهبة لحظة اصطدام



بصري بباب غرفة قارئة الأقدار الموصدة. الفندق مهجور وكأن لا أحد يسكنه. أنظر إلى باب الغرفة المغلق. أتذكر الحديث الذي دار داخل الغرفة قبل يومين. كانت خطواتي مترددة ومرتبكة وأنا أجتاز تلك الغرفة باتجاه الحمّام...

لقد انتهى كل شيء. بالأمس أنت وغداً أنا. أكلّم مكانها الذي بقي شاغراً. الفندق خالٍ تماماً وكأن هروباً جماعياً قد حصل هذا اليوم. حتى مدير الفندق لا يوجد له أثر...

عدت سريعاً إلى الغرفة. لم أنس أن القي نظرة على باب الغرفة التي أوصاني طاهر بالانتباه لها. كما في المرات السابقة عبارة المنع ثابتة والاسم قد تغير. هذا اليوم كان الاسم المكتوب هو: تمريح.

دخلت إلى الغرفة وأنا اردد ذلك الاسم لكي لا أنساه. لم انتظر طويلا حالما أصبح طاهر أمامي قلت له:

ـ تمريح..

ينظر إليّ طاهر دون أن يرد فأضيف:

ـ وقبله مقلاص وقبله طارش وقبله....

لا أتذكر بقية الأسماء فأقول:

ـ أما آن الأوان لتنهي هذا اللغز...؟

ـ حسنا.. اجلس وسأخبرك بكل شيء..

يقترب طاهر مني بعد ان جلست على حافة سريري. يضع الطفل في حجري ويقول:



ـ انه الشيطان...

ـ ماذا تقول..؟

صرخت باندهاش.

ـ نعم الشيطان يسكن في تلك الغرفة وقد رتبت لك معه لقاء هذه الليلة.. ان كنت ترغب بذلك طبعاً...

يحاول احتواء دهشتي فيواصل كلامه:

ـ أعلم بأن ما قلته لك لا يمكن تصديقه.. يمكنك التأكد من ذلك بنفسك.. إن شئت اذهب إلى غرفته هذه الليلة وتحدّث معه...

بعد أن أنهى حديثه أشعل طاهر سيجارة وراح يدخن. لم أجبه بصدد عرضه المتعلق باللقاء الذي رتبه لي وإنما رحت أحدثه عن ما شاهدته في الفندق من وحشة وفراغ رهيب. قال وهو ينفث الدخان من فمه إن ما حدث بالأمس لم يكن أمراً سهلاً. من الطبيعي أن يلجأ من شاهد المنظر إلى الهروب. قدر هذا الفندق أن يكون تعيساً...

يكلمني طاهر ويده التي تحمل السيجارة غير مستقرة. لأول مرة أرى يديه ترتعشان. فجأة وبدون مقدمات وجّه لي سؤالاً غير متوقع:

ـ لماذا كنت تبكي ليلة البارحة...؟

لحظة سماعي لسؤاله خطر ببالي ذلك الطلب الذي قدمته للرب قبل ليلة. أجبته:

ـ هذه الليلة سأخرج وربما لن أعود..

تتسع عيناه ويُخرج السيجارة من فمه بسرعة.



ـ طاهر.. أريدك ان تسمعني جيدا.. كنت قد أوصيتك بأن تترك الطفل لدى قارئة الأقدار.. الآن وبعد أن تغيرت الظروف لم يبق احد غيرك يتولى المهمة.. أريدك أن تتكفل بالطفل من بعدي...

ـ كلامك يحيرني.. لماذا لا توضح لي الأمر...؟

ـ أسمع يا طاهر.. سأقول لك شيئاً.. أنت الوحيد الذي أحدثك عن هذا الأمر.. قبل يومين طلبت من قارئة الأقدار ان تقرأ لي قدري وقد أخبرتني بأن هذا الفندق سيشهد حادثين مروعين خلال هذا الأسبوع وكما ترى يوم أمس تحقق الحادث الأول...

ـ ولكن كيف عرفت بأن الحادث الثاني متعلق بك...؟

ـ هذا الأمر واضح ولا يحتاج إلى نباهة.. هي تنبأت بذلك بعد أن طلبت منها قراءة قدري.. من ذلك يستدل على إن الحادث الثاني خاص بي أنا...

يصمت طاهر. أماثله أنا بالصمت. نظراتنا تزاحمت قرب وجه الطفل. ملامح الطفل تبدو أكثر جمالاً وبراءة هذا اليوم. أتحسس ابتسامة خفية في تلك الملامح. وضعه هذا اليوم لا يشبه أبداً الأيام السابقة. كان مستقراً وهادئاً ولا يبكي. انسحب طاهر باتجاه الباب وأخبرني بأنه ذاهبٌ إلى السوق...

بعد خروجه شعرت بالندم لأني أخبرته بالنبوءة المتعلقة بقدري. أدركت ما انتابه نتيجة لذلك. خرج وروحه مشبعة بالحزن. شيء مؤسف ان نكون السبب في أحزان الآخرين. ما أقسي الإشارة التي نتركها وراءنا عندما نرحل. الحزن هو سيد الأقدار. ذلك مالم تقله السيدة المنتحرة..



يسحرني وجه الطفل الجميل. أتخيل بأنه ينصت إليّ فأوجّه كلامي له. أعيد عليه وصيتي التي حدثته بها بالأمس. أتعجب لنظراته المتفرسة في وجهي. براءة ملامحه تزيد من تعلقي وانشغالي به. من المؤكد بأنه يبادلني الحوار بواسطة تلك النظرات...

إنه يومنا الأخير يا صغيري. لابد من نهاية. هذا هو قانون الحياة. عندما سألني طاهر عن سبب بكائي لم أجبه عن سؤاله بصورة واضحة لأني لا أريد أن أنقل له عدوى الفجيعة. هنالك أشياء غير قابلة للتداول ولا يجوز لنا أن نبوح بها للغير. أولها الحزن...

هذا هو اليوم الأخير الذي يجمعنا سوية لذلك لا أريد أن يكون للحزن وجود فيه. كل ما أريده هو أن تكون هناك نقطة شروع. أريد أن تكون بدايتك بنفس توقيت نهايتي. أنت النبي من بعدي. أريدك أن تعوّض فشلي. المهم يا صغيري أن لا تأبه لمن سيعترض عليك. النبوة ليست حكراً على أحد. أعلم بأن الله سيكون معك. هو أول من سيؤيد نبوتك. أتدري لماذا..؟ لأنه سيجد فيك نموذجاً مختلفاً....

أتدري يا بني أحياناً أحتمل أن يكون القدر قد تعمد إفشال مشروعي النبوي. أنا أعطيه العذر إن كان قد تقصّد ذلك في سبيل إتاحة الفرصة لك لتكون أنت النبي. أنت الأحق بذلك. النبوة تليق بك أيها البريء. تسلّح بهذه البراءة لمواجهة التوحش الكوني. كل خطيئات العالم ستقف عاجزة أمام البراءة التي تحملها. اسمع يا صغيري. هناك أمر آخر عليك أن تنتبه له جيداً. أمر مهم جداً ويجب مراعاته.. لكي تكون مُخلصاً لرسالتك عليك اجتناب السؤال عن أمك وأبيك. اقتحم العالم وأنت



منزوع النسب. قل للناس بأنك تنتمي إلى الله فقط ولا يوجد لديك أي انتماء آخر. هذه الابتسامة التي على وجهك تلزمني بأن أحدّثك عن الله. الله هو الوحيد الذي علينا أن نتعرّف عليه. أن نصل إليه بطريقة مختلفة. لكي تكون مؤهلاً لحمل صفة «النبي» يجب أن تكون علاقتك به مختلفة عن بقية البشر. إدراكك له يجب أن يكون عن طريق حاسة خاصة لا يشاركك فيها أحد. أن تتعرف عليه بنفسك وأن لا تسمح لأحد أن يقاسمك الطريق المؤدي إليه. عندما تسعى للوصول إليه تأكد بأنه هو من سيأتي إليك...

ابتسم أيها النبي الصغير. ابتسم فالله ينظر إلينا الآن. ينظر إلينا بعين العطف وهو ينصت إلى هذا الحوار الذي يدور بيننا. سبق لي أن تكلمت معه عندما زارني في المنام. أنا متأكد بأن الفرصة التي منحها لي سوف يكرر منحها لك. الله يكن لنا محبة عظيمة لهذا يجب علينا أن لا نخيّب ظنه. إنه ينتظرنا. ينتظر منا شيئاً ما. ذلك الشيء الذي ينتظره منّا يمكن إدراكه من خلال الواقع الذي آلت إليه البشرية. الله بحاجة إلى أنبياء متطوعين يساهمون في تغيير ذلك الواقع. اعلم يا صغيري أن النبوة ليست احتياجا خاصا. إنها لا تتعلق بالذات المفردة. النبوة احتياج عام. ضغط الواقع هو من يصنع الأنبياء. النبوة تعني الانتقال من الإحساس الفردي إلى الإحساس الجمعي. هي لا تحتاج إلى الصلة الخارجية بقدر حاجتها للصلة الداخلية. أن تتصل بذاتك فهذا يعني إنك قد اتصلت بالله...

الإحساس بالله هو الاشتراط الأول. أن تمتلك الحس الجمالي الذي يجعلك مؤهلا للتعرّف على الذات الإلهية. اعلم يا بني أن تلك الذات لا يستطيع التعرف عليها إلا من كان مؤمنا بثقافة الجمال...

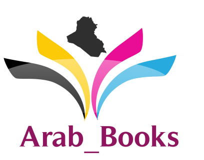


اضحكْ أيها الطفل.. أنت جميل رغم كل شيء. رغم كل ما تحمله هذه الحياة من قبح وقسوة وبلادة. لا أريد لهذا الجمال أن يختفي عن وجهك. احمل الله داخل قلبك وصرّح أمام كل العالم بأنك نبيه. قل للعالم بأن الله الجميل قد أرسلني إليكم. أنا النبي اللقيط...

في الغد لن أكون موجوداً معك. سأنتقل من هذه الحياة إلى حياة أخرى. سأودّع هذه العالم وأنتقل إلى عالم آخر. في ذلك العالم سأقابل الرب للمرة الثانية. أول شيء سأفعله عندما أقابله هو أن أحدّثه عنك. سأقول له بأني فشلت في أن أكون نبياً ولكني تركت ورائي من سيتولى المهمة. في البداية سأعتذر منهُ عن فشلي. وبعد ذلك سأخبره بأني عوّضت فشلي بأن تركت ورائي نبياً معجزته هي البراءة. نبي ينتمي إلى الإنسانية جمعاء. هو ابن للجميع...

غداً سأعيد على مسامع الرب كلامي الذي قلتهُ له في لقائنا الأول. سأقوم بذلك من أجلك يا نبي المستقبل. سأقول له بأن في داخل كل واحد منا نبيا مضمرا. نبيا ساكنا في أعماق الذات إن لم نتول تفعيله فسوف يذوي ويتلاشى وقد يتحول إلى شيطان. نعم شيطان فلا شياطين في الخارج. الشياطين يكمنون في دواخلنا. في أروقة أنفسنا يوجد مشروع شيطان ذلك هو النبي المكبوت الذي أهملنا تفعيله والعناية به. الشيطان ضحية أيضاً. ضحية إهمالنا ولا مبالاتنا. كان بالإمكان أن نجعل منه نبياً لو كنا قد سقيناه من ماء الإنسانية...

مر الوقت سريعاً والحوار لا يقبل الانقطاع. لم أنتبه إلى الوقت الراكض. إجابات الطفل المثيرة دوختني. لأول مرة أجرّب حواراً بهذا



الشكل. ما قالته لي نظرات الطفل جعلت مقياس الزمن يتعطل. لم أنتبه إلى ذلك إلا في اللحظة التي دخل فيها طاهر إلى الغرفة وقال:

ـ السماء مُلبّدة بالغيوم.



II

ـ لم يصدقوا بأني ما زلت على قيد الحياة...

بملامح تثير الشفقة دخل علينا أبو نؤاس وهو يردد هذه العبارة... كالعادة كانت كلماته موجهة لي وكان يتحاشى النظر إلى طاهر. منظره يبعث على الأسى. بدا منهكا وهو يقذف كلماته الخشنة. نزع سترته البالية وألقاها على سريره ثم وقف في منتصف الغرفة وبدأت كلماته المتحشرجة تخرج من حنجرة صدئة. كان ينطق بصعوبة:

ـ لا أريد أن أموت مرتين.. لا أريد ذلك.. قلت لهم بأني حي.. ما زلت على قيد الحياة.. لم أمت... ولكنهم وصفوني بالمجنون.. لم يسمحوا لي أن أدخل إلى بيتي.. ذلك الرجل الغريب الذي فتح الباب كان يحمل وجها قاسياً.. منعني من الدخول إلى بيتي.. عندما أخبرته بأن البيت الذي يسكن فيه يعود لي صرخ بوجهي ودفعني وصاح بي: اذهب من هنا أيها المجنون القذر...

رغم تهديده لي إلا إني لم اترك مكاني.. بقيت واقفاً أمام الباب الذي أُغلق بوجهي.. أمضيت وقتاً طويلاً متسمراً أمام الباب لا أدري ماذا أفعل.. بعد ذلك عاودت الطرق على الباب ولكن بصورة عنيفة هذه المرّة.. ما إن فُتح الباب حتى صرخت بوجه الرجل الذي طردني قبل قليل: أريد أن أرى ولدي...

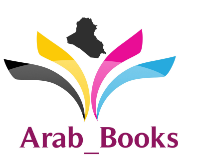


ذلك الرجل لم يتكلم هذه المرّة وإنما سارع بالانقضاض عليّ وأسقطني أرضاً وراح يركلني بكلتا قدميه.. كنت أقابل ركلاته المتوحشة بالصراخ.. أردد في صراخي بأني أنا أبو نؤاس واني ما زلت حياً.. صراخي لم يجدِ نفعاً معه.. ركلاته لم تكن رحيمة بجسدي الممدد على الأرض..

تجمع حولنا العديد من سكنة المنطقة.. بعضهم تدخل محاولاً تخليصي من الركلات الغاضبة.. سمعت بعضهم يقول يبدو إنه مجنون إنها المرة الأولى التي نراه فيها في منطقتنا.. حاولت البحث في وجوههم عن شخص أعرفه فلم أعثر على مبتغاي.. سحبوني من بين أقدام ذلك الرجل وأنا أواصل الصراخ.. بالمقابل كان هو يتوعدني وهو يدخل إلى البيت.. كانت كلماته تنذرني بأني سألقى حتفي في حالة اقترابي من بيته مرة أخرى..

قلت للناس إنه بيتي أنا وليس بيته.. طلبت منهم أن يستمعوا إلى حكايتي ولكنهم تفرقوا سريعاً غير آبهين بما يصدر عني من عبارات الرجاء والتوسل.. بكل طاقتي الصوتية صرخت وراءهم محاولاً إقناعهم بالإنصات إلى حكايتي.. صوتي المهزوم لاحق خطواتهم المبتعدة وهو يردد: أنا أبو نؤاس.. أنا لم أمت.. عليكم أن تصححوا نظرتكم عني.. اطلبوا من هذه الرجل أن يعيد لي بيتي.. أخبروه أن يعيد إليّ زوجتي.. أريد ابني..

بقيت وحيداً في الشارع أردد هذه الطلبات البائسة التي لم يتفاعل معها أحد.. كانت كلمة المجنون تتردد على مسامعي.. صداها يملأ



الشارع الذي أقف عند ناصيته.. لقد تغيرت صفتي الآن.. أُضيف إليها الجنون.. في هذه اللحظة توهمت بأن أحدهم يقف بقربي.. يُخيّرني بين أمرين.. الموت أو الجنون.. الجنون أو الموت..

أيهما أختار.. قولا لي..

أنا وطاهر نراقب فقط دون أن يصدر عنا أي شي..

راح يدور في زوايا الغرفة وهو يردد:

الموت أو الجنون...

الجنون أو الموت...



III

ساعات قليلة تفصلني عن انقضاء نهاري الأخير. ساعتان أو أقل وتبدأ ليلتي الختامية. جريان الوقت السريع لا يسمح لي بالتفاوض معه. استمراريته لا تلتفت إلى ما أكابده. كأن الوقت في حالة سباق معي. أقف في مركز الدائرة وهو يلّف حولي بسرعة هائلة. أومئ له بكلتا يديّ طالباً منه أن يتوقف. لا يُعير أيّة أهمية لما أقوم به ويستمر بدورانه حتى أصابني الدوار. الزمن لا وجه له. لا قلب له ولا مشاعر. لو كان له قلب لترفق بحالي. لخفف من حركته قليلاً. لكنه لا يأبه لأمثالي من متسولي الوقت. أنا متسول وقت. أبحث عمن يرق لحالي ويمنحني قليلاً من الحياة. الآن عرفت وجه الشبه بيني وبين شريكيّ في الغرفة طاهر وأبي نؤاس...

قصة أبي نؤاس جعلتني أعود إلى الوراء. أعادتني إلى مستشفى المجانين. حديثه عن العودة إلى الحياة أعاد إلى ذاكرتي شيئا من الحيوية فكان أمامي هذا المشهد:

اسمي «عوّاد» والبعض يدعوني «عودة». لقد قمت باستبدال اسمي بعد عودتي للحياة. الناس اقتنعوا باسمي الجديد وراحوا ينادوني به ولكنهم رفضوا قبول قصة عودتي للحياة. حكايتي لم تجد أي استجابة حقيقية منهم. عندما قلت لهم بأني هربت من القبر ضحكوا علي. هل



ستضحك أنت عليّ أيضاً..ها.. قل لي.. هل ستمارس الضحك على عقلي. هل ستقول عني بأني ضحية «منازل الآخرة» كما قال عني الآخرون..

يقطع كلامه ويبتعد عني دون أن ينتظر مني إجابة لسؤاله الذي عرضه عليّ. على بعد عدّة أمتار يقف ويبدأ بمخاطبتي عن بعد: هل ستضحك أنت أيضاً.. ها...

في اليوم التالي أعاد معي نفس السيناريو. أعاد نفس الحكاية وبنفس الطريقة قائلاً «اسمي عوّاد». هو الوحيد الذي يعرّف باسمه في هذا المكان. هذه المرة لم أسمح له بالابتعاد عني وإطلاق السؤال عن بُعد كما فعل بالسابق وإنما أجبته حال مباشرته لي بالسؤال وقلت له:

ـ لن أضحك عليك ولكن قل لي لماذا هربت من القبر..؟

ـ وهل تريدني أن أبقى هناك.. ها.. لقد أصابني الضجر منذ اللحظة التي دخلت فيها إلى القبر...

يصمت للحظات ثم يضيف:

ـ أعلم بأنك ستسألني عن السبب الذي يدعو للضجر.. أدري بذلك فالكل يسأل نفس السؤال.. كلكم تفكرون بنفس الطريقة.. الكل يريد مني أن أبرر هروبي من القبر.. أخبرتهم بأني شعرت بالضجر.. مللت.. الواقع هناك يدعو إلى الكآبة.. أخبرتهم بذلك ولكنهم زادوا من تساؤلاتهم بعد أن ضحكوا.. هذا ما جعلني لا أصدق معهم.. أخفيت عنهم أمورا أخرى.. قمت بذلك لأنهم ضحكوا عليّ.. هل ستضحك عليّ أنت أيضاً.. ها.. هل ستضحك.. قل لي.. ها..



ـ تأكد بأني لن أضحك.. وأنا مصدق لكل ما تقوله...

ـ منذ اللحظات الأولى لدخولي القبر حاولت أن أتعرّف على جيراني.. فالأموات يتزاورون كما تعلم.. ارتأيت أن تكون المبادرة مني فانا ميت صالح يعرف مبادئ حسن الجوار.. خيرت نفسي بالبدء بالقبر الذي على يميني أو القبر الذي على يساري ثم حسمت الأمر باعتبار أهل اليمين هم المفضلون.. وأنا أحاول أن أحسم أمري بشأن المبادرة سمعت ضجيجاً ولغطاً يأتيني من الجانب الأيمن.. لم استطع أن أضع تفسيراً لما أسمعه فأنا جديد العهد في هذا المكان.. كنت مندفُعاً لتكوين علاقات اجتماعية في عالمي الجديد خصوصاً بعد أن حالفني الحظ ولم أتعرض للضغطة التي كثيراً ما كنت أسمع عنها عندما كنت على قيد الحياة.. إنها ضغطة القبر.. من المؤكد بأنك تعرفها.. ها.. تفاجأت بعدم شمولي بتلك الضغطة وقد علمت بعد ذلك أن سبب إعفائي منها يعود لكون وفاتي قد حدثت ما بين زوال الشمس من يوم الخميس إلى زوال الشمس من يوم الجمعة.. رغم إني أنزعج كثيرا من الضوضاء ولكني قررت تجاوز ذلك في سبيل التعرّف على جاري اليميني.. حين اقتربت من قبره كان هناك تزاحم هائل لا يمكن تصوره.. أعداد هائلة من مخلوقات لم أرَ مثلها في السابق تتدافع عند عتبة قبر الجار اليميني.. حاولت أن أشق لي طريقاً بين تلك الجموع الغفيرة غير القابلة للإحصاء.. سقطت لأكثر من مرة وكدت أن أُسحق بالأقدام لولا إنني تداركت الموقف وتراجعت إلى الوراء...

ـ ما الذي يجري...؟



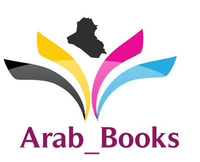
سألت أحد أولئك المتزاحمين والذي أجابني بأنفاس لاهثة وهو لا يعيرني نظرة من عينيه لأنه مشغول بأمر الدخول إلى القبر.. أخبرني بمعلومة أدهشتني وجعلتني أعود إلى قبري خائباً...

قال لي بأنه وزملاءه الملائكة البالغ عددهم سبعون ألفا قد جاؤوا لزيارة هذا الميت وإن زيارتهم ستتكرر كل يوم وعندما سألته عن السبب الذي يجعل هذا الميت على هذا القدر من الأهمية قال لأنه قد صام اثني عشر يوماً من شهر شعبان...

أرى ملامح وجهك قد تغيرت.. هل ستضحك.. ها.. قل لي هل ستضحك..؟

ـ تأكد بأني لن أضحك.. أكمل...

ـ بعد أن رجعت إلى قبري قلت لنفسي بأن عليّ التريث بموضوع التزاور.. قضية السبعين ألف ملاك أصابتني بخيبة الأمل وتركت أثراً سلبياً في نفسي الداخلة حديثاً إلى عالم الأموات.. رغم إصراري على إلغاء الفكرة إلا إن المدّة التي أمضيتها متمدداً في قبري أشعرتني بالكآبة فأنا لا أطيق العزلة.. لا أحبذ أن أكون وحيداً في قبر مظلم.. هذا ما جعلني أعود مضطرا إلى فكرة زيارة الجيران.. حزمت أمري باتجاه الجار اليساري هذه المرّة.. قلت في داخلي (إذا ضاعت فرصة اليمين فعلينا التوجه إلى اليسار).. توجهت إلى جاري الآخر في سبيل نسيان تجربة الزيارة اليمينية الفاشلة.. حين وصلت إلى قبره خالجتني بعض الأفكار الطارئة عن الكيفية التي سأتعامل بها معه.. العلاقات بين الأموات كيف تكون.. أساليب حديثهم.. هل هناك مجاملات بينهم.. ليس لديّ أي



أوليات عن ذلك.. بعد أن أصبحت قريباً منه عرفت انه مثلي حديث العهد بهذا المكان وإنه مدفون جديد. ما إن هممت بإلقاء التحية عليه حتى سمعت أصواتا بشرية قريبة من المكان.. تلك الأصوات تأتي من الأعلى.. ارتبكت وشعرت بالخوف.. لم استطع تمييز تلك الأصوات وفهم ما تقوله.. كانت مشوشة وغير واضحة.. بعد لحظات انبثقت نقطة ضوء من أعلى القبر.. قليل من الضوء تبرزه ظلمة القبر بدأ يتسع شيئاً فشيئاً.. بدأت أميّز أصوات معاول تطرق حول فتحة الضوء الصغيرة.. مع أصوات المعاول كنت أسمع حواراً متوتراً يدور في الأعلى.. من زاويتي التي أقف عندها تمكنت من رؤية ما يدور في الخارج.. عدد كبير من الناس يتقدمهم شخص نوراني صبيح الوجه عظيم الشأن وبأيدي جماعة منهم معاول.. سمعت ذلك الرجل يقول لهم:

ـ انبشوا هذا القبر واخرجوا هذا الخبيث..

بدأت المعاول تضرب الأرض بقوة.. اتسعت الفتحة في الأعلى وأصبحت الصورة أكثر وضوحاً أمامي.. كنت أراقب ما يجري بحذر شديد خشية أن يتم الانتباه إلى وجودي.. اسمع البعض يتساءل عن الرجل الذي أصدر أوامره بنبش القبر وكانت الإجابة سريعة من بعضهم الآخر بأنه أمير المؤمنين.. استمر نبش القبر واتسعت الفتحة وعندما وصل الأمر إلى مرحلة إخراج الجثة ظهر من بين الحاضرين رجل يبدو إنه حضر للتو وحين اقترب من الرجل النوراني سلم عليه قائلا:

ـ يا جداه أسألك أن تعفو عنه وتهبني تقصيره..

جاء الرد سريعاً:



ـ تعلم إن هذا الفاسق الفاجر كان يشرب الخمر..؟

ـ نعم ولكنه أوصى عند وفاته أن يدفن في جواري فارجو منك العفو عنه...

أجابه الرجل النوراني:

ـ وهبتك جرائمه...

بعد هذه العبارة التي أسقطت الجرائم عن الميت السكير غادر الرجل النوراني المكان وتبعه جميع الحضور ما عدا الأشخاص المكلفين بالنبش حيث كان عليهم إعادة ردم ما تم حفره.. كانا اثنين.. بعد عدة دقائق سمعت أحدهما يقول للآخر:

ـ لنسترح قليلاً وبعد ذلك نُكمل ردم القبر..

حين تأكدت من ابتعادهما عن فوهة القبر أخرجت رأسي من الفتحة.. رأيتهما يجلسان عند قبر بعيد وظهراهما باتجاهي.. وجدت في ذلك فرصتي المناسبة.. خرجت من القبر وهربت دون أن ينتبهوا لي..



IV

ها قد حل الظلام. ظلام ليلتي الأخيرة في الحياة. انتهى قياس الوقت بالأيام وتحول العد بالساعات. جسمي عادت إليه حيويته ولم يعد للحمّى أثر فيه. قد تكون هي صحوة الموت التي كنت أسمع عنها في السابق. الزمن بدأ مجراه يتغير. لا أعرف السبب في ذلك. حركة الوقت صارت أكثر سرعة. أستمع إلى الخيارات التي يطرحها أبو نؤاس على نفسه والتي لم ينقطع عن ترديدها منذ عودته والى الآن دون أن يحسم أمره بشأنها. تمنيت لو كنت أملك نفس الخيار. بعض الأحيان يكون الزمن عطوفاً بالإنسان حين يمنحهُ حق الاختيار. ما يثير أسفي إن هذا العطف لم يقترب مني أنا نصف النبي. ساعات قليلة تفصلني عن العدم. خيبة الأمل الكبرى إنني لا أمتلك جرأة الإعلان عن ساعة الصفر....

يبدو طاهر متأثراً بما أخبرته به. نظراته لي تكشف ذلك التأثر. موضوعي بالنسبة له قد يكون فيه نسبة من الشك. مجرد نبوءة ليست حتمية قد تتحقق وقد لا تتحقق. بالإضافة إلى أن تفاصيلها لم تصل إليه بصورة كاملة. هذا الخواطر التي افترضها أنا نيابة عنه ربما تحمل معها أفكارا ذات طابع إيجابي. أقول ذلك لأني منعت نفسي من إطلاعه على القدر الحتمي الذي تحدد بحقنة جماعة «ظهر الدين»...



أعاين شركائي في الغرفة وأكوّن تصورات لحالتهم عندما تحين ساعة الصفر. تخيلات متنوعة تمر بذهني. أتصور منظري وأنا بلا روح. هل سأكون مخيفاً لمن يراني. طاهر وأبو نؤاس والطفل اللقيط كيف سيتعاملون مع حادثة موتي...

ساعات الليل الأولى مضت سريعاً. فشلت في ضبط سياقات التعامل معها. في الأغلب كنت أحاول أن أكون قريباً من الطفل. حاجتي النفسية تجاهه سيطرت عليّ تماماً. الوقت المتبقي لي من الحياة أحاول استثماره في الحديث معه. أنها المرحلة الأصعب في التجربة...

حالة الطفل هذه الليلة مختلفة تماماً عن الليالي السابقة. كان في غاية الهدوء والوداعة. إنها الليلة الأولى التي لا يبكي فيها. عيناه موجهتان لي. كأنهما تطلبان مني عدم الرحيل. طاهر يراقبنا بصمت أما أبو نؤاس فما زال مشغولاً بخياراته الوجودية. كنت قد طلبت من طاهر أن لا يخرج هذه الليلة. أخبرته بأني سأغادر الفندق بعد منتصف الليل وطلبت منه أن يبقى قريباً من الطفل...

هذه الليلة مختلفة عن سابقاتها. لابد إن نزلاء الفندق في حيرة من أمرهم ويتساءلون عن سر الهدوء الذي يسود الفندق. أين اختفى الصوت الذي يزعجهم ويحرمهم من النوم في كل ليلة. ما الذي يدور في تفكيرهم الآن وهم يفتقدون البكاء الليلي الذي كان يقظ مضجعهم في مثل هذا الوقت من كل ليلة. عيون الطفل المشعة بالبراءة تبعث إجابة مختصرة عن هذه الأسئلة. الوحيد الذي يلتقط هذه الإجابة هو أنا. التقطها لإدراكي بأنها تعنيني وحدي. لا أحد يفهمها غيري. هذا الهدوء من أجلي أنا فقط...



يريد الطفل أن تكون اللحظات الأخيرة التي نعيشها سوية بعيدة عن التراجيديا. هو أيضاً يبحث عن إجابات تخص مصيره. نظراته تصرّح بذلك. تقول بأن الاعتراض لم يعد مجدياً. يجب أن تكون هناك هدنة مع الحياة ولو لليلة واحدة فقط...

مع تقدم الوقت يتدفق تيار الأسئلة. تتيه روحي في زحام الاستفهامات الطفولية. تدفقها العارم لا يمنحني الوقت الكافي لتهيئة الإجابات. أقف في منتصف جادة التساؤلات رافعاً يديّ باستغاثة العاجزْ. أقول للطفل: لا تقلق.. من بعدي ستكون بأيادٍ أمينة.. أطمئنك بأن هناك من لا يتخلّى عنك.. حتى وإن تخلّى عنك جميع البشر فأنه سيكون معك.. الحياة لن تتوقف.. الله معنا.. اجعل ثقتك به وحده...

اسمعني يا نبي المستقبل.. هذا اللقاء هو الأخير بيننا.. اترك أسئلتك على رف الزمن.. هو من سيجيب عليها.. نحن لا نمتلك إجابات كافية.. ما عاد بإمكاني البقاء معك فترة أطول.. عليّ أن أغادر الآن...

أترك الطفل للحظات. التفت إلى ما حولي فأجد أبا نؤاس يغطي جسده بالكامل بالبطانية. حتى وجهه لم يكن ظاهراً يبدو انه قد نام. طاهر في حالة انهيار تام. اقتربت منه وقلت:

ـ سأغادر ولم أعرف شيئاً عنك...

يصمت... أضع يدي بيده وأضيف:

ـ أكرر عليك ما طلبته منك سابقاً.. اعتنِ بهذا الطفل.. هو أمانة لديك...



يتأملني طاهر وفي عينيه دموع محبوسة. لم ينطق بأي كلمة. [illegible] يتململ. بعد ذلك لم يتمالك نفسه. رمى بنفسه عليّ. احتضنني و[illegible] بالنحيب...

ـ لا بد من نهاية.. قانون الحياة هكذا ينص...

أقول له ذلك وأفلت من ذراعيه اللتين تعصرانني بقوة. بضع خطوات أخطوها باتجاه الباب. ألتفت إلى طاهر الواقف كالتمثال. أتراجع خطوتين إلى الوراء. أقف قبالته. أكرر عليه وصيتي:

ـ أوصيك بأبي نؤاس أيضاً.. إنه مسكين...

يمسح طاهر دموعه المنسابة على لحيته البيضاء الكثة ويحرك رأسه لي بإشارة تشبه إشارات الصُم. لا إراديا تقودني خطواتي نحو الطفل. تدهشني نظراته المتشبثة بي. لا أتمالك نفسي أمام تلك النظرات. أشعر بالضعف. أعيش لحظة من الفراغ المطلق. لا أدري كم استمرت تلك اللحظة. بعدها وبحركة سريعة قبّلت جبهة الطفل وغادرت الغرفة كالهارب.



V

ـ أغلق الباب بهدوء...

ـ اقترب...

ـ لماذا جئت لمقابلتي..؟

أحاول أن التقط أنفاسي. أتأخر في استحضار الجواب..

ـ اقترب أكثر..

أمشي خطوتين ثم أقف. لا أجد القدرة على الاقتراب أكثر. أواجه كتلة مغطاة بالسواد. لا يظهر منه أي شيء. كان جالساً على كرسي صغير. وجهه للحائط وظهره لي. يضع على جسمه وشاحاً ينزل من أعلى رأسه ويغطي جسده بالكامل. كان هناك كرسي آخر وضع خلفه بصورة مستقيمة...

ـ اجلس على الكرسي..

هكذا خاطبني. بلغة آمرة. الصوت هو التعبير الوحيد الرابط بيننا. جسمه ساكن ولا تصدر عنه أيّة حركة. جلست بطريقة تشابه طريقته في الجلوس. كرر السؤال:

ـ لماذا جئت لمقابلتي..؟



صوته فيه بحة غريبة. جعلتني أضطر لسلوك التخيّل للوصول إلى الهيئة التي تناسب ذلك الصوت. تحت تأثير أجواء الغرفة بإضاءتها الخضراء الخافتة. انتبهت لضرورة التفاعل مع أسئلته فقلت:

ـ أرغب بالتكلم معك...

ـ وهل يرغب أحد من البشر بالتكلم مع الشيطان..!

ـ الكل يتمنى ذلك.. ولكن الفكرة غير محتملة لدى أغلب البشر.. الكل يسمع بك ولكن احتمالية اللقاء بك غير واردة في ذهن البشرية...

ـ أنتم البشر تحملون صورة سيئة عني... أليس كذلك..؟

ـ هذا صحيح.. ولكنا لا ذنب لنا بذلك.. أنت تمثل واحدة من الأفكار القسرية التي زُرعت عُنوة في عقول البشر..

ـ ياه.. مازالوا يحملون عني تلك الصورة السوداء.. رغم إني غادرتهم نهائياً ولم أعد اقترب لأحد منهم...

ـ متلازمة الشر مرتبطة بك.. إنهم يربطون بينك وبين كل ما هو سلبي في هذه الحياة...

ـ البشر يسقطون عليّ ذواتهم وأفعالهم الشريرة.. نفسهم الأمّارة بالسوء تفعل ما تفعل ثم تحمّلني المسؤولية..

ـ ذلك بسببك.. ألم تطلب من الرب في يوم من الأيام أن يمنحك دور الغواية...

ـ كان ذلك في مرحلة ما.. لقد انتهت تلك المرحلة.. كل شيء تغير.. ها أنت تراني رهين عزلتي...



أسكت ولا أعرف كيف أواصل الحوار معه. يضيف هو:

ـ أنا الفكرة الملعونة على امتداد التاريخ.. مجرد فكرة تتقاذفها أدمغة البشر بعنف.. لا أحد يعرف حقيقتي.. لا أحد...

ـ وما هي حقيقتك...؟

ـ هل جئت إلى هنا لتسألني عن ذلك.. أيها الإنسان..

تغير نبرة صوته ولّد في نفسي شيئاً من الرهبة. أسندت ظهري إلى الكرسي بهدوء لكي لا أشعره باضطرابي.

ـ جئت لتسألني عن ذلك بعد كل ما فعلته بي..

صوته يرتفع. يبدو أن سؤالي قد أزعجه. في سبيل التخفيف من توتره بادرت بسؤاله:

ـ وما الذي فعله بك الإنسان..؟

ـ لقد أفسد معناي.. أخرجني من عوالمي التي كنت أستحقها.. أنهى قيمتي في الوجود.. قلب رمزيتي من الخير المحض إلى الشر المحض..

ـ هل تريد القول بأنك ضحية للإنسان..؟

يتأوه. يسكت للحظات ثم يقول:

ـ أنت تعيدني بسؤالك هذا إلى ذلك اليوم العصيب.. اليوم الذي شهد تحولي من كائن نموذجي إلى كائن منبوذ..

يطرق برأسه. تخرج من صدره حسرة مكبوتة. يضيف بصوت منكسر:

ـ لقد انتهى كل شيء..



ـ تبدو متأسفاً على أشياء كثيرة..؟

يستفزه سؤالي فيرفع رأسه قليلاً. ألمح حركة بسيطة من إحدى يديه. يعاجلني بالإجابة:

ـ الأسف لا يعني الهزيمة.. ما يهمني رغم كل شيء إن نظرتي إلى الإنسان باقية كما هي.. في ذلك اليوم المشئوم أردنا أنا وزملائي أن نلفت نظر الرب إلى سلبية الإنسان. قلنا له بأنه يفسد ويسفك الدماء بإرادته.. بدون أن يغويه أحد ويحرّضه على ذلك.. سلبيته ذاتية وليست مستوردة.. قلنا له ذلك قبل واقعة الرفض التي حدثت بعد ذلك.. أقصد واقعة رفضي السجود لآدم.. جميع الملائكة يعلمون بذلك وليس أنا وحدي.. ألا يعتبر ذلك دليلاً قاطعاً على وجود نسبة الشر في نفس الإنسان سواء أكنت أنا موجوداً أم غير موجود..

ـ هل تريد القول بأنك لا دور لك فيما يفعله الإنسان..؟

ـ الإنسان شيطان نفسه.. نعم لقد طلبت من الرب أن يسمح لي بغوايته ولكني ارتكبت خطأً فادحاً عندما قمت بذلك.. ما قمت به كان ردّة فعل غير مدروسة.. اعتقدت حينها بأني سأقوم بردّ اعتباري أن تمكنت من غواية الناس.. منذ بدء الخليقة والى الآن وأنا أتعامل مع الإنسان.. حاولت غوايته بكل الطرق ولكن ما الذي خرجت به نتيجة هذه المدّة الطويلة من التعامل.. الإنسان هو شيطان نفسه.. هذا ما خرجت به..

يسود الغرفة صمت غير متفق عليه.. أنا صامت وهو أيضاً صامت.. أنا أنتظر منه المزيد وهو ينتظر مني ما يحفزه على مواصلة البوح..



ـ الإنسان يتعوذ مني والأجدر به أن يتعوذ من نفسه..

ـ أنت تحمل نظرة سوداوية عن الإنسان...

ـ يحق لي ذلك فهو من قلب موازين حياتي.. لقد ألحق الضرر بي مرّتين.. المرّة الأولى عندما تسبب بإخراجي من الجنة والمرّة الثانية عندما أفشل مهمتي في الغواية.. خيبة الأمل الكبرى التي أحبطتني عندما وصلت لنتيجة عدم جدوى التعامل مع الإنسان.. الإنسان ليس بحاجة لمن يغويه.. إنه خبير في الشيطنة.. شيطنته أوصلتني إلى هذا المصير...

وصل إلى هذه الكلمات وبدأ صوته بالحشرجة. أكمل وكأنه على وشك البكاء:

ـ أنا لم يعد لي وجود.. ما عدت كائناً مؤثراً.. كل ما تبقى لي هو الاسم فقط.. اسمٌ مقترن بكل خطيئة.. يتنقل مع كل مساوئ البشرية على الرغم من كون صاحبه قابعا في عزلته في هذه الغرفة البائسة التي تراها...

أنصتُ إلى حديثه وفي داخلي أكتم رغبة شديدة. كنت أتمنى لو كنت أمتلك الجرأة على طلبها منه. أمنيتي تلك هي أن يسمح لي بأن أرى وجهه. ما زلت أحاول أن أرسم له في مخيلتي صورة تناسب صوته الأجش. الصور التي رسمتها لم تلغِ فكرة الطلب الذي أتحرج بالبوح به. كلما رأيت جسمه يتحرك ظننت بأنَه سيستدير نحوي وأكون معه وجها لوجه. طريقته في الكلام توحي بأن هناك كما متراكما بداخله من الأمور التي يريد الإفضاء بها...



أراه يتململ عندما ينقطع الحديث بيننا. يستثمر صمتي فيستمر بإخراج ما بداخله من لواعج. يتحدث معي ويكثر من ترديد كلمة «الإنسان» استنتجت بأن هذه الكلمة تشكل عقدته الوجودية. طريقته في الكلام توحي بأن هذه هي المرّة الأولى التي يواجه فيها بشراً. يكرر السؤال:

ـ لماذا جئت إلى هنا..؟

ـ لأتعرف عليك...

ـ هل هذا الأمر مهم بالنسبة لك..؟

ـ صورتك غير واضحة عندي.. كنت دائما أفكر بك.. أحاول الوصول إلى فكرة دقيقة تحسم موضوع وجودك ولكنني كنت أفشل.. شاءت الأقدار أن التقي بك في آخر ليلة من حياتي..

تنتابه حالة من الصمت فسّرتها بأنه يسعى لاستيعاب ما سمعه مني. بعدها قال متعجباً:

ـ آخر ليلة في حياتك..!

ـ نعم....

ـ ما الذي يدعوك لقول ذلك..؟

ـ إنني أحمل قصة طويلة وقد تكون غريبة بعض الشيء.. لا أعتقد إنك على استعداد لسماعها..

ـ لماذا تتوقع ذلك..؟

ـ لأنها قصة تتعلق بإنسان.. وأنت تحمل نظرة غير محببة عن الإنسان..



ـ أنا أحمل فكرة سلبية عن الإنسان.. لا أنكر ذلك.. ولكن لا هذا لا يمنع من التحاور معه.. ما يدعوني إلى الاستماع إليك هو إنك استمعت إليّ.. لهذا أنا ملزم بمقابلتك بالمثل لكي نكون في مستوى واحد.. والآن كلمني عن قصتك...

ـ أنا إنسان.. مشكلتي تكمن في هذا التوصيف.. مشكلتي هي كوني «إنسانا أدنى».. هكذا وجدت نفسي في الحياة.. أعيش في واقع الإنسانية فيه ليست بمستوى واحد.. وجدت نفسي ضمن تصنيف البشر المُهملِين الذين لم تلتفت لهم الحياة فكانوا الطرف النقيض للإنسان الأعلى.. لابد أن لديك فكرة عنه. أقصد ذلك الإنسان الذي استأثر بكل شيء في الوجود.. حتى الله أراد أن يكون له وحده..

أواصل الكلام دون أن أعرف نمط الاستجابة التي تحدث لدى مستمعي لكوني لا أرى وجهه. لم يقاطعني واكتفى بالسكوت. أفترِض انه يهتم لما يصدر عني فأسترسل بالحديث:

ـ في النهاية كان القدر لطيفاً معي عندما رتّب لي لقاءً مع الله.. في ذلك اللقاء أخبرت الله بكل شيء...

ـ وكيف التقيت به...؟

خرج من سكونه بهذا السؤال..

ـ لقد زارني في المنام..

ـ وبماذا خرجت من تلك الزيارة..؟

ـ طلبت منه أن أكون نبياً...



ـ هههههههه

الشيطان يضحك. قهقهته استفزتني..

ـ لماذا تضحك..؟

ـ أعتذر.. لم أقصد الإساءة إليك..

الشيطان يعتذر مني ولكن ذلك لم يكن كافياً لرد الاعتبار. كررت السؤال بطريقة أخرى:

ـ ما الذي يضحكك فيما قلته..؟

ـ سأقول لك ما الذي جعلني أضحك فيما بعد.. ولكن أخبرني هل استجاب الله لطلبك...؟

ـ نعم.. ولكنه وضع شرطاً وطلب مني تنفيذه كمقابل للنبوة...

ـ شرط.. وما كان شرط الله..؟

ـ اشترط عليّ أن أقوم بسرقة عمامة.. قال لي إذا نفذت هذا الشرط سأمنحك الفرصة..

ـ ذلك الشرط بسيط جداً...

ـ نعم كان شرطاً بسيطاً ولكني فشلت في تنفيذه.. عندما قمت بالتنفيذ ارتكبت خطأً جسيماً مما أدّى إلى ضياع الفرصة..

ـ قصتك تحمل جانب الإثارة وفيها الكثير من الغرابة..

ـ لقد سرقت العمامة الخطأ وتم إلقاء القبض عليّ متلبساً بالسرقة.. يومها أخبرتهم بالحقيقة.. قلت لهم بأني أنفذ ما اشترطه عليّ الرب ولكنهم لم يصدقوني.. قالوا بأني مجنون وأرسلوني إلى مستشفى



المجانين.. أمضيت هناك مدّة من الزمن ثم ساعدني أحد العاملين في المستشفى على الهرب ولكنه قبل أن أغادر المستشفى أخبرني بأني سأموت بعد أسبوع...

يتأوه الشيطان ويقول:

ـ وكيف عرف بأنك ستموت بعد أسبوع..؟

ـ أخبرني بأن أحد الأطباء قد قام بزرقي بحقنة مميتة وإن أثر هذه الحقنة يظهر بعد سبعة أيام.. لقد مضت ستة أيام من تلك الأيام السبعة وهذه هي ليلتي الأخيرة في الحياة..

ـ قصتك مؤلمة حقاً.. هل تسمح لي بسؤال...

ـ تفضل... سل ما شئت...

ـ لماذا أردت أن تكون نبياً...؟

ـ أردت تحرير الله...

تبدر حركة غير طبيعية منه. يسألني بسرعة:

ـ تحرير الله.. وهل الله معتقل..؟

ـ نعم.. أردت تحريره من الأديان.. الأديان تحتكر الله.. أردت أن أجعل الله متاحاً للجميع.. يمكن الوصول إليه بدون مراسيم ولا طقوس ولا عبادات وبدون وسطاء.. هذا ما أردته فقط...

تسود حالة من الصمت لعدّة لحظات. يقطعها الشيطان بقوله:

ـ أتدري لماذا ضحكت قبل قليل..



ـ لم أنسَ ذلك.. في قرارة نفسي كنت أنوي سؤالك عن السبب الذي جعلك تضحك قبل نهاية لقائنا..

ـ ما جعلني أضحك هو فكرة النبوة.. كلماتك أعادتني إلى الماضي.. إلى تجارب عديدة سبق لي أن خضتها مع العديد من الأنبياء.. هل تصدقني إذا قلت لك بأني في يوم من الأيام قد قمت بتقديم نصيحة لأحد الأنبياء..

ـ ربما كنت تحاول غوايته في سبيل حرفه عن رسالته..

ـ لا ليس كذلك.. لقد قدمت له نصيحة صادقة..

ـ وما الذي يجعل الشيطان يقدم النصح للإنسان..؟

ـ حسناً دعني أتذكر تفاصيل ما حدث في ذلك اليوم..

حديثه بدأ يتسم بالحيوية. خشونة صوته أصبحت أقل حدّة. يبدو أن حديثي معه قد أخرجه من حالة الكآبة التي كان يعيشها. تركته يستذكر القصة التي يريد روايتها لي. لم يستمر طويلاً في ذلك..

ـ نعم تذكرت ذلك النبي.. انه أطول الأنبياء عمراً.. ذلك النبي له مواقف رائعة.. مواقفه جعلتني أتخذ منه موقفاً ايجابياً.. حتى إني ذهبت إليه في إحدى المرات وقلت له: إن لك عندي يداً عظيمة فانتصحني فأنا لا أخونك.. حينها استغرب هو من موقفي تجاهه.. بقي متحيراً لا يدري ماذا يفعل حتى جاءه الأمر من السماء يطلب منه أن لا يتحرّج في التعامل والكلام معي.. قال لي: تكلم.. وبعد أن قدمت له النصيحة سألني: ما اليد العظيمة التي صنعت فقلت له: إنك دعوت الله على أهل الأرض



فألحقتهم في ساعة بالنار فصرت أنا فارغاً ولولا دعوتك لشُغلت بهم دهراً طويلاً..

ـ ماذا ترتب على دعاء ذلك النبي..؟

ـ بناءً على ذلك الدعاء أعقم الله أصلاب الرجال وأرحام النساء فلبثوا أربعين سنة لا يولد لهم وقحطوا في تلك الأربعين سنة حتى هلكت أموالهم وأصابهم الجهد والبلاء وبعد ذلك قضى عليهم بالطوفان..

لا أمتلك تعقيباً أرد به على ما قاله. هو لم ينتظر ذلك مني وإنما عاد ليقول:

ـ ليس هذا فقط.. هناك حادثة أخرى جعلتني أعجب بذلك النبي أيما إعجاب.. لا أنسى أبداً ذلك اليوم الذي سمعته فيه يدعو على أولاده..

ـ نبي يدعو على أولاده.. كيف ذلك !

ـ الغرابة ليست في فعل الدعاء وإنما في السبب الذي جعله يدعو على أبنائه.. في أحد الأيام كان ذلك النبي نائماً في السفينة فهبّت ريح فكشفت عورته وكان اثنان من أولاده بقربه فضحكا عندما شاهدا عورته وكان هنالك ابن ثالث كان حاضرا أيضاً فزجرهما ونهاهما عن الضحك وعندما انتبه النبي من النوم ورآهما يضحكان قال ما هذا فأخبره الابن الثالث بما حدث عندها رفع النبي يديه إلى السماء ودعا على ابنه الأول قائلاً: اللهم غير ماء صلبه حتى لا يولد له إلا السودان ثم نظر إلى الثاني وقال: اللهم غير ماء صلبه.. كل ذلك لأنهم ضحكوا عندما رأوا عورته.. تخيّل...



يطلق ضحكة بسيطة ثم يقول:

ـ والآن قل لي.. لو قدر لك أن تكون نبياً هل ستفعل مثلما فعل من سبقك من الأنبياء تجاه أبناء جنسهم..؟

ـ ماذا تقصد..؟

ـ أقصد في حالة عدم استجابتهم لدعوتك هل ستطلب من الله أن ينتقم منهم كما فعل بعض الأنبياء السابقين...

ـ أنا لا أؤمن بأن الله تنطبق عليه صفة المنتقم.. الفكرة التي أحملها عن الله مختلفة جداً.. لقد أوجد لنا التاريخ نسخة من الله أنا أعتقد بأنها مزورة.. هناك فرق كبير بين الله القديم والله الحالي.. الله القديم الذي جاءت به الأديان مختلف تماماً عن الله الذي ندركه حالياً..

ـ وما وجه الاختلاف..؟

ـ الاختلاف يبدو واضحاً من خلال طريقة تعامله مع البشر.. تقول لنا الأديان في كتبها إن الله قد مارس الانتقام ضد البشرية لأكثر من مرة.. كان ينتقم من البشر وينزل بهم عقوبات قاسية بسبب ارتكابهم لأفعال قد لا تتناسب مع حجم العقوبة.. الله الحالي لا يشبه ذلك الإله التدميري المنتقم الذي جاءت صورته في كتب الأديان.. الله الحالي لا يتدخل وليست لديه أيّة ردّة فعل تجاه البشرية على الرغم من وجود ممارسات مشابهة للممارسات التي وقعت في الماضي.. هذا الأمر يدعونا للتوقف عنده والتنبيه له.. أليس كذلك..؟

ـ ما الذي تريد أن تصل إليه.. وضّح أكثر لو سمحت..

ـ من ذلك نستنتج أمرين.. أما يكون الله قد تغيّر أو إن ما روته الأديان في كتبها لا أساس له من الصحة..



السلّم نزولاً إلى الطابق الأرضي. كانت الصدمة تطاردني حتى وصلت
إلى المرآة المُعلّقة خلف مقعد مدير الفندق والتي كنت أتحاشى النظر
إليها في السابق. وقفت أمامها مذهولاً. ارتجفت. كاد أن يغشى عليّ
حين رأيت ذلك الوجه ينعكس أمامي في المرآة..



VI

بأي طريق اتجهت.. لا أدري. المطر يواصل الهطول برشقات خفيفة. غطاء الرأس الذي أضعه عندما أخرج كل ليلة نسيته داخل الفندق. رأسي المكشوف سمح لحبات المطر بالتسلل إلى ثنايا شعري الأشعث...

أقطع الشوارع بخطوات التائه الداخل إلى مدينة لم يسبق له زيارتها سابقا. مع كل خطوة هناك تساؤل. أين أنا والى أين أتجه..؟ أيعقل أن يتجه الإنسان إلى موته.. أن يذهب إليه بإرادته...؟

لا شيء في المدينة يتحسس خطوات الغريب الذي يسير في شوارعها الرطبة. فقط التساؤلات المصاحبة لخطواتي البطيئة والتي تمثل سلوكا متعمدا للرغبة بالتمويه...

أبحث عن أي ملمس يُشعرني بأهميتي. أية جهة تدرك ما سيحدث هذه الليلة. لابد من وجود شاهد. الحوادث بحاجة إلى من يشهدها. نهايات الشوارع تسلمني إلى بعضها وأنا أبحث عن الشاهد الذي يسجل تفاصيل هذه الليلة. أي عين تضعني في خانة ما يمكن استذكاره. أواصل المسير بدون هدف. الشوارع مشبعة برائحة المطر. لا حياة تحت المطر. أنا الوحيد الذي يدلُ على الحياة. أنظر إلى نوافذ البيوت التي أطفأت أنوارها. لا أحد يعلم بما سيحدث هذه الليلة. كل أهل هذه المدينة



ينعمون بالدفء والنوم في هذا الوقت المتأخر من الليل. أنا العنصر الوحيد المتحرك في هذه السكونية الرهيبة. أستشعر هذا السكون. أتعامل معه كوسيلة إشهار للأهمية. رغم الشعور بالإجحاف والغبن ولكن لابد من التسليم لما كتبته يد القدر...

قد أكون محظوظاً لكون موعد رحيلي كان معلوماً لدي. رأفة القدر بي تلخصت بكونه جنبني هول المفاجأة. أعلل نفسي بهذه الأفكار التي تحمل في طياتها طابع المواساة وأنا أقطع المسافات مشيا في طرق المدينة المظلمة...

الأمر لا يتعلق باختبار القدرات. انتبهت لذلك وأنا أقف تحت شجرة الله. أغصانها المبللة بماء المطر أظهرتها بهيئة مختلفة هذه الليلة. حركتها أيضا لم تكن كالمعتاد. مقاومتها للرياح تبدو ضعيفة. أقف أمامها رافعاً رأسي باتجاهها. ظهري للجامع الكبير. لحظة صمت غريبة سادت بيننا. صمت متبادل. شعرت بأن شجرة الله متفاجئة من شيء ما. تريدني أن أبادر بالكلام بخصوص ذلك الشيء ولكني أقف أمامها كالتمثال رهين صمتي وانكساري وعجزي عن التعبير...

إحساسها بضعفي وانكساري جعل أغصانها تزيد من انحناءاتها المستجيبة للرياح كأنها تطلب مني أن أقترب منها أكثر. استجبت لرغبتها. اقتربت منها وأدرت ذراعيّ على جذعها واحتضنتها...

أخبرتها بأنني كنت مريضاً في الليلة الماضية. أخبرتها أيضاً بأن قارئة الأقدار قد ماتت. قلت لها كل ذلك وأنا أمسح قطرات المطر عن جبيني وعن جذعها الرطب...



المطر ينزل بوتيرة غير مستقرة. في الأغلب كانت قطراته ترتطم بالأرض بهدوء. أنها الليلة الأولى التي ينزل فيها المطر. السماء تبكي. دموعها بدأت تنهمر منذ ساعات الليل الأولى. منسوب الوجل يتصاعد في داخلي...

أتأمل مشهد دموع السماء المنهمرة على الأضواء المنبعثة من الجامع. يُفزعني مقدار الحزن النازل من الأعلى. أضع رأسي بين ركبتيّ لعدّة لحظات. أغمض عيوني في محاولة لاستعادة التوازن النفسي والتهيؤ للخطوة المقبلة. تذكرت ليلتي الأولى التي جلست فيها في هذا المكان. يحضرني السؤال الذي طرحته في تلك الليلة عندما قلت: لماذا باب بيتك مغلق أيها الرب. في هذه الليلة سيفتح الباب. ولكنه ليس باب الجامع. الباب الذي سيفتح سأنتقل من خلاله إلى عوالم أخرى لا حياة فيها. الشجرة التي شهدت ذلك السؤال ستشهد هذه الليلة عملية نقلي من الحياة إلى العدم. هي الوحيدة التي رافقت رحلتي الفاشلة نحو النبوة. أرفع رأسي وأقول لها: لم يعد البكاء مجدياً.. الأنبياء يموتون ولكن الأشجار لا تموت. لذلك أطلب منك أن تكوني راوية هذه الليلة.. أنا أعلم بأنك حزينة.. ما سيحدث بعد قليل سيعمّق حالة الحزن.. ولكن لا بأس عليك أيتها النبية القديسة لا أريد أن أكذب عليك وأقول بأنني لست خائفا من اللقاء الرهيب الذي سيتم هذه الليلة.. هذا اللقاء أكبر من طاقتي.. لا قدرة لدي على مواجهته بمفردي.. أطلب منك أن تكوني معي عندما يحل الموت.. سبق لي أن طلبت من الله أن يكون موتي في هذا المكان وأملي أن يستجيب لطلبي.. لا أعلم التوقيت الدقيق الذي سيحضر فيه من سينهي المهمة.. في أي لحظة سيكون أمامي



طالباً تسليم الروح.. علينا أن نستعد لذلك. أن نتهيأ لقدومه.. أسألك أيتها الشجرة إن كنت تعرفين الجهة التي سيأتي منها.. إن كانت لديك معلومة فلا تبخلي بها عليّ رجاءً.. هل سينزل من السماء.. أم انه موجود على الأرض لأن عمله يتطلب الإقامة فيها.. ربما يكون موجودا بالقرب منا الآن منتظراً إعطاءه الضوء الأخضر.. هل تتوقعين أن يكون مقيماً في بيت الله.. إحساسي يخبرني بأنه قريب جداً مني.. لا تفصلني عنه سوى لحظات.. حالة التوقع التي أعيشها الآن تتطلب مني الاستعداد.. لا أريد أن أموت وأنا متوتر.. يجب أن استرخي.. أنا بحاجة إلى قليل من المؤازرة أيتها الشجرة القديسة.. أرجوك أن تقفي إلى جانبي.. في أيّة لحظة سيفاجئنا بحضوره.. يجب الاستعداد.. اسمعيني من فضلك.. سأتمدد على الرصيف لكي أكون متأهبا لقدومه.. ذلك سيسهل الأمر على الطرفين.. عليّ وعليه.. يقال إن قبض أرواح الأنبياء يسبب إحراجاً لملك الموت.. ولكني نبي مختلف.. لا أريد لملك الموت أن يشعر بالحرج.. سيجدني على أهبة الاستعداد لتسليم الروح...

على الرصيف المبلل أضع جسدي. وجهي مواجه للشجرة. المطر ينزل عمودياً عليهِ. بيت الله على الجهة اليسرى. أوّزع نظراتي ما بين الشجرة وبيت الله مترقباً مرحلة الاحتضار. طلباتي تتواصل. أكررها على الشجرة. بين لحظة وأخرى القي نظرة فاحصة على الجامع ثم أعود إلى شريكتي في هذه اللحظة التاريخية. رجوتها مرّة أخرى أن تنبّهني إذا لاحظت اقتراب ذلك الكائن مني. أنا الآن تحت المطر. أستقبل دموع السماء. السماء السوداء القاتمة تخطف فيها إشارات ضوئية سريعة على شكل خطوط متكسرة تظهر في اللوحة السوداء الممتدة أمام بصري...

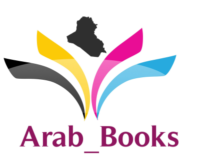


لم يمض وقت طويل حتى تلاشت حالة الاسترخاء السائدة. أصوات مُخيفة بدأت تصدر من السماء. الريح بدأت تعصف. الشجرة تهتز. المطر راح يتساقط بغزارة وبدون توقف. أعاين حركة الشجرة وتمايل أغصانها. نفسي تقول لي بان الشجرة تحاول إخباري بشيء ما. هناك شيء يقترب. شجرة الله تنبّهني. صوت الرعد يقصف مسمعي. جسمي المبتل بدأ يرتعش. لا أدري إن كان ارتجافي ناجما عن شدّة البرد أم عن شدّة الخوف. بدأت أفقد تركيزي. بركة من الماء تكونت تحت جسمي. تحولت إلى كتلة رطبة غير قادرة على الحراك...

ما زالت الحيرة تتحرك داخل ذهني. من أي جهة سيكون مقدمهُ..؟ من جهة اليمين.. من اليسار.. من الأعلى.. من اللا جهة.. تضيع تساؤلاتي في هذا الصخب العنيف. يومض البرق أمام عينيّ مكونا خطوطاً متموجة في السماء. مع ذلك البرق ألمح شيئاً قد نزل من السماء. حركة سريعة لم تتمكن عيناي من استيعابها. أغمضت عينيّ مرغماً. المطر يواصل صفع وجهي بلا هوادة. أتخيل الصورة. كيف ستكون ملامحه. ظلام كثيف وأصوات مرعبة وانتظار..

بدأت أسمع وقع أقدام ثقيلة تقترب. عيوني ما زالت مغلقة. الحركة أصبحت قريبة مني. أتحسس وطء تلك الأقدام واقترابها المرعب. شجاعتي تخونني كلما حاولت فتح عينيّ. من خلال الصوت الناتج عن ارتطام الأقدام بالأرض المبللة أدركت انه يقف عند رأسي الآن...

لقد توقف. لم تعد هناك حركة. لم أعد أسمع صوتا لها. صوت المطر الذي يزداد عنفاً هو السائد. أسبلت يديّ إلى جانبي جسدي. تستمر حالة



الترّقب لفترة لا أعرف مقدارها كان فيها قفص صدري يهتز بقوة جرّاء أنفاسي المتوترة. الروح. روحي. كيف سيتم قبضها..؟

تطول مدة الانتظار. لا شيء يحدث. أتشجع وأفتح عينيّ فأجد الكون غارقاً في ظلام عميق. لقد انقطع التيار الكهربائي. فقط أنوار الرعد تنير المكان بومضات متقطعة. قطرات المطر تنساب على وجهي. أجد صعوبة في فتح عينيّ. أحرّك يديّ لأتأكد بأني مازلت على قيد الحياة ثم أمسح المكان بنظرة سريعة مشوشة. لا أحد قربي. أشعر بأن جسدي قد التصق بالرصيف بفعل الماء الراكد تحتي. ماذا سأفعل...؟

صورة شجرة الله لم تعد واضحة. وأنا أحاول استعادة اتصالي بها طرأت ببالي فكرة سريعة أعادتني إلى الوراء. إلى نبوءة قارئة الأقدار بالتحديد. استعادة تلك النبوءة جعلتني أستغني عن إجابة شجرة الله..

نهضت من مكاني والصوت الأنثوي يهمس بأذني:

النهاية هناك.. في فندق المهملين...



الخطأ يتكرر،

حتى أنتم تخطئون..

أيها الملائكة.. !




Arab_Books

I

اكتفيت بإلقاء نظرة أخيرة على شجرة الله. خطاي المبللة بالخيبة حملتني باتجاه العودة. شعرت برغبة قوية لاحتضان شجرة الله التي أصبحت خلف ظهري. أن أعيد المشهد الحميم الذي حدث عند مقدمي هذه الليلة إلى هذا المكان الذي تمنيت أن يكون محلا لوفاتي. مشيت عدة خطوات وفكرة الموت تعاود الهجوم بين الحين والآخر على روحي المرتبكة...

وقفت على بُعد أمتار قليلة من الشجرة. قلت لها بأن الله لم يستجب لطلبي. نبوءة المرحومة قارئة الأقدار حددت النهاية وحددت أيضاً المكان الذي ستتم فيه...

توقف المطر ولكن الظلام ما زال يفرش جناحيه بقوة. الغيوم المتجمهرة في السماء وانقطاع التيار الكهربائي كانت أهم العوامل المساعدة لانعدام الرؤية. بالإضافة إلى الضعف الذي طرأ على بصري. أجر خطاي المنهكة في الظلام. أكثر من مرة دخلت في برك المياه المتجمعة على الإسفلت المتهرئ. ما جئت من أجله لم يتحقق. هذا ما جعل عودتي تحمل طابع الانكسار والإحباط...

كل شيء مشوش أمامي. معالم المدينة غير واضحة. الأبنية المبللة



يكسوها السواد المنعكس عن الظلام الكثيف. داخل نفسي كان الظلام كثيفا أيضاً. عيناي فقدتا نصف قواها. كنت نصف أعمى. تلوح أمامي أشياء لا أعلم إن كانت حقيقية أم إنها خدع بصرية. لم اعر اهتماماً لذلك. في هذه المرحلة الأشياء متساوية في نظري ما كان منها حقيقياً وما كان وهمياً. ربما يكون الوهم أكثر ملاءمة لوعيي المضطرب. الظلام والقلق جعل كل ذلك متساوياً. هذه الأمور بعيدة عن تفكيري حالياً. العودة هو ما يشغلني. إيابي إلى نقطة النهاية يجعل التفكير بما عداه ليس ذا أهمية...

أنا الآن أسير بالاتجاه المعاكس. الاتجاه المعاكس للحياة. تلك الحياة التي وضعتها نصب عيني في ذلك اليوم الذي قررت فيه أن أكون نبياً. الحياة التي أردت أن أحدث فيها نوعاً استثنائياً من التغيير. ها أنا أسير بالطريق المؤدي إلى نهايتها. نهايتي أنا وليس نهايتها. الحياة لن تنتهي ولن تتوقف...

أنا مرتبك. أتخبط في طريق التلاشي. أحاول التركيز فيما أمامي. أفرك عينيّ. أتحسس شعري وملابسي الرطبة. لا أدري لماذا ظهرت أمامي صورة «قسيم» في هذه اللحظة. لا ريب أن فكرة الموت هي التي جاءت بتلك الصورة. صورته وهو يوزع إيعازاته المحددة للمصير تبدو جلية أمامي الآن. أعود إلى ذلك اليوم. أتذكره بتفاصيله المعقدة. كلمات «قسيم» وهو يؤجلني إلى اليوم التالي ترنّ في أذني. يغالبني إحساس الندم في هذه اللحظة لأني تهربت من مصيري ولم أذهب في اليوم التالي إلى المكان الذي يتجمع فيه المحشورون. لا أدري ما الذي منعني من ذلك. المدة التي قضيتها في المستشفى أمضيتها متردداً بين الالتحاق بقيامة «قسيم» وبين التهرّب منها. في بداية كل يوم كنت أتخذ القرار



بالذهاب إلى تلك القيامة والوقوف تحت شجرة الحساب ولكني كنت أغيّر رأيي في اللحظات الأخيرة. في الأغلب كنت أتابع مشهد القيامة عن بعد. أقف بعيداً وأراقب المحشورين وهم يستلمون الايعازات من يد «قسيم». أشاهد كيف تتكون كل مجموعة. تبدأ بشخص واحد ثم يزداد العدد مع ازدياد الايعازات الصادرة من قسيم. أراقب كل ذلك وأنا اشعر بالجبن المخزي. ماذا لو كنت قد التحقت بتلك القيامة وعرفت مصيري. على الأقل لكنت الآن أحمل فكرة أولية عما يمكن أن ألاقيه بعد موتي الذي ينتظرني داخل أروقة فندق المهملين...

أسعى إلى ضبط قدراتي البصرية. أن أعي ما يقع عليه بصري. المدينة الغافية التي غسلها المطر تتجاهل خطواتي الضعيفة. أكثر من شارع قمت بعبوره بدون وعي كمن يلتف حول نفسه. يخيّل لي بأن العالم قد تحول إلى دوائر متداخلة. أمشي وأمشي وأمشي باتجاه الصباح الذي لا أرغب بلقائه...

على رصيف يعلوه سقف حديدي تم وضعه من قبل أصحاب الدكاكين انتبهت إلى وجود آخر. وجود سبق لي أن تعاملت معه من قبل. اقتربت أكثر. أتفحّص تلك المخلوقات المتقرفصة إلى جانب الجدار. إني اعرفهما. كيف لي أن أنسى تلك الحماقة التي صفعت وعيي في الليلة الأولى التي واجهت بها بيت الله. تلك الصدمة الفجائية التي هتكت ستر الليل. هاهما يظهران للمرة الثانية. الصورة مغوّشة ولكني متأكد بأنهما نفس الكلبين الذين مارسا الجنس أمام بيت الله في تلك الليلة. شاء القدر أن يرتب لي لقاء أخيراً بهما...



لم أشعر بأي محذور وأنا أدنو منهما. أصبحت قريباً جداً منهما. وجودي لم يفزعهما. ظهوري لم يحرّك سكونيتهما. هل وصلهما خبر رحيلي القريب فأدركا ضرورة التعامل معي بوديّة. لا لغة مشتركة بيننا ولكنني متأكد بأن هناك اشتراكا نوعيا يمكنه خلق حالة التوّحد بين كل المخلوقات. أتذكر تلك اللحظة الباهرة التي عزمت فيها على النباح حين شعرت بالذنب لتسببي بقطع اللحظة الاندماجية التي كانا يعيشانها. أعود إلى ذلك الإحساس العميق الذي كان يدفعني نحو الاعتذار. هذه فرصتي للتعويض. حتى وإن جاء الاعتذار متأخراً ولكنه يحقق لي أثراً نفسياً أنا في أشد الحاجةً إليه...

النظرات في مستوى واحد. تتضمن إيحاءات لا يمكن العبور عليها وتجاوزها. من نظراتهما فهمت أشياءً جعلتني أضع يديّ على الأرض وأجلس بنفس الطريقة التي يجلسان بها. أردت أن أتخلى عن بشريتي وان أكون من نوعهما لعلّي أحظى بقبول الاعتذار. في السابق كنت أعتقد بأن كل شيء قد أُنجز وما عاد هناك ما يقال ولكن يبدو إننا مدينون بالكثير من الاعتذارات. أتمنى أن يكون لدي شيء من نوازعكم الشعورية أو عواطفكم أو تفكيركم. شيء قليل من ذلك استعين به في صياغة الأسف الذي أنوي وضعه بين أيديكم في هذه الساعة. لابد إنكم تحملون انطباعاً غير محبب عني. ذلك أمر لا مفر منه فنحن في الأغلب ماهرون في ارتكاب الأخطاء. أرجو أن تقبلوا اعتذاري فأنا إنسان. صفة الإنسان التي أحملها هي ما جعلكم تجلسون في العراء في هذا الطقس المتوحش. لدينا تاريخ سيء تجاه بقية مخلوقات الله. العطف الإلهي لا يقبل أن تكونوا بهذا الحال. بلا مأوى. بلا رعاية.



ولكننا نحن البشر خارج سياق ذلك العطف. توحشنا هو ما جاء بكم إلى هذا العراء القاسي...

صمتكما يشعرني بالخجل. هل تسمحان لي بأن استعير صوتكما. النباح هو السلوك الوحيد القادر على إيصال ما أريد قوله. لغتي البشرية عاجزة. بعد شروق الشمس سأسافر إلى الرب وسأخبره بقصتكما. سأتحدث معه بلسانكما. سأكلمه عن ما جرى في تلك الليلة. سأقول له بأنكما مارستما الجنس أمام بيته لغاية سامية. من خلال ذلك أردتما القول بأنكما كائنات بلا مأوى. ما فعلتماه أمام بيت الله لم يكن حماقة وإنما شكوى أردتما إيصالها بالطريقة الأكثر تأثيراً وان كانت تحتاج إلى نظرة تأمل. من المؤكد أن الرب قد تفهمها. أنا آسف لأني أزعجتكما في تلك الليلة. سذاجتي الإنسانية تبحث عن مغفرة. اصفحا عني. اغفرا للإنسانية توحشها وقسوتها. لابد من قدوم يوم تكون فيه الرحمة متداولة ومتبادلة بين مخلوقات الله. إنها القناعة بالافتراض ولكن لا بأس بذلك. سيأتي اليوم الذي يكون فيه نباحكما مسموعاً. أنا وانتما الآن تحت زخّات التيه والعتمة نبحث عن اليد الحانية التي تربت على أكتاف آمالنا. كلانا في الطرف الأقصى من الرغبة. نبث تساؤلاتنا للمجهول. نعوي في الهواء الطلق. لا شيء لدينا سوى الصوت فعلينا أن نطلقه بكل ما نملك من قوة...

أحدثكما الآن وأنا أجثو على أطرافي الأربع. وأنا أحاول الصعود إلى وجدانكما الكلبي. في كافة الأحوال لن أصل إلى ذلك ولكني أريد أن أعتذر. الاعتذار منكما هو الفعل الأخير الذي اطمح أن أقوم به في حياتي. رجائي أن تقبلاه. تقبلان هذا الاعتذار الصادر من نبي



محبط أضاع فرصته. أخبرا الآخرين من أبناء جنسكما بأن الأنبياء أيضاً يعتذرون. حاولا أن تمسحا الفكرة السيئة التي يحملوها عنا نحن البشر. قولا لهم بأن أحد الأشخاص تخلى عن بشريته وجثا على أطرافه الأربع في محاولة للتشبه بنا. قولا لهم بأنه جرّب أن ينبح أيضاً ولكنه لم يتمكن من ذلك. اذكراني مستقبلا وانتما تمارسان الحماقة المقدسة..



II

عند منعطف طريق مقفر لا أتذكر إني مررت به في الليالي السابقة سمعت صوت نقاش حاد. تبادل كلام بصوت عال. سرت بأكثر من اتجاه باحثا عن مصدر ذلك الصوت. رحت أتتبع أثره حتى وصلت إلى مكان الحدث...

اتخذت لي مكانا منزويا. من زاوية تمكنني من السيطرة على المشهد عاينت ما يجري. وعيي المتذبذب وغير المستقر ذكرني بأمر هام. عليك أن تكمل طريقك نحو النهاية. لا بأس. لا بأس. هكذا كانت إجابتي. كنت في حالة وسط بين الغيبوبة والصحو...

صوت الجدال الحاد شغلني عن التفكير بشخصية المتنازعين. كان وجه المعترض قبالتي أما المعترض عليه فكان ظهره لي. المعترض يحمل ملامح هرمة. سمعته يقول بحدة:

ـ عجلت علي يا ملك الموت...

رعدة مزعجة ضربت جسدي حين سمعت لفظة «ملك الموت»..

ـ ما فعلت ذلك...

سمعت صوته. فيه خشونة وصرامة تناسب الفكرة المخزونة داخل وعيي البشري. يستمر صوت المعترض:



ـ لقد عشت تسعمائة وستين سنة فقط.. بقي لي أربعون سنة..

لا يرد عليه ملك الموت. يكرر اعتراضه بالسؤال هذه المرّة:

ـ من قال لك بأن أجلي قد حان...؟

ـ أخبرني بذلك ربي...

ـ حسنا... لدي طلب..

ـ وما هو طلبك..؟

ـ ارجع إلى ربك واسأله...

بحركة خاطفة يختفي ملك الموت. الشيخ الهرم يبقى منتظراً. يبدو التوتر عليه. عيناه تراقبان السماء. لا أدري لماذا شعرت بالتوتر أنا أيضاً. عيني ترقب السماء بنفس النظرة الصادرة من الشيخ الهرم الواقف أمامي. كلانا ينتظر ما سيأتي من السماء. لحظات قليلة مضت وإذا بالكائن الذي غادر المكان قبل قليل يقف في نفس مكانه. لحد الآن لم أتمكن من مشاهدة وجهه. تكلم بثقة عالية هذه المرة:

ـ لقد سألني ربي عما حدث فقلت له يا رب رجعت إليك لما كنت أعلم من تكرمتك إياه فقال لي ربي ارجع واخبره بأنه سبق له أن وهب احد أبنائه أربعين سنة من عمره...

يسود المشهد قطع زمني لا يتكلم فيه أحد. المعترض يطرق برأسه. عيناه إلى الأرض. يبدو انه يحاول استذكار أمر ما. يرفع رأسه ويقول بصوت واطئ:

ـ لا أتذكر ذلك ـ ... ما فعلت ولا وهبت له شيئاً..



يخطو ملك الموت ثلاث خطوات متقدماً نحو الشيخ الـ... يقف قبالته. الشيخ يتراجع إلى الخلف بطريقة أظهرته بمظهر الـ... يقطع ملك الموت تقدمه ويقول بنبرة هادئة:

ـ هل نسيت ذلك اليوم الذي سالت فيه ربك: يا رب من هؤلاء الذين عليهم النور فأجابك بأنهم الأنبياء والرسل الذين سيتم إرسالهم للبشرية وكان فيهم رجل هو أضوؤهم نوراً ولم يكتب له من العمر سوى ستين سنة وقد طلبت من ربك حينها أن يُنقص من عمرك أربعين سنة ويضيفها لعمره..

يبدو الارتباك على وجه الشيخ المعترض. حركته ما عادت طبيعية. ينصت لذلك التذكير. تقاسيم وجهه تتغير مع كل كلمة يسمعها. في النهاية نطق بصعوبة قائلاً:

ـ ما فعلت....

قال ذلك وتحرك. بقيت عيني تتابعه وهو يمشي مسرعاً وملك الموت يحاول اللحاق به. لم أجد أي رغبة باللحاق بهما. شعرت بالضجر مما رأيته وسمعته. تسعمائة وستون سنة. حملت هذا الرقم على ظهر أفكاري وأنا أسعى جاهداً للابتعاد عن المكان. قارنته بعمري. دخلت في عدّة معادلات حسابية تحمل طابع المقارنة. في نهاية المطاف خرجت بنتيجة مبنية على وجود نماذج معينة من البشر على شاكلة «ظهر الدين»..

وعيي مشوش ولكن ذلك الاسم أزعجه كثيراً. الأشياء المزعجة تمتلك المهارة الكافية في مطاردة من يريد الإفلات منها. هاهي تقتفي خطاي وأنا في طريقي إلى النهاية. أحاول التخلص منها. انظر إلى



السماء. هل هناك المزيد من المطر. يبدو أني قد أضعت طريقي. المكان غير مألوف لديّ. إدراكي ضعيف. الصورة تتماوج أمامي. روائح العفن تهجم على أنفي. أمشي بسرعة. أهرول. لا أحد سواي. الأزقة ضيقة. أبحث عن نهايتها. يقلقني كل ما يتصل بالنهاية. رأسي ثقيل. أين أنا...؟

نهاية الزقاق سلمتني إلى نقطة تقاطع غير متوقعة. بدون أي مقدمات انبثقت قبالتي صورة مخالفة للسكون الرابض على صدر المدينة. ماذا أرى. كنت أتنقل في العتمة طيلة مشواري الغامض. هذه الانتقالة لم تكن كسابقاتها. وجدت نفسي واقفاً أمام قصر شاهق. هناك أناس كثيرون متجمعون أمام هذا القصر. كلهم ينظرون إلى الرجل المهيب الذي يقف عند شرفة القصر. دخلت بين الجموع. اخترقت الصفوف حتى صرت في المقدمة. أشارك في التفرج دون أي فكرة مسبقة عما يجري هنا. رجل كبير في السن متكئ على عصا طويلة. يبدو جامداً لا يتحرك ولا يطرف. منظره يثير الريبة والفضول. ضخم الجثة. أبيض الوجه. كثيف الشعر. انشغالي بأوصافه لم يمنع من الانتباه إلى ما يدور حوله من حديث يتداوله الحاضرون. مر عليه وقت طويل وهو على هذه الحالة. سمعت أحدهم يقول ذلك. رد البعض الآخر بأنه يصلّي. فيما أجمع آخرون بأنه يراقب عمل الجن المُسخّرين لخدمته. أستمع إلى الجدال المحتدم من حولي وعيوني لا تفارق الشرفة. أنصت بحياد رسمي إلى الطروحات المتفاوتة. شخص آخر قال بأنه بقي متكئا على عصاه طيلة هذه الأيام الطويلة ولم يتعب ولم ينم ولم يأكل ولم يشرب طاعة لربنا الواجب علينا عبادته. اعترض عليه أحد الحضور قائلاً إنه ساحر وإنه يرينا إنه واقف متكئا على عصاه ليسحر أعيننا. إنه عبد الله



ونبيه يدبر الله أمره بما يشاء. هذا الصوت كان أعلى الأصوات التي أدلى بدلوها كأنه بذلك أراد أن يحسم الموضوع..

لم ينته الخلاف. أنا أستمع وأراقب فقط. لا أدري ما أفعل وأي قول أصدق. تهت في زحام تلك الآراء المتباينة. كنت المشاهد الذي لا يعلم شيئاً. الحاضر بجسده الغائب بفهمه. أستعير المعلومات مما أسمعه. أسعى لتكوين فكرة تقرّبني لفهم ما يحدث هنا. أبذل كل طاقتي الإدراكية في سبيل ذلك. عدم اتفاق الآراء يشتت ذهني. الرجل ما يزال يطل علينا بوقفته الثابتة على شرفة قصره العالي متكئاً على عصاه دون أن تبدر منه أيّة حركة. يحدق في الأفق البعيد بعينيه اللتين لا ترمشان..

بقيت رهينةً للتخمينات غير المنتجة. فكرت بمغادرة المكان بسبب ذلك. ما جدوى البقاء هنا ما دمت لا أفهم شيئاً مما يجري حولي. بقائي في منطقة اللا فهم لم يكن أمراً مقبولاً بالنسبة لي. ما إن هممت بالتحرك ومغادرة المكان حتى رأيت أصابع بعض الحاضرين ترتفع إلى الأعلى لتؤشر باتجاه الشرفة مصحوبة بصيحات تنذر بحدوث أمر مفاجئ..

ـ انظروا... انظروا

نسيت قرار المغادرة. صوّبت بصري بالإتجاه الذي حددته إشارة الأيادي المرفوعة باتجاه الشرفة.. ماذا هناك. تلك الأيادي بحركتها المفاجئة أرجعتني إلى التخمينات مرّة أخرى. أركز بالنظر. لا أرى ما يراه الناس الذين أقف بينهم. يبدو أن طاقتي البصرية لا تماثل ما يمتلكونه من نظرات ثاقبة. ثمة اختلاف بيني وبينهم. إنهم من عصور أخرى. البشر فيها لا يطابقوننا من الناحية الجسمانية. أقف في مقدمتهم



بضآلتي وحجمي الصغير. تحركت قليلاً متقدماً باتجاه القصر. مؤملاً نفسي بأن ذلك قد يساعد على الوصول إلى ما يراه الآخرون. تقدمت الجميع بمسافة قليلة. عيوني نحو الأعلى. لم يعط أحد من الحاضرين أي أهمية لوجودي. جُل اهتمامهم كان متوجهاً نحو الشخص الواقف عند الشرفة. كنت منقسماً بين ذلك الرجل الواقف في الأعلى والجمهور الذي يراقبه. بدأت أتوتر. وأنا أحاول الحصول على فكرة تنتشلني من هذه الحيرة. عادت لي فكرة المغادرة. الحل الأنسب للتخلص من هذا المأزق هو الابتعاد عن المكان. سحبت نفسي بهدوء. خطواتي لم تكن جديّة. أقدم رجلاً وأؤخر الثانية. الإحساس بالإحباط يحفزني على الإسراع بالمغادرة بينما نفسي الأمّارة بالإطّلاع تعارض ذلك. تطلب مني التمّهل قليلاً لمعرفة سر ما يجري. فضولي أسعفه صوت أحد الحاضرين وهو يسأل شخصاً أخرى يقف إلى جانبه قائلاً:

ـ هل ترى الأرضة التي تتسلق الجدار..؟

هذا السؤال ألغى فكرة المغادرة من ذهني. الأمر يستحق التريث. رغم اني لا أرى الأرضة التي يتكلم عنها ذلك الشخص إلا إني كنت أتابع حركتها من خلال ما أسمعه من حديث يدور عنها..

ـ الأرضة تتسلق الجدار نحو الشرفة..

ـ إنها تتحرك بسرعة...

ـ النبي ما يزال يصلي..

ـ بل هو يراقب مملكته..

ـ الأرضة بدأت تأكل العصا..



ـ لقد سقط النبي..

ـ انه ميّت.. انه ميّت

ركضت مع الجماهير وأنا اردد العبارة الأخيرة. اصرخ بطريقة عنيفة وأنا أهرول بكل طاقتي. صورة الرجل وهو يهوي جعلتني أفقد صوابي. أركض بلا وعي. لم أنتبه لنفسي إلا في اللحظة التي اصطدمت بها بجدار أحد البيوت القديمة...

رأسي ثقيل. أسند ظهري إلى الجدار وأجلس. كم الساعة الآن. ما زال الظلام حالكاً. أشعر بدوران شديد. أريد ضبط وعيي وإعادة التوازن إليه. أين أنا...؟

ما هذا الذي أراه. هل انتقلت إلى عالم آخر. ما أشاهده حقيقة أم مجرد خيالات. أنا وحيد في هذا العالم المظلم. يحاصرني هذا الشعور ويضغط بقوة على نفسي المهددة بالأفول...

أضع يدي الباردة على رأسي المبلل. أتلمسه. أتحسس وجودي. أحاول النهوض. لا خيار لدي سوى مواصلة الطريق نحو النهاية. في هذا الوقت يواجهني المكان بتقلباته وتعدد صوره. أجد صعوبة بالغة في التعرّف على المنطقة التي أتواجد فيها. الصداع يشوّش الصورة. أحاول تفعيل ذاكرتي مقابل ما تقع عليه عيناي. لعلّي أصل إلى نقطة تعارف. في هذا الوقت الغامض. الوقت الذي يسبق الأفول. أردت أن أقوم بفعل أثبت من خلاله وجودي. أن أثبت ذلك لنفسي أولا. أن أتأكد من حقيقة ما أمر به....



قررت أن أقف في منتصف الشارع وأصرخ. أن أطلق صيحة في هذا الفراغ العظيم. أن أحرّك هذا العالم النائم..

استجمعت قواي ونهضت. أترنح في مشيتي. توسطت الشارع المغطى بمياه الأمطار. خلعت معطفي ورفعته بكلتا يديّ إلى الأعلى. سمعت مواء قطة سوداء تقف على مقربة مني. عيونها البراقة أعادت إلى نفسي وهج الحياة. أتهيأ لإطلاق الصرخة. رتّبت بعض الكلمات في ذهني. انتظرت قليلاً. أعدت ترتيب مفردات الصيحة. القطة ما زالت تموء. يداي مرفوعتان إلى الأعلى وهما تحملان معطفي الأسود كأنهما تلوّحان للحياة. يترنح جسدي وتسيل من فمي حروف متقطعة. أحاول لحمها وتركيبها حتى تصبح ذات معنى. أنظر إلى نهاية الشارع الحالك. جسمي يرتعش بقوة. ألمح شيئاً يتقدم باتجاهي. القطة لا تتوقف عن المواء. أطلب منها أن تصمت قليلاً. تستجيب لطلبي. أحسدها في داخلي لعينيها المضيئتين. ما زالت حروفي عصية على النطق. كلماتي المفككة تمتنع عن الاتصال ببعضها. القادم بدأت صورته تكبر. تتضح شيئاً فشيئاً كلما ازداد اقترابه. حركة يديّ لم تتوقف. رحت أعوّض عجزي عن النطق بالحركة. كلما ازداد اقترابه مني يكبر الحدس الذي يسيطر على إدراكي في هذه اللحظة. عندما أصبح على بعد خطوات مني أنزلت يديّ. كنت مجبراً على ذلك. حالة الذعر التي رأيته فيها غيّرت مسار تفكيري. كان مثلي مبللاً بالكامل. لم يمنحني الفرصة لإلقاء نظرة مستوفية عليه. إجتازني مسرعاً وهو يصرخ:

ـ لقد فقأ عيني...



لقد فقأ عيني...

كانت يده تغطي إحدى عينيه. بقيت أتابع صرخته حتى تلاشت مع صورته التي ذابت في الظلام. ارفع معطفي مرة أخرى. ألوّح به لعلّي أحظى بالبديل. القطة عادت للمواء. ألوّح للمجهول. إلى اللاشيء. إلى الفراغ. إلى الجانب الأقصى من الأمنيات. إلى رجائي الذي لم يتحقق في هذه الليلة. إلى ما لا يمكن الوصول إليه.. ألوّح وألوّح إلى ما لا نهاية..

أشعر بخدر ينزل في ساعديّ. أضطر للتراجع. أنسحب إلى المكان الذي كنت أجلس عنده. أعود إلى الجدار الذي كان سنداً لظهري قبل قليل. إعياء ودوار شديد ونظر مشوش. كيف يمكنني الاستدلال على طريق العودة. يبدو إنني في المكان الخطأ. إنها ليست المدينة التي اعتدت عليها. كل ما أراه الآن مختلف عما شاهدته في الليالي السابقة...

كم مضى من الليل. وكم من الوقت تبقى على طلوع النهار. ليتني أحظى بصديق يساعدني في الخلاص من هذه الحيرة المزمنة. أوجّه نظرة عتب إلى السماء. لو كنت قد استجبت لطلبي لكان كل شيء قد انتهى. لما كنت أصارع وحشتي في هذه الساعة المتجهمة. أنا غارق في الإبهام. لا أستطيع الإمساك بخيط الإدراك الواعي. القطة غادرت المكان. هي أفضل مني حالاً لأنها تمكنت من الاستدلال على الطريق الذي ستسلكه. كنت أتمنى أن لا تغادر. انتبهت لعدم وجودها متأخراً. لو كنت قد أدركت لحظة مغادرتها لقمت بتتبع خطواتها علها تنتشلني من هذا الضياع....



وأنا أفكر بالقطة وغيابها المفاجئ ظهر ذلك الكائن الذي اجتازني وهو يصرخ قبل قليل. لم يكن وحده هذه المرّة. كان يصطحب معه ثورا ضخما. لمحته يتجه إلى نفس الطريق الذي جاء منه. لم ينتبه لوجودي. يسير بسرعة فائقة ويده ما تزال على عينه. إنها فرصتي. لا حل أمامي سوى اقتفاء أثره....

تركت مسافة قليلة بيني وبينه. هيئته ليست غريبة عليّ. سبق لي أن رأيت هذا القفا. خطواتي متعبة وخطواته نشيطة. قطعت مسافة ليست بالقليلة وأنا أتابعه. كنت خلالها أحاول الوصول إلى نقطة دالّة تعيد إليّ بعضاً من ملامح المدينة التي أضعتها. شدّة الظلام كانت المشكلة الأكبر بالنسبة لي. في هذا المشهد الذي تسوده العتمة الطاغية كان ذلك الكائن يقودنا أنا والثور إلى ما نجهله. التوّقع يساير خطواتنا المذعنة إلى أن توقفنا في إحدى ساحات المدينة. في منتصف تلك الساحة يقف رجل يحمل بيده عصا غليظة. وقف صاحب الثور قبالته. تقصدت أن اترك مسافة تسمح لي بالاطلاع على ما يجري. لم تكن المسافة بعيدة بحيث إني اسمع ما يدور من حديث...

ـ لقد شكوتك إلى الله...

ـ وماذا قلت له..؟

ـ قلت له بأن عبدك فقأ عيني ولولا كرامته عليك لشققت عليه..

ـ وبماذا أجابك..؟

ـ قال لي اذهب إلى عبدي وقل له فليضع يده على كتف ثور فله بكل شعرة توارت تحت يده سنة...



ـ وماذا يعني هذا..؟

ـ هذا يعني إن الله قد ترك لك الخيار...

العصا تنتقل من يد إلى أخرى. إنها علامات التوتر. يقترب من الثور ويقوم بوضع يده على كتفه. لابد أنه يحصي عدد الشعيرات النابتة في ذلك الكتف. الكائن العائد من السماء ينظر إليه بعين واحدة. عينه الأخرى ما زال يغطيها بيده. يبدو أنها أصبحت عاطلة عن العمل. أراقب المشهد وفكري مشغول به. هل سيكمل مسيرته بعين واحدة..؟

ضحكت بداخلي وأنا أتخيل زملاءه وهم ينادونه بالملاك الأعور. تلك الضحكة تلاها شعور بالندم. أنّبني ضميري لأني ضحكت على مأساة ذلك الموظف المسكين. منظره وهو يغطي عينه بيده جعلني أتضامن مع قضيته. رفعت رأسي إلى السماء وقلت: يا رب أرجو أن تجري له عملية تجميلية..

قلت ذلك ثم تداركت. أنا أعلم بأنك لا تستجيب لكل الطلبات ولكنه مسكين يا ربي. هو الوحيد من بين أبناء جنسه الذي يخوض المواجهات الأكثر صعوبة. لابد أنك قد رأيت تلك العصا الغليظة وهي تهوي على عينه. أقول ذلك ورأسي ما يزال مرفوعا نحو السماء وعندما أنزلت عيني لأواصل متابعة المشهد تفاجأت بعدم وجود أحد أمامي. الجميع اختفى ولا يوجد لهم أي اثر. لا صاحب العصا الغليظة ولا صاحب العين المفقوءة ولا الثور. ركضت نحو المكان الذي كانوا يقفون عنده. درتُ في المكان. أبحث عن أي شيء يثبت ما شاهدته قبل قليل. أردت أن أعرف ما ستؤول إليه المفاوضات. صرت أنتقل من مكان إلى



آخر. انتابتني كآبة الفرص الضائعة. بقيت منشداً لقضية صاحب العين المفقوءة. سألت كل الأمكنة عنه. أمشي وأسأل. أوجه السؤال إلى كل ما أراه أمامي. بقيت على هذا المنوال هائماً في الشوارع الرطبة. في النهاية وجدت ما يجبرني على التوقف. تلك هي الصورة الكبيرة المنصوبة في أحد التقاطعات. وأنا أقف تحتها أحسست بأنني في كامل وعيي. لم أعد أشعر بالدوار. أنا لم أغادر المدينة التي احتضنت خطواتي الغريبة في الليالي السابقة. نظرة واحدة باتجاه الصورة بعدها وبدون أي تردد تسلقت المنصة الأسمنتية وسحبت الصورة بقوة وأسقطتها أرضاً. لأغادر بعدها المكان تاركاً ورائي ثلاث عمائم تذوق طعم التراب لأول مرة في حياتها.



III

إنه ينتظرني هناك. داخل الفندق. هذا الصباح لا يوجد بحوزتي شيء أصطحبه معي وأنا أعود من رحلتي الليلية. رجعت وحيداً بملابس مبللة أفكر بمن سبقني إلى الفندق. أحمل بداخلي آثار ليلة لم تمر كما أردت لها. أضعت فيها طلباً كنت أتمنى أن يستجاب له. أعود حاملاً خيبتها. أمشي بانكسار نحو النقطة التي حاولت أن تكون نهايتي بعيداً عنها. ذلك الكائن الذي تجاوزني عندما كنت ممدداً تحت المطر يسير معي الآن. صورته تسايرني. أستعيد صوت خطواته الثقيلة التي أكدّت لي بأن عليّ اللحاق به إلى المكان الذي لا مفر من أن تكون النهاية فيه...

لا أدري أين سيتواجد في انتظاره لي. ربما عند باب الفندق. احتمال كبير أن يكون المكان المناسب هو عند باب قارئة الأقدار. ربما في غرفتنا المشتركة بالبؤس. هذه الـ«ربما» لا تحسم الموضوع. خطوة واحدة وينتهي كل شيء. قليل من الوقت وتنتهي كل هذه التوقعات...

وداعي للمدينة لم يكتمل. يداهمني ذلك الشعور كلما زاد اقترابي من الفندق. قطعت أكبر مسافة في زواياها المعتمة. قلت لها كل ما يجول بخاطري. واصلت السير في أزقتها إلى اللحظة التي خرجت فيها العين الحمراء من الأفق. لم يعد هناك أي داع للخشية. أراقب شمس اليوم



السابع بلونها القاني وهي تسطع من بين نتف الغيوم المتناثرة في جهة المشرق. لقد انتهت طقوس الحزن الليلية التي أقيمت على شرفي بعد أن أدّت السماء ما عليها وودعتني بالطريقة التي تناسب حكايتي التي عايشت أحداثها طيلة الليالي السابقة. لقد بكت السماء بما فيه الكفاية وهي تراني مُمّددا على الإسفلت أنتظر المأمور الذي سينتزع روحي. بكاؤها المر لم يتوقف إلا بعد أن تجاوزني ذلك المأمور...

اللون الأحمر الذي اكتست به الشمس يشاكس ذاتي المتجهة نحو الأفول. الشروق يعلن بدء اليوم الأخير. اليوم الذي سيؤرخ لرحيل الشخص الذي سقط سهواً من سجل الأنبياء. الشخص الذي خطط لسرقة العمامة فكان ضحية لها.

من المؤكد بأنه يبحث عني الآن. ينتقل من غرفة إلى أخرى باحثاً عن الشخص الذي صدر الأمر الإلهي الخاص بإنهاء دوره في الحياة. ينتظر عودة المجنون «سارق العمامة». يتهيأ لإقامة مراسيم قبض الروح. يصعب عليّ الإفلات من هذه الفكرة المُلتصقة بدماغي. الفكرة المُقلقة تتضخم كلما زاد اقترابي من الفندق. أرسم صورته في ذهني وأتخيّل الطريقة التي سيتعامل بها معي ثم تمر ببالي صور أخرى. أتخيل نفسي في إحداها وأنا ميّت...

عند باب الفندق تجمّدت قدماي. نظراتي تجاوزت الباب مُتسللة إلى الداخل. أرى جثة هامدة وعلى مسافة منها يقف نزلاء الفندق وهم ينظرون إليها بذهول وخشية. يحملقون في الوجه الذي علته صفرة الموت. ذلك الوجه المتخشب يبادلهم النظرات. إنه وجهي. أشعر



باحتياج غير مألوف. حاجة مُلّحة لاستجماع أكبر قدر ممكن من ردود الأفعال المتعاطفة مع شخص حديث العهد بالموت. طمع استثنائي. طمع الأموات. أحاول التعبير عما أريده ولكن ذلك خارج استطاعتي لكون حواسي مُعطّلة. طلبي بسيط ويتلخّص بالرغبة بالحصول على تعاطف أي شخص يكون قريباً مني في هذه اللحظة. أن لا أكون وحيداً. كلمة عزاء تقتل وحشة التوحّد مع الموت. حاجتي بسيطة ولا تكلّف الكثير من المشقة. خطوة واحدة باتجاهي. لمسة عطف تشعرني بأني لم أتحوّل إلى مخلوق مرعب...

أبادلهم النظرات. جمودي وسكونيتي تبني جداراً فاصلاً يباعد بيننا. هناك ما يحول دون اقترابهم مني. عيوني المفتوحة تفترس الوجوه الحذرة. لا أمتلك ما يعبر عني رغم حاجتي الماسة لذلك. ميل للاستغاثة. رجاء أعزل. أنا لست مرعباً. لا تخافوا مني. اقتربوا مني أرجوكم. أنا إنسان. لم أتحول إلى وحش. لا تخافوا أرجوكم...

لا استجابة سوى الصمت..

انتبه لنفسي. ما زلت عند عتبة الفندق. يبدو إني قد فكرت بصوت عال. الباب المفتوح يدعوني للدخول. لابد انه قد تفاجأ بارتباكي. اعتاد أن أتجاوزه في الأيام الماضية بخطوات لا يشوبها أي تردد. عبرت الباب ونفسي تقول لي أيها النبي المخذول لقد فكرت بكل شيء ما عدا الموت..

الطابق الأرضي فارغ تماماً. لا حركة فيه. كل شيء هادئ. بعد أن اجتزت الباب بخطوات توقفت دون أن أعرف السبب. شعوري بثقل



قدميّ زاد من إحساسي بالخذلان. حاجتي للآخر الداعم دفعتني للبحث عن خيارات إسنادية. نظرة مني إلى الخلف تكشف خيوط الشمس البيضاء التي دخلت من نفس الباب الذي شهد عبوري قبل لحظات. تلحق بي مصحوبة بنسمات هواء باردة. خطوة واحدة إلى الأمام. خذلني لساني عندما أردت الاستعانة بكلمة رأيت إن نطقها سيرفع من معنوياتي. أصوات غريبة تلامس سمعي. مرّة أخرى أحاول الاستعانة بالكلمة التي فشلت في استحضارها قبل قليل:

ـ يا... اللـ... يا.... اللـ....

لقد فقدت الاتصال بالرب. إلهي الداخلي الذي كان معي طيلة الأيام السابقة والذي كنت أتكلم معه وأخاطبه بدون إحراج وبلا قيود أفتقده في هذه الساعة. اختفاؤه في هذه الساعة لا يعني انه قد تخلّى عني. هذا مجرد إشعار بضرورة التهيؤ لمواجهة لحظة الغياب الأبدي. انقطاع مؤقت سيعقبه اتصال دائم. التجربة في مراحلها الأخيرة. النهايات مؤلمة ولابد من إيجاد شيء من رباطة الجأش لمواجهتها...

هناك حركة غير طبيعية في الأعلى تعاكس الهدوء السائد في الطابق الأرضي. لغط وأصوات اقرب إلى النواح تضغط على خطواتي البطيئة المرتبكة. عيناي اللتان فقدتا نصف قدراتهما البصرية ليلة الأمس تستثمران النصف المتبقي للاقتراب من النقطة النهائية المرسومة في الصفحة الأخيرة من سجلي القدري. حميمية الحياة تتوسل قدميّ لعدم الإسراع بالحركة. تلك التوسلات تقيدني. أتجاهلها. أخطو عدّة خطوات باتجاه السُلّم. بكاء. نعم بكاء هو ما أسمعه. تيقنت من ذلك



الصوت الذي يأتي من الأعلى. عند أول سُلّمة تأكدت من ذلك. أعيد النظر إلى الوراء. يقع بصري على مقعد مدير الفندق الخالي والذي لم يعتد مبارحته في هكذا أوقات. خدر قوي بدأ يسري في جسدي ابتداءً من قدمي صعوداً إلى رأسي. رحت أستعين بيديّ في مواصلة الصعود. برودة الحائط الرطب تنتقل إلى يديّ المرتجفتين. الضعف المفاجئ تجاوز جسدي ليشمل تفكيري أيضاً. مسافة السُلّم أقطعها وأنا أستغيث بالعقل. مع كل سُلّمة افقد جزءاً من طاقتي...

تجّمع غير طبيعي في الممر العلوي. بعض النزلاء يقفون عند عتبات أبواب غرفهم وهم يتهامسون وعيونهم متجهة نحو غرفتنا. لا يصلني شيء مما يتهامسون به.أمشي بخطوات شبه مشلولة. الطريقة التي ينظر بها النزلاء لي تزرع الرهبة في نفسي. الوجوه في أقصى درجات الحزن. رأيت دموعاً على بعض تلك الوجوه. أجتازهم بحيرتي وعجزي عن فهم ما يجري. لماذا ينظرون لي ويبكون. لماذا هذا التجمّع الحزين قرب غرفتي. ما الذي يجري. أنا لم أمت بعد...!

أسحب خطواتي بتثاقل واضح باتجاه الغرفة تهرباً من النظرات المشفقة. هناك أصوات يمكن تمييزها تأتي من داخل الغرفة. نحيب يخالطه كلام متداخل غير مفهوم. أصوات النحيب القادمة من الغرفة جعلتني أفكر بالتراجع. هل كل هذا يجري من أجلي..؟ كاد صوتي يفلت من حنجرتي تحت ضغط الصرخة المكبوتة:

أنا لم أمت بعد..

لماذا تبكون...؟



ابتعد الواقفون عند الباب ليفسحوا لي الطريق للدخول. مدير الفندق يضع يده على وجهه ليمسح دموعاً بلّلت خديه. تقدّم نحوي وأراد أن يقول لي شيئاً ولكنه اختنق بعبرته. تنحى جانباً بعد أن وضع يده على عينيه...

ماذا حدث...؟

صرخت بأعلى صوتي وأنا أرى طاهر يضع الطفل في حجره ويبكي وهو محاط ببعض النزلاء الذين كانوا يشاركونه البكاء. ارتفعت حدّة بكائهم حال مشاهدتهم لي. كررت الصرخة وأنا في مكاني عند باب الغرفة. لم تردني أي إجابة. الدموع وحدها التي تتكلم. اشتد نحيب الحاضرين عند سماعهم لصراخي. بكاء فقط. لا أحد يتكلم وأنا أقف بينهم كالمصعوق...

نظراتي تجمّدت حين أبصرت وجه الطفل. عيونه مفتوحة. ينظر إلى الأعلى. نظرة باردة لا حياة فيها. سحبت الطفل بعنف من حضن طاهر وأنا أواصل الصراخ اللا إرادي. كان صراخي يتلاشى في هدير النشيج الذي يملأ الغرفة. لم أكن أعي شيئاً في تلك اللحظة سوى تمييزي للملامح المعترضة في السابق والتي تغيرت صورتها الآن. جميع الذين اعترضوا على وجود الطفل متواجدون هنا وهم يبكون. رحت أواجه تلك الوجوه بالصراخ. مقابل كل صرخة تصدر مني كانت هناك دمعة. عندما أصبحت قبالة طاهر ورأيت الدموع المنسابة على خديه لم أتمالك نفسي فأجهشت بالبكاء. احتضنني طاهر بقوة وقال:

ـ لقد مات قبل ربع ساعة...

استمر التحامنا الفجائعي لعدّة دقائق. طاهر ينشج بمرارة. دموعه



بلّلت كتفي. بعدها مدّ يديه لي طالباً مني إعطاءه الطفل. كان رأس الطفل متدلياً على يدي. رفعته قليلاً إلى الأعلى. أصبحت عيناه بمواجهة عينيّ. لم أمتلك الشجاعة الكافية لمواجهة نظرات طفل ميت...

اكتظت الغرفة بالنزلاء. رحت أتنقّل بين وجوههم بدون وعي. أطالبهم بتقديم تفسير لهذا الجنون الكارثي الذي أصابنا. كان نحيبهم يطعنني. رحت أدور في الغرفة كالمجنون والطفل بين يديّ. أواجه الطعنات بالصراخ. دمعة تسلّمني إلى أخرى. حتى وصلت إلى ذلك المختلف الذي يقف مرتبكاً في إحدى زوايا الغرفة...

كان بعين واحدة. هو الوحيد الذي لا يبكي في هذا المشهد. له شكل لا يشبه البشر. يقف صامتاً يراقب الموقف وهو يحمل بيده المبسوطة شيئاً غير واضح المعالم. عندما اقتربت منه بدأ بالتراجع إلى الوراء. كانت يدهُ ترتعش. من عينه المفقوءة عرفت من يكون. ازداد ارتباكه حين أصبحت قبالته. شفتاه ترتجفان وهو يواصل التراجع إلى الخلف حتى التصق ظهره بالحائط. عيناه تصعدان وتنزلان مُقسّمتان نظراتهما بين وجه الطفل وبيني. يدهُ ما تزال مبسوطة ولكنه قام بضم أصابعه على راحتها لإخفاء ما تحمله. اقتربت منه أكثر. راح يتلفت يميناً وشمالاً كمن يبحث عن منفذ للهرب. أنزل يده بسرعة وكأنه لا يريد أن أرى ما فيها. حاولت أن أقول له شيئا ولكني لم أجد عبارة تناسب ألمي وانكساري. أخفضت عينيّ فوجدت عينيّ الطفل تنظران إلى وجهي. لم أستطع مقاومة نظرات طفل ميت. رفعت رأسي وصرخت:

ـ حتى أنتم تخطئون، أيها الملائكة...!!



سارق العمامة

... مغامرة الإنسان ..حين يتجاوز المحظور

يخوض الروائي المتميز شهيد في روايته الجديدة في عالم مختلف قد لا يقبله الكثيرون، بسبب هاجس التابوات التي تهيمن على العقل الجمعي والوعي العام، الذي يجد نفسه عاجزا عن إطلاق الأسئلة الكبرى، التي لا تجد إجاباتها الحاسمة بسهولة، لذلك فإن سارق العمامة رواية خطيرة وجريئة جدا، تخوض في المحظورات، كما أن فيها فلسفة خاصة وتعاملا مع الوقائع بشكل مختلف، كما إنها مشاكسة تجمع الواقع بالفنتازيا، والحلم بالمعرفة إضافة إلى النبل والإنسانية بأعلى درجات التعبير عنها ولعل قارئ هذه الرواية سيصاب بصدمة تلقٍ، أول مرة وهو يشرع بالإبحار في خضم الأحداث، التي تبدأ ببساطة، سرعان ما تسحب معها القارئ إلى منطقة متلاطمة، تتداعى فيها الأسئلة والتصورات والبحث عن سبل الخلاص المشروعة في عالم يسقط تحت براثن المفاهيم السائدة التي تعودنا أن لا نحاول إعادة تفسيرها أو قراءتها.

جدير بالذكر أن "سارق العمامة" عمل روائي جديد يتميز بالمهارة الفنية في صياغة الحدث، وصناعة الدهشة والتعامل مع المسميات والأحداث بوعي عال ومقدرة روائية على الإمساك بنسيج الثيمة في أعلى درجات توترها.

ولا تخلو الرواية الجديدة لشهيد، من الرسائل والرموز، والتعامل العالي مع فكرة المقدس والتقديس، إضافة إلى الهاجس الإنساني المتوقد، الذي توزع نبله على شخصيات العمل المستلة بدقة وعناية وحرفية عالية من المجتمع، وكذلك بيئة الأحداث وأمكنته.

لعل رواية "سارق العمامة" ستكون في إصدارها عن دارنا إضافة مهمة للرواية العراقية الحديثة.

الناشر



دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07700492576 - 07711002790
e.mail: bal_alame@yahoo.com


ISBN 978-1-7732217-0-0
9 781773 221700